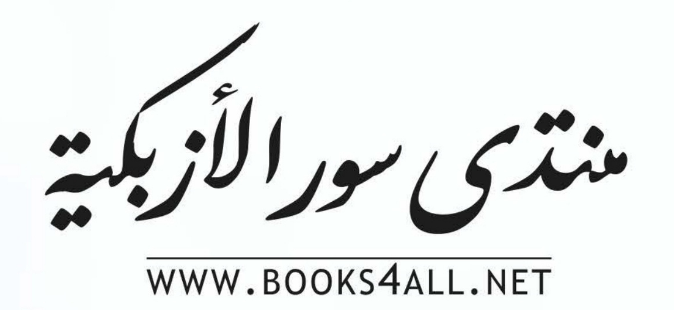


البشرية تفقد الذاكرة

إيمانويل فليكوفسكي

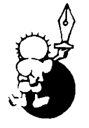

منتدى سور الأزبكية
WWW.BOOKS4ALL.NET

البشرية تفقد الذاكرة

إيمانويل فليكوفسكى

ترجمة

فاروق عبد القادر



العروبة للدراسات والأبحاث
(تحت التأسيس)
ت / ٠١٠١٥٠١١٤٥

الكتـــاب : البشرية تفقد الذاكرة
الكـاتـب : إيمانويل فليكوفسكى
الترجـمـة : فاروق عبد القادر
الغــلاف : حسين جبيل
رقم الإيداع : ٢٠٠٣/١٧٧٤٤
الجـمـع : الحضارة للنشر
التنفـيـذ : شركة الأمل للطباعة والنشر
ت : ٣٩٠٤٠٩٦

الطبعة الأولى : ٢٠٠٣



البشرية تفقد الذاكرة

تهـــويد التـــاريخ

دعوة مـــفتوحـــة للدفاع عن التاريخ القديم، تهدف للتعريف بالثقـــافة المضادة وترجـــمة نصوصها، ونشر الردود عليها فى سبيل المساهمة فى إحياء، حركة تنوير فكـــرية/تاريخية تعتمـــد العلم والأصالة والجدية

المشـــرف العـــام

رضـــا الطـــويـــل

مستسار التحرير

كـــمـــال رمـــزى

مديرا التحـــرير

رفـــعت الســـيـــد على

مـــحـــمـــود الطويل

سكرتير التحـــرير

خـــالد الشـــلودى

إلى حفدتي:

ماير، ناعومي، ريفكا، رافاييل، كارمل.

تصدير

لين. أ. روز: أستاذ الفلسفة، جامعة نيويورك فى بافالو

يصف ايمانويل فليكوفسكى عمله عن فقدان الذاكرة الجماعى بقوله: «لا يتناول "البشرية تفقد الذاكرة" الماضى وحده، شأن أعمالى الأخرى، بل يتناول المستقبل، لا المستقبل الذى يبعد عنا آلاف، أو عشرات آلاف السنين، بل المستقبل الوشيك، الذى نقف الآن على أعتابه».

الموضوع الذى اختاره ايمانويل فليكوفسكى هو الشرط السيكولوچى للجنس الإنسانى وتاريخ حالته. وبالفعل، فإن أى جانب من جوانب السلوك الإنسانى، وأى نمط من أنماط التاريخ الإنسانى، وأى بند من بنود المعتقد الإنسانى، إذا تم فحصه وإيضاحه فى ضوء موضوع هذا الكتاب، فسوف يتبين كيف تشكل وتقولب الفكر الإنسانى والفعل الإنسانى، بفعل الذكريات الجماعية المكبوتة للكوارث الكونية التى أصابت أسلافنا القدامى قبل مائة جيل على الأقل.

فى القسم الذى يحمل عنوان "فقدان الذاكرة الجماعى" من "عوالم فى تصادم" المنشور فى عام ١٩٥٠م، وضع فليكوفسكى الخطوط العامة لموضوعه السيكولوچى. ونظريته عن فقدان الذاكرة

الجماعى والتى تفسر عجز الناس عن النظر إلى الدلائل القاطعة للكوارث العالمية المتدفقة من كل أجزاء الدنيا، وهى بالغة الوضوح، وعدم رغبتهم فى رؤية ما تعنيه. يصوغها فليكوفسكى فى "عوالم فى تصادم" (ص ٣٠٠ - ٣٠٤) كما يلى:

"لقد محيت ذاكرة الكوارث، لا بسبب غياب تراث مكتوب، ولكن بسبب عملية مميزة هى التى أدت فيما بعد بأمم كاملة مع مثقفيها لأن يروا فى هذا التراث استعارات وكنايات، فى حين أنه كان وصفاً واضحاً لاضطرابات كونية..".

ومن أجل معرفة تفصيلية بشواهد ماضينا الكارثى يجب قراءة عملى فليكوفسكى: "عوالم فى تصادم" و "الأرض فى اضطراب". كتب فليكوفسكى "البشرية تفقد الذاكرة" على مدى سنوات عديدة؛ كتب أغلبه فى الخمسينيات وأوائل الستينيات، لكنه ظل يضيف إليه أجزاء حتى العام الأخير من حياته، ١٩٧٩.

فقد كان موضوع فقدان الذاكرة الجماعية على هذا القدر من الأهمية عند فليكوفسكى حتى أنه لم يهمل أبداً - خلال تلك السنوات الطويلة - إدراجه فى محاضراته بالكليات والجامعات، وفى أحيان كثيرة كان يخصص المحاضرة كلها لهذا الموضوع. وكان يعود دائماً إلى تأكيد عنصر مهم فى هذا الموضوع، نوجزه - بكلماته - فى الفصل الثانى من كتابه هذا: "إن الكارثة يمكن أن تقع، لا بسبب تصادم كوكبى آخر، ولكن بما صنعته يد الإنسان نفسه، ضحية فقدان الذاكرة، فى امتلاكه للأسلحة النووية الحرارية".

مات ايمانويل فليكوفسكى فى ١٧ نوفمبر ١٩٧٩م، عن أربعة وثمانين عاماً. ونظراً للسبب المتضمن فى النص المقتبس فيما سبق، فإنه كان يرى من الضرورى أن ينشر "البشرية تفقد الذاكرة" دون إبطاء، أو كما كتب: "لسنوات طويلة، ظل عملى فى كتبى يتطلب كل وقتى، لكننى سوف أفى بقسم "أبقراط" الذى

أقسمته بخدمة الإنسانية عن طريق كتابى هذا، ومن ثم فهو عمل يستحق الأولوية والسبق.." إذن، هو أول كتاب له ينشر بعد موته، وثمة أعمال أخرى تنتظر النشر، تنتظر أن يراها الناس مطبوعة.

معظم العمل فى إعداد "الإنسانية تفقد الذاكرة" للنشر قامت به ايليشيڤا فليكوفسكى، بمعاونة چان. ن. سامر.

تمهيد

الأرض الطيبة

كان أمراً بالغ الصعوبة لعقل الإنسان أن يفارق الاقتناع بأن الأرض التى يعيش عليها ثابتة لا تتحرك، وأنها فى مركز الخليقة؛ أى فى مركز ذلك النظام الذى تنتمى إليه الشمس والقمر والكواكب، والذى تبدو فيه النجوم بلا هدف أو شكل واضح. ومحتمل أن المعارضة العقيدية لنظام مركزية الشمس فى الكون لم تكن مكتملة وصلبة، حيث إنه من المعروف أن الأرض وإن كانت لا تشغل مركز النظام إلا أنها تشغل المكان المميز منه، وأنها تملك الشروط المثلى للحياة والتقدم.

الشمس لهب متوهج، و"عطارد"، أقرب الكواكب للشمس، ساخن لدرجة أن وجهه المضئ قادر على صهر بعض المعادن، ووجهه مرقش ببقع شمسية، وليس له سوى بقايا غلاف جوى. و"كوكب الزهرة" مكفن فى سحب كثيفة من الغبار والغازات، وتتجاوز درجة الحرارة ٨٠٠ فهرنهيت على سطحه الأرضى، سواء على الجانب المضئ أو المعتم منه. وتطول فترة النهار فيه لتبلغ ثمانية وخمسين يوماً من أيام الأرض، ويطول الليل الفترة ذاتها. كان القدماء يسمونه إبليس (لوسيفار)، وهو جحيم، لا يمكن أن تقوم حياة تحت هذه المظلة الداكنة من الغبار على سطحه. ويقع هذان الكوكبان: عطارد والزهرة، على مداريهما، بين الشمس والأرض.

على مدى أبعد فى الفضاء، يقع المريخ على مدار من ٦٨٧ يوماً أرضياً، وفترة النهار فيه تقارب فترته عندنا، وفصوله، ذات الطول المضاعف، لها نفس التتابع، لكن كمية الحرارة التى تتلقاها وحدة السطح فيه نصف ما تتلقاه الوحدة على الأرض، وإذا كانت ثمة مياه على المريخ فلابد أنها متجمدة لحد كبير، ولكن ما يبدو أنها قليلة جداً أو غير موجودة وسطح المريخ مبقع بالحفر، وليس له المظهر الرعوى الذى كان يظنه البعض، بل هو مدى من الحفر والجروف والقفار.

بين المريخ وعطارد شظايا من جسم متفجر، يبلغ عددها الآلاف، تتحرك فى مدارات، يعبر بعضها طريق المريخ أو حتى الأرض، وعديد من هذه الكتل يبلغ ثقل الواحدة منها بلايين الأطنان، ولا يبدو أن أيًا منها تدب فوقها حياة.

عطارد وزحل، اللذان يبعدان عن الشمس من خمس إلى تسع مرات قدر بُعْد الأرض على التوالى، تتلقى ذات المساحة فى كل منهما من ضوء الشمس وحرارتها ما يقارب واحداً إلى خمسة وعشرين، وواحداً إلى ثمانين مما تتلقاه الأرض، وغلافهما الجوى يحتوى على غازىْ النشادر والميثان، أما أحوالهما الداخلية فغير معروفة. وقد تم اعتبار هذين الكوكبين، أخيراً، نجوماً معتمة. وعطارد مصدر قوى للإشارات الإشعاعية، وغلافه الجوى ذو حركة عنيفة.

الكوكبان العملاقان الآخران: أورانوس ونبتون لا نعرف عنهما إلا أقل القليل، لكن القليل الذى نعرفه لا يوحى بأنهما مكانان صالحان للخلق والإنسان؛ وذلك لابتعادهما بذلك القدر عن الشمس، واهبة الضوء والدفء.

أما تابعنا: القمر، فهو مشهد ممتد من القفار، ومحيطات مراقة من الحمم وفوهات براكين لا حصر لها، لا غلافاً جوياً ولا مياه،

يتعرض نصف الشهر فيه لأشعة الشمس الحارقة، ثم استراحة قصيرة لمدة نصف شهر من الليل، لا حماية له من برودة الفضاء بغلاف جوى أو سحب. ضد كل هذه الشروط فى البيئة غير المُرحبة، تبدو الأرض مكاناً مباركاً للإقامة؛ لدينا مياه وفيرة، أربعة أخماس الكوكب مغطاة بالمحيطات، تتبخر المياه، وتفقد ملوحتها، ثم ترجع أمطاراً، الأنهار والبحيرات تتوزع على القارات الخمس؛ هذه القارات تعد مساحات آمنة للإنسان: الحيوان الأرضى، كى يسير على قدمين.

الأرض محاطة بغلاف جوى من الأوكسچين، المخفف فى النتروچين بنسبة جزء واحد إلى أربعة أجزاء بحيث إن عملية التأكسد - فى عملية تنفس الحيوان - لا تؤدى لاحتراق الأنسجة.

تحيا النباتات فى توافق عضوى مع الحيوانات: الحيوانات تستهلك الأوكسچين وتزفر ثانى أكسيد الكربون، والنباتات تستهلك ثانى أوكسيد الكربون وتزفر الأوكسچين. ومن معادن الأرض، ومن المياه، ومن أشعة الشمس تستخرج النباتات غذاءها وتنتج ثمارها، كل نبات حسب صيغة خاصة به، وتتغذى الحيوانات على هذه الثمار.

والمياه على هذا الكوكب، خارج المحيطات، يتجمد بعضها ويتصلب، ويسيل بعضها ويفيض، ويبقى بعضها على هيئة بخار، فيقوم بترطيب الغلاف الجوى، والمحيطات مهاد ثرية للحياة (وفى الحقيقة، من المفترض أن الحياة قد بدأت فيها، وأنها انبثقت منها مع الزمن، وسكنت الأرض التى تقبلتها ومنحتها فرصة التكاثر).

والأرض، كلها، محاطة بغلاف ممغنط، يحميها ويحمى ساكنيها من أذى الأشعة الكونية؛ وهى جسيمات الطاقة التى تقذفها الشمس وسواها من الكواكب فى ملايين وبلايين الڤولتات الإلكترونية من شحنات الطاقة - وتحت هذا الغلاف الممغنط طبقة

من الأوزون، تحمى الأرض وساكنيها من الأشعة فوق البنفسجية، التى تنتج تغير طيف الأضواء غير المرئية، المصاحبة للضوء المرئى، والصادرة عن الشمس، كذلك يتم ترشيح أشعة إكس القادمة من الفضاء، ويحترق معظم الغبار القادم من الفضاء أثناء حركته فى الغلاف الجوى.

والأرض، بغلافها الجوى ومحيطاتها، تدور حول محورها مرة كل أربع وعشرين ساعة تقريباً، ومن ثمَّ يتعاقب النهار والليل على فترات ملائمة لتبادل النشاط والراحة؛ أى نوم الليل. هذا التعاقب السار لنا، تتزايد سرعته على عطارد الكبير، حيث يتعاقب النهار والليل بخمس ساعات لكل منهما! كم سيكون الاختلاف فى ساعات عملنا وممارساتنا الاجتماعية لو كانت كل الفترة بين الاستيقاظ والنوم لا تزيد عن خمس ساعات، أو كانت تتغير مرة واحدة كل ثمانية وخمسين يوماً أرضياً كما على الزهرة، أو فترات أطول كما على المريخ؟!

وعلى الأرض، تستكمل النباتات دورتها فى رحلة على مدار مدته ٣٦٥ يوماً، ومع كل دورة جديدة تتجدد الطبيعة، ويؤدى ميل المحور على السطح الدوار إلى الفصول وتعاقبها.

هذه الأحوال والظواهر هى المسؤولة عن تطور الحياة على هذا الكوكب وتقدمها، بما فى ذلك الإنسان، إلى الأشكال القائمة اليوم. ورغم عبقريته لم ينجح الإنسان، إلى الآن، فى خلق الحياة من مادة غير عضوية، لكن الطبيعة: الضوء والحرارة وسواهما من أشكال الطاقة تتعرض لها مادة تحوى عنصر الكربون، بدأت الحياة وطورتها، استبعدت أشكالاً عديدة وانتقت أشكالاً أخرى، حتى نشأ "النوع الإنسانى" عبر تحولات وتغيرات لا حصر لها، وفى تقدم سريع قام بتطوير الفنون والصناعات، وضاعف من اهتماماته ووسائل استمتاعه، استمع إلى الذبذبات الصوتية ثم أبدع

السيمفونيات، ميز بين الألوان، ثم أبدع الفنون البصرية، كما أبدع عوالم أخرى من الخيال، ولكى يعيش فى راحة ابتكر آلاف الأدوات، ولكى يعيش فى أمن أقام القانون بقوته الملزمة.

والإنسان صاحب فضول لمعرفة الطبيعة من حوله، يدرس الكروموزومات والچينات، يدرس العوالم الصغرى فى الجزيئات والذرات، والعوالم الكبرى فى الكواكب والمجرات، وقد وجد أنه ثمة بلايين المجرات، وأن مجرة واحدة مثل "الطريق اللبنى" (درب اللبّانة) له مائة بليون من النجوم، ومن المحتمل أن بعض هذه النجوم لها كواكب تدور حولها، ولكن هل هناك أى احتمال لأن تكون شروطها قد نضجت وأصبحت مفيدة لنشوء حياة وتطورها؟

لم تَرِدنا بعد إشارات من الفضاء الخارجى يمكن أن ننسبها إلى مرسلين أذكياء، ومادمنا قد عرفنا حالة القفر على الزهرة والمريخ، فنحن متأكدون أننا الأذكياء الوحيدون الذين يقطنون المجموعة الشمسية، بصرف النظر عما إذا كانت كواكب أخرى، ربما فى مدارات أخرى، قد احتضنت الحياة فى الماضى أو أن هذا لم يحدث.

لقد ذهب إلى الأبد أولئك الرجال الخضر الصغار، أهل الزهرة، والذين كان السذج من الناس يصدقون الزعم برؤيتهم كحقيقة مؤكدة، ثم جاء بعدهم أهل المريخ، وهم سلالة ذات شكل غريب، كانوا موجودين فى خيال الكثيرين، لكن أحداً لم يتقص آثارهم. إن ثمة ما يقارب سبعة بلايين ونصف البليون ميلاً عبر مدار أبعد الكواكب، وما يزيد على خمسة وعشرين تريليون ميلاً حتى الكوكب التالى، ونطاق شمسنا يمتد إلى مساحة ذات قطر مكافئ. إن مجموعتنا الشمسية ذات معنى لأن تكون مهاد الإنسان أكثر مما هى ذات معنى لأى شىء آخر. ولاشك فى أن الطبيعة كانت كريمة ذات سخاء حين خصصت كل هذه المساحة لترف خلق الإنسان، لكن

المكان الذى يشغله بالفعل بالغ الضآلة فى نطاق مملكة الشمس: كوكب عبر ثمانية آلاف ميل فقط. وفى عصرنا استطاع الإنسان أن يدور حول هذه الكرة الصخرية بمحيطاتها وغلافها الجوى فى تسعين دقيقة من الطيران. ولو أن الضوء يسير فى دوائر لأمكنه أن يدور حول الأرض ثمانى دورات فى الثانية الواحدة. هذا نصيبنا من الكون.

عالم على هذا القدر من الضآلة فى فضاء على هذا القدر من الاتساع، لكنه فى القسم الأمثل من هذا الفضاء. ألسنا محظوظين؟! إنه سؤال ينفى نفسه؛ لأننا لم نكن لنكون هنا لو لم ترتب الأمور على هذا النحو الرائع. وقد يبدو أن العناية الإلهية لابد إنها كانت وراء هذا الترتيب، وأن الشروط السائدة الآن على الأرض لابد من إنها قد تم إعدادها وكانت موجودة وقائمة منذ بدء الزمان، على الأقل منذ المرحلة الأولى من تطور النظام الشمسى، على أن الحقيقة المفزعة هى أن الشروط التى نحيا ونتطور فى ظلها لم تكن دائماً على النحو نفسه من البداية.

إن دراسة أحداث الكوارث التى وقعت فى العصور التاريخية ترجع بها إلى بدايات القرن السابع قبل التقويم الحالى، وبمقياس أكبر ترجع إلى ثمانمائة سنة قبل ذلك؛ أى إلى القرن الخامس عشر قبل هذا التقويم، وكانت هذه الأحداث نهاية سلسلة طويلة من الأحداث المماثلة، وقد أوضحت دراسة قدمتها فى "عوالم فى تصادم" أن كوكبنا قد نجا من الدمار أكثر من مرة بفارق ضئيل. أكثر من ذلك ففى أزمان سابقة لم يكن حجم مدار الأرض ولا شكله، ولا زمن السنة وفصولها، ولا اتجاه محورها، ولا سرعة الدوران ومن ثمَّ طول اليوم؛ لم يكن هذا كله كما هو اليوم. إذن فإن القدر قد شاء أن تبقى الأرض على قيد الحياة. أما ما إذا كان هذا قد حدث نتيجة قدر أعمى، أو لأن عناية الله تحرسنا، فإننا - كما سبق أن قلت فى

نهاية "الأرض فى اضطراب" - "نحن سلالة من بقوا على قيد الحياة، وهم أنفسهم سلالة من بقوا على قيد الحياة".

فى مثل هذه الغابة من المصائر ذوات النهايات الحاسمة، لم تترك كل الأنواع من بقى على قيد الحياة، ثمة حشود من أشكال الحياة فنيت حتى آخر عضو منها، تمثل هذا، بوفرة، فى الموت الجماعى بين الثدييات، وأيضاً بين الطيور والبرمائيات والأسماك.

والدرس الذى نتعلمه من تاريخ الأرض أنها قد مرت من حالة لأخرى، من حيث تغير موقعها فى الفضاء، ومن حيث المناخات المتغيرة ونظام الفصول، ومن حيث اختلاف توزيع الماء واليابسة، وأنه فى العصور السابقة على الإنسان والتاريخ، حدثت فيها كوارث كونية أعتى بكثير مما تعيه ذاكرة الإنسان، على نحو ما تؤكد لنا تقارير علماء الچيولوچيا والحفريات، ولكن بقيت بعض الأشكال الحيوانية، مثل المنخربات الدقيقة (Foraminifera - حيوانات بحرية دنيا مثقبة الأصداف) فى المحيط على قيد الحياة، جزئياً على الأقل، دون أن تعانى عملية تحول كاملة.

ومن حقيقة أنها مسألة عشرة آلاف سنة فقط، فقد استطاع الإنسان فيها أن يقطع الطريق من مرحلة الحجر غير المصقول (الحجرى القديم) إلى مرحلة ما تدعى بالحضارة الغربية الآن، وعشرة آلاف سنة ليست إلا نحو نصف واحد من المليون من عمر الأرض، كما يؤكد لنا علماء الچيولوچيا الطبيعية المحدثون، من هذه الحقيقة لابد أن نستنتج أن الطبيعة شاءت - وهى تدمر الكثير - أن تخلق شروطاً دائمة التحسن كى يبقى البعض على قيد الحياة فى شكل أنواع.

وحين نعرف الطريق المحفوف بالمخاطر الذى قطعه الإنسان ورفاقه من الحيوان، من الماضى السحيق حتى أفضل الشروط

الملائمة للتكاثر والتقدم، لا يملك المرء إلا أن يتساءل مرة أخرى عما إذا كانت العناية الإلهية هى التى شاءت وفعلت، أم أنه قدر أعمى هو الذى أبقانا على قيد الحياة، فى حين انطفأت أشكال أخرى كثيرة من أشكال الحياة، وكانت رحلة كواكب أخرى أقل سعادة من رحلتنا.

وحسبما عليه الأمر الآن، فالإنسان هو أمير الخليقة، والأرض هى أوفر الكواكب حظاً فى النظام الشمسى، وأهم واجبات الشمس اليوم أن ترعانا، نحن - قاطنى الأرض - وإذا كان ثمة حضارات كانت على كواكب أخرى، فهى لم تعد اليوم. ثمة حضارة واحدة على الشمس أن تكون فى خدمتها هى حضارة الإنسان.

الفصل الأول

عن الذاكرة العنصرية:
ضحية فقدان الذاكرة

قد يعيش ضحية فقدان الذاكرة وسط الجيران الذين يجهلون كل شيء عن حالته، قد يكون موظفاً، وقد يكون متزوجاً، وقد يسلك، في الظاهر، مثل أي شخص آخر، لكنه في الحقيقة قد نسي كل شيء قبل تاريخ معين: إنه لا يعرف اسمه، وقد ينتحل اسماً جديداً لإخفاء ارتباكه، وهو لا يذكر طفولته ومراهقته، أو نضجه السابق على هذا التاريخ، إنه لا يعرف العاصمة أو المدينة التي جاء منها، ولا يعرف كيف استقر في موطنه الجديد، ولا يعرف ما إذا كان متزوجاً من قبل، أو كان له أطفال. وإذا دخل في صراع مع القانون، لتعدد الزوجات مثلاً، فقد ينتهي به الأمر إلى عيادة للأمراض العقلية، وضحايا فقدان الذاكرة - في معظم الحالات - يلتمسون عون أطباء العقل عن طواعية.

وليس فقدان الذاكرة بحاجة لأن يمحو الذاكرة كلها، بل قد يصيب، فقط، مساحات محددة من الماضي، ومثل هذه الحالات كثيرة جداً، ونادراً ما تخلو شخصية عصابية من مساحة من النسيان، يميزها عادة أن النسيان يمحو أكثر الذكريات إثارة للألم أو الفزع. والتحليل النفسي، كما يراه فرويد، وسيلة كي يستعيد إلى العقل الواعي تلك الذكريات التي غطست إلى مستوى ما قبل الشعور. ومن المفروض أن تؤدي عملية التقاط فقدان الذاكرة الجزئي هذا، في حال نجاحها، إلى تحرير الشخص من مسلكه اللاعقلاني؛ فالأفعال وردود الأفعال اللاعقلانية أو المرضية إنما هي أعراض

للعصاب. فى أيامه الأولى كان فرويد يطلق على التحليل النفسى كلمة "التطهير أو التنفيس"؛ لأنه عن طريق دفع المريض لأن يعيش، مرة أخرى، مشهداً مؤلماً، فإن فرويد يستطيع استعادة الصحة العقلية لمريضه، ويحرره، أو يحررها، من ردود أفعاله المرضية. وقد كانت مريضته الأولى، على وجه التحديد، سيدة شابة، كانت ضحية شلل عصابى، طمرت تحته - كما تبين فرويد - أكثر الذكريات إيلاماً لها، المتمثلة فى ظروف موت أبيها الذى كانت تقوم على تمريضه.

وثمة شكل مرضى آخر قد يؤدى إليه فقدان الذاكرة وهو ما ندعوه بالإعتام العقلى. وفى طب العيون، فإن الإعتام يعنى: لوناً من العمى الجزئى أو الجذرى؛ أى أن قسماً من مجال الإبصار لا تسجله الشبكية لضعف فيها، مثل: انفصال فى الشبكية أو وجود تجلط دموى تحتها. الإعتام السيكولوچى يعنى: العجز عن ملاحظة ظواهر معينة أو التعرف على مواقف معينة رغم وضوحها التام للآخرين؛ فالرجل قد لا يرى حقيقة واضحة أو يتعرف على موقف واضح، رغم أن ذكاءه وقدرته العقلية كانا لابد أن يؤديا به إلى الرؤية المباشرة والفعل المناسب. ويُضرب المثل دائماً على ذلك بزوج المرأة متعددة العلاقات، وهو الوحيد الذى لا تراوده الشكوك حولها، والاحتمال الغالب هو أن عدم وعى الرجل بهذا الموقف مشروط بجنسية مثلية مكبوتة تؤدى إلى عمى فى رؤية واقع الحال.

وعلى حين أن الفقدان التام للذاكرة أمر نادر، فإن ملاحظة الفقدان الجزئى للذاكرة أو الاعتام السيكولوچى، هى خبرات كل يوم فى الطب العقلى والتحليل النفسى. والقارئ نفسه، أغلب الظن أنه قد "نجح" فى أن يمحو من الذاكرة الواعية بعض الأحداث المؤلمة، كبيرة كانت أو صغيرة؛ لا يستطيع الأنا أن يواجهها. إن

كثيراً من صور سوء التوافق والإخفاق والتعثر ومشاعر الإثم وعقاب الذات، أو العدوان والكراهية والبغضاء، والأهواء المرضية والانحرافات الجنسية، والدوافع والأفعال الإجرامية، والانتحار والقتل، أو الانفصال عن الواقع والتحليق فى عالم الجنون، كلها يمكن تقصى أسبابها - عن طريق الاستخدام الناجح لوسائل التحليل النفسى - إلى انطباعات تم محوها من الذاكرة الواعية، عن أحداث صادمة تم طمسها، باختصار: إلى محتويات مُزَاحَةٍ. ومن مكامنها المعتمة فى العقل تقود الشخصية نحو السلوك الشاذ، وليس من النادر أن تقودها نحو تكرار الخبرة الصادمة؛ هذا التكرار يمكن التماسه فى صورة عودة إلى مشهد الخبرة الأولَى، أو التثبيت على موضوعات جنسية شاذة، أو انتقاء ممارسة تقدم بديلاً منتظماً عن فعل تم كبته من الذاكرة الواعية.

فى كتابه "ما وراء مبدأ اللذة" المنشور فى ١٩٢٠، وكذلك فى عدد من أعماله الأخرى، قدم فرويد تطويراً لهذا الموضوع: "إن المريض لا يستطيع استعادة كل ما تم كبته - ومن المحتمل تماماً أن تظل أهم أجزائه مكبوتة.. ويجب حثه دائماً على تكرار المكبوت، لا استعادته.."

وقد تحدث فرويد عن هذا القهر التكرارى كما لو أن له طابع المس الشيطانى، والواقع فى قبضته "يعيش فى قلق معتم، يخشى إيقاظ شىء يحسن أن يظل نائماً".

حدود العقل.

إن العقل الإنسانى هو أقل ما نعرف، ورغم أن الإنسان اكتسب عن طريقه كل ما لديه من خبرات ومعارف، فقد صممت الاختبارات، وتحدد مُعامل الذكاء، ودُبجت النظريات

السيكولوچية، ومورست وسائل العلاج النفسى، وتمت دراسة تأثير العقاقير والمخدرات على جهاز الحواس والسلوك، وفحصت هيرمونات الجنس، وكذلك الإفرازات الداخلية للغدة النخامية، وتم تشريح المخ، وأجريت التجارب على الحيوان، وتم تسجيل اكتشافات كثيرة. ولكن بعد كل هذه الجهود، ما تزال بعض الموضوعات الجوهرية فى الظلام كما كانت قبل آلاف السنين!

هل كل إمكانيات العقل تخضع للاختبار والتقويم؟ ما عملية التفكير؟ هل لكل شخص روح كما أن له عقلاً؟ وأين مكانها؟ من المؤكد أنها ليست فى القلب، رغم أن اللغة السائدة تجعل من القلب مركز العواطف، وفساد قسم من المخ، كما فى تصلب الشرايين أو التعرض لصدمة رهيبة، يمكن أن تؤدى لفقدان الذاكرة الذى لا يمكن شفاؤه - فى هذه الحالة، هل تتلاشى الروح؟ وهل تستمر فى الحياة بعد موت الجسد؟ وهل لهذه الروح علاقة بقوى مجهولة؟ لقد ناقش أصحاب اللاهوت والمذاهب الروحية هذه المشكلة فقدموا أدلة ضئيلة ونتائج لم يثبتوها.

إن مسباراً يمس خلية فى المخ يعيد ذاكرة منسية إلى الحياة: حياة تبلغ من القوة بحيث يتصور المرء نفسه يعيش نفس الموقف الذى حدث بالفعل قبل سنوات طويلة.

وقد رأينا شخصا فى حالة التنويم يتلقى أمراً شفاهياً بأن يبقى عاجزاً عن الرؤية أو السمع أو الحركة متراً واحداً، ويستجيب للأمر. هل هذا مجرد ادعاء من جانبه؟ لكن الشخص نفسه يتلقى أمراً بأن يبقى جامداً مثل دعامة خشبية، هذا الشخص الموضوع بين مقعدين، رأسه على أحدهما وكعباه على حافة الآخر، وهو - أو هى حتى لو كانت امرأة ناحلة - يمكنه - وهو فى حالته المتخشبة تلك - أن يتحمل ثقل عدة أشخاص. من أين إذن يأتى هذا الاحتياطى الفيزيقى غير المتاح فى الحياة الواعية لهذا الشخص المتخشب؟

وكيف لأمر شفاهى - أى لا شىء سوى مجرد صوت - أن يحرك هذا الاحتياطى؟

والشخص فى حالة التنويم يمكن أن يصدر له أمر بأداء فعل معين فى زمن معين، ربما بعد جلسه التنويم بعدة أيام، وأن ينسى هذا الأمر حتى موعد تنفيذه، ودون أن يكون على وعى شعورى بهذا الأمر، وفى زمن قليل، سنجده يقوم بأداء الفعل فى الوقت المحدد تماماً. هل هناك، إذن، وسيلة لقياس الوقت مزروعة فى العقل الإنسانى؟ ما الذى يسبب النسيان والتذكر؟.

أقل من هذا كله، هل يعرف المنوِّم - سواء كان طبيباً متمرساً فى الطب العقلى أم مؤدياً غير متعلم فى حفل منوعات - ما الذى يجعل التنويم فاعلاً، وما هى الاحتياطات الفيزيقية والعقلية التى يمكن أن تكون فاعلة بأبسط الأدوات: كلمة إنسانية أو إشارة؟ إن الحدود تتسع فجأة لمدى كبير، حتى تبدو القدرات المستخدمة فى الحياة اليومية ليست سوى معزوفة صغيرة على لوحة مفاتيح كاملة.

أثناء منهج دراسى بعد الدكتوراه فى الطب، التحقت به فى برلين أوائل العشرينيات، أتيحت لنا فرصة فحص صبى فى العاشرة، متخلف عقلياً، كانت لديه القدرة على أن يحدد - بسرعة تماثل سرعة الكمبيوتر (الذى لم يكن قد ظهر إلى الوجود بعد) - يوم الأسبوع الموافق لأى تاريخ؛ كأعياد ميلاد المشاركين فى المنهج مثلاً! إذا كانت هذه القدرة متوفرة لدى شخص، فما الذى يحول دون توافرها لدى الآخرين؟

إن الدراويش - فى حالة التنويم الذاتى - يمكن لأحدهم أن يمشى على الجمر الملتهب دون أن يصيبه أذى، ويستطيع أن يقطع الجلد ويأمر الدم ألا يسيل، والشخص فى حالة الغشية يمكن له أن يتكلم لغة لم يسبق له - أو لها - أن تعلمها أو حتى سمعها! كل هذه أمور

كانت معروفة وتتم ممارستها منذ عصور باكرة جداً: "أن تتحدث بألسنة أخرى" كما فى "الأفعال" (٢: ٤)، أو أن يصاب بعمى مؤقت كما فى "سفر التكوين" (٩: ١١)، وفى "كتاب الملوك الثانى" (٦: ١٨) فإن كلمة "سانڤريم Sanverim" هى - فى فهمى - الكلمة التى تعنى: التنويم فى عبرية الكتاب المقدس.

وقد كان الإدراك خارج الحواس مجالاً للدراسة والاختلاف من جانب المصدقين والمتشككين، كما لو كانت المسألة مسألة اقتناع لا معرفة، والتجارب التى أجريت فى جامعة "ديوك" فى "نورث كارولينا" كانت تعانى من تجاهل الالتفات إلى الحالة الانفعالية للمرسل، وكذلك المتلقى، كما لو أن هذه الحالة لا تأثير لها على نقل الأفكار أو الرسائل من فرد لآخر. وهكذا أدخلت خدع كثيرة - إرادياً وبغير إرادة - إلى المذهب الروحانى، مع تجسيداتها المادية (الجبلة الخارجية) مثل: الكتابة الأوتوماتية أو تحريك الطاقة عن بعد.. إلخ. ورغم أن استحضار الأرواح أمر قديم قدم حكاية ساحر "ان - دور" (صموئيل ٨٢: ٧)، إلا أن أحداً لا يستطيع - عن يقين كامل - أن يضيف شيئاً فى حساب الدائن أو فى حساب المدين، وهذا صحيح رغم أن مفكراً واضح الفكر مثل الفيزيائى أوليڤر لودچ، أو كاتباً عبقرياً للروايات البوليسية مثل آرثر كونان دويل، وقفا إلى جانب ما يجب أن نسميه بالمعجزة.

ويبقى الشعور بأنه رغم أن العمليات العقلية هى عمليات فسيولوچية - وهى بالتالى فيزيائية وكيميائية فى التحليل الأخير - إلا أن ثمة ستائر داخل الإنسان نفسه، تحجب عنه قدراً كبيراً من البيت الذى يسميه الروح، وهذا جماع أنشطة كل العقول، فى الماضى والحاضر، وكل الإدراكات التى تلقيناها أو ورثناها، والتى قد تتخطى أو لا تتخطى حواجز الزمن، إنها كينونة ميتا فيزيقية فى ذاتها.

العقل الجمعى اللاشعورى.

فى عام ١٩٣٠م، قضيت الصيف فى عطلة عمل "فى زيوريخ"، وكنت فى الصيف السابق قد كتبت بحثاً "عن الوجود الفيزيقى لعالم الفكر"، وفى "كوسناخت" قمت بزيارة الأستاذ ايوچين بلولر الذى كان - لعدة عقود - عميد الطب العقلى الذى لا خلاف حوله، إنه هو الذى فتح أبواب الأكاديمية أمام سيجموند فرويد حين كلف مساعده كارل يونج، فى مستشفى "برجولزى" للأمراض العقلية، بدراسة النظرية الفرويدية والنظر فى تطبيقها بالنسبة للكلمات. ولد بلولر وفرويد فى ذات السنة: "١٨٥٦"، ولكن على حين كان فرويد "منعزلاً"، منبوذاً، لا يكاد يرد اسمه فى الدوريات الطبية اللهم إلا فى مجال سوء السمعة، كان بلولر سيد هذا المجال.

فى بحثى هذا تناولت عدة مسائل قريبة من حدود الطب العقلى المشروع، فزعمت أن ثمة عمليات فيزيقية تكمن وراء العمليات العقلية، وأنه يمكن أن نجعل الأعمى يبصر والأصم يسمع إذا أوصلنا إلى المراكز المخية شحنات كهربية مناسبة، إننا بهذا نطوق المحيط الخارجى لأعضاء الحس. وقد افترضت أن الآثار المتبقية فى خلايا المخ هى حاملات الذاكرة، وبالتالى فإن هذه الآثار المتبقية يمكن إعادة إيقاظها عن طريق دفعات آلية مناسبة، وقلت إن الآثار المتبقية نتيجة الالتهاب الدماغى لدى الأشخاص الذين يعانون من الصَرَع تكشف عن نمط للموجات مضطرب وعنيف كما لو أنه حدث نتيجة دائرة قصيرة. حتى ذلك الحين كان بحث واحد قد نشر حول الآثار المتبقية نتيجة الالتهاب الدماغى عند الإنسان - والإنسان السليم، نشره هانز برجر من چينا (١). كتبت:

"لدى استثارة عضو الحس الخارجى؛ استثارة العين مثلاً بضوء قوى، يبدو تيار من التذبذب فى المنطقة البصرية المقابلة.. وإننى

أعتقد أنه قد يكون مفيداً تطبيق تجارب برجر على المصابين بالصرع. إن بداية الإضاءة فى نوبة الصرع تذكرنى - بقوة - بفعل دائرة قصيرة.. ثم إنه قد يكون من المناسب أيضاً أن نجرى التجارب حول إمكانية إزالة الذبذبات بالغة القوة للتيار الذى يسرى فى دماغ المصاب بالصرع.. ويجب النظر إلى هذا باعتباره تواصلاً أولياً..".

وزعمت أيضاً وجود عقل جمعى فى المراحل الباكرة من تطور الأنواع؛ فالفردية تواكب التطور من الأشكال الأدنى للأرقى، على أن العقل الجمعى لم يُمح أبداً لدى الإنسان محواً تاماً، وهو يبدو فى مقدمة الصورة فى حالات استثارة العقل، كما يبدو كذلك فى الحشود التى تحركها الانفعالات" فى هذا السياق قلت:

"ويبدو واضحاً أن استقلال العقل لدى الأفراد المنفصلين لابد من إنه قد تطور كعملية أرقى وأكثر تعقيداً فى أصل الأنواع، وفى مفهومنا فإن التخاطر هو الشكل القديم لانتقال الأفكار، وكلما ازداد النوع تطوراً كلما زاد انفصال الكائن المفرد كائناً مفكرة عن العالم المحيط به".

إن هجرة الطيور الصغيرة التى تطير إلى حيث موطن آبائها، والعمل الجمعى عند النمل والنحل، وكلها تعرف كيف تنجز عملاً كثيراً حسب خطة مشتركة. وثمة أمثلة أخرى تشير كلها إلى عدم وجود انفصال حاد بين الحياة العقلية للحيوان والحياة العقلية لبقية النوع.. هذا الشكل القديم من التأثير المتبادل يفصح عن نفسه فى القطيع الحيوانى وأيضاً فى القطيع الإنسانى؛ أى الحشد..

وقد ناقش بلولر البحث معى، واستجاب لرغبتى فى أن يكتب تقديماً له، فى هذا التقديم كتب بلولر:

"بعيداً عن حشد الخرافات والأوهام والخديعة، فإن الحقائق التى تمت استعادتها فيما يتعلق بما يسمى التفسيرات الطبيعية قد

أخفقت تماماً، وهى حقائق عديدة لدرجة ترغم العلم على أن يجعلها موضوع دراسات مدققة. وبالتالى فإنه من المفيد إقامة روابط بينها وبين القوانين الطبيعية المعروفة، إن هذا لن يعمل على تنشيط الفكر العملى فقط، بل سيساعد أيضاً على قهر ذلك الخوف – الذى لا يتفق مع العلم – من الدخول إلى مجال جديد وغير عادى إلى حد بعيد.

وأفكار المؤلف تبدو لى جديرة بكل اعتبار واهتمام. وقد توصلت أنا نفسى إلى مفهومات مماثلة، بل متطابقة تماماً من حيث جوانب جوهرية فيها، وإن كنت لا أستطيع أن أؤكد كل تفاصيلها. وإذا كان لهذا العمل (من جانب دكتور ڤ) فقط فائدة أن يستطيع المرء الحديث عن هذه المسائل دون أن يوصف بالجنون، أو بالرداءة فى أفضل الأحوال، فإن هذا مفيد للعلم فعلاً، بصرف النظر عما إذا كان الكثير من مضمونها سيثبت للأبحاث فى المستقبل..".

ولدى عودتى إلى جبل الكرمل، بالقرب من حيفا، حيث كنت أقيم وأعمل، أرسلت البحث إلى أوروبا للنشر فى إحدى صحفها المخصصة لأبحاث الطب العقلى، وبعد رفضه لمرة واحدة، نشرته مجلة مرموقة هى (Zeitschrift fur die gassamet Neurologie und Psychiatrie) فى ١٩٣١ (٢). وأرسلت نسخة من المادة المنشورة إلى فرويد الذى رد – كالعادة – بخطاب طويل. كان خطابه:

زميلى العزيز..   ٢٤ يونيو ١٩٣١

"لقد وجدت نفسى متفقاً اتفاقاً تاماً مع بلولر حول مضمون بحثك. وأنا أيضاً، وعلى نحو مستقل، قد كونت أفكارى حول الموضوع الذى يقترب كثيراً من موضوعك، ويتطابق معه تماماً فى بعض أجزائه. بالضبط، إنه المحلل الذى يمكن أن يبدى أقل الاعتراضات على تفسير نشط وفعال لعملية الفكر. وقادتنى خبرتى الخاصة إلى أن التخاطر هو القلب الحقيقى لما يسمى

ظواهر "ما وراء السيكولوچيا" وربما الوحيد أيضاً. وفيما يتعلق بهذه المسائل فليس فى خبرتى الخاصة ما يرغمنى على تأكيدها، ولم أجد هذا فى أى مكان آخر، حتى فى بحثك أنت (٣). وبالتالى، لا يبقى لنا سوى أن ننتظر إيضاح هذه المسألة الفيزيقية الأساسية فى مستقبل نرجو أن يكون قريباً".

مع تحيات وصداقة: فرويد

وفهم العقل الجمعى اللاشعورى قد يفسر ظواهر كثيرة ملحوظة لدى الكائنات الاجتماعية مثل: النمل والنحل التى تعمل حسب خطة مشتركة. وأى شخص راقب سلوك القطعان الضخمة من الأسماك، والتى تعد بالآلاف، فإنها تغيِّر - على نحوٍ فجائى ومتزامن - من اتجاه عومها، يجد من الصعب تفسير هذا التزامن فى الفعل بمجرد المحاكاة، بل يبدو من المعقول أكثر أن الأسماك تسلك على هذا النحو استجابة لدفعات عقل مشترك، العقل الجماعى للحشد، يستجيب كل أعضائه استجابات متطابقة تلبية لدوافع محددة.

هنا يقوم السؤال: هل العقل الجماعى هو مجرد نتاج عملية ما، شبيهة بالتخاطر، أم أنه يمكن أن يربط بين أجيال متتابعة. وهذا سؤال بالغ الأهمية، لا يتعلق بأقل من المصير النهائى للنوع الإنسانى، ومعه بقية أنواع الكائنات على هذا الكوكب.

أنماط يونج البدائية.

بعد عشر سنوات من "العزلة الرائعة" (١٨٩٥ - ١٩٠٥) اجتمعت حول فرويد حلقة من التلاميذ، ولم تنقضِ سنوات طويلة حتى استطاع عدد منهم، خاصة "ولهلم شتيكل" وألفريد أدلر وكارل يونج"، أن يقيموا نظرياتهم الخاصة ومدارسهم، وقالوا أيضاً إنهم

نجحوا فى ممارسة العلاج. وفى حين أكد أدلر على الجوانب السوسيولوچية والرغبة فى المعرفة وإرادة القوة من حيث هى الدوافع الأساسية للسلوك، انغمس يونج فى الموضوعات الأسطورية، فراح يبحث فى تراث العالم عما يتعلق بالخيمياء والجماعات الباطنية وأحلام الأحبار القدامى، كى يجد طريقاً خاصة به. وفى دراسته للاشعور، بدأ كتلميذ لفرويد، أما بعد أن حدث الانشقاق فقد أنكر هذا الدين، وفى ١٩١٦ بعد قطيعته مع أستاذه بزمن قصير، قدم صياغة مبكرة لمفهومه عن الذاكرة النوعية، وفى هذا كان يونج - رغم أنه لن يعترف بهذا أبداً - يطور بعض الأفكار التى قدمها فرويد فى "الطوطم والتابو" (١٩١٢)، فى هذا العمل قال فرويد بأن ثمة مواقف قليلة فى العلاقات بين أفراد الأسرة، تعكس آثاراً لاشعورية نوعية لأفعال، منها قتل الأب، كان يقوم بها إنسان الكهف فى العصر الحجرى.

وفى صيف ١٩٣٠ قمت بزيارة يونج فى بيته قرب زيوريخ، ودون أن أعى قدر العداء الذى يكنه لفرويد، أشرت إليه باعتباره أحد تلاميذه، وهو ما اعترض عليه اعتراضاً شديداً.

وفى ١٩٣٤ خرج يونج بفكرته عن العقل الجمعى اللاشعورى، وطور مفهومه هذا فى السنوات التالية. جاء فى كتابه "الأنماط البدائية فى اللاشعور الجمعى" (١٩٣٤):

"فى البداية كان مفهوم اللاشعور مقتصرا على الإشارة إلى حالة المضامين المكبوتة أو المنسية.. حتى عند فرويد فهو ليس سوى مكان تتجمع فيه المضامين المكبوتة والمنسية.. وعنده - بالتالى - فاللاشعور ذو طبيعة شخصية مطلقة، رغم أن كان واعياً بأشكاله الفكرية ذات الطابع البدائى والأسطورى..".

وفى أحد هوامشه، سلم يونج بأن فرويد "فى أعماله الأخيرة" أجرى تفرقة بين "الذات الغريزية" للكائن الإنسانى، والتى أسماها

"الهى" و "الأنا الأعلى" الذى يعنى "الشعور الجمعى.. جزء منه فى وعى الفرد.. وجزء آخر فى اللاشعور (لأنه مكبوت)".

ويواصل يونج: "إن الطبقة السطحية - بدرجة تزيد أو تنقص - من اللاشعور هى شخصية لاشك. وأنا أسميها "اللاشعور الشخصى"، لكن هذا اللاشعور الشخصى يقوم على طبقة أعمق، ليست صادرة عن الخبرة الشخصية، ليست مكتسباً شخصياً، لكنها فطرية موروثة. هذه الطبقة الأعمق أسميها "اللاشعور الجمعى"، وقد اخترت وصف "الجمعى" لأن هذا الجزء من اللاشعور ليس فردياً لكنه عام وشامل، على عكس الذات الشخصية، فإن مضامينها وطرائق السلوك هى ذاتها - بقدر يزيد أو ينقص - فى كل مكان ولدى كل الأفراد. إنه - بعبارة أخرى - متطابق لدى كل البشر، ويشكل طبقة نفسية تحتية مشتركة ذات طبيعة فوق الشخصية، لدى كل واحد منا..".

مضامين اللاشعور الشخصى إذن، حسب يونج "مركبات ملونة بالشعور"، أما مضامين اللاشعور الجمعى فهى "أنماط بدائية"، وقد التقينا بهذا المصطلح من قبل لدى الفيلسوف السكندرى فيلوچوديس الذى عاش فى القرن الميلادى الأول، وكان يعنى به صورة الرب فى الإنسان. أما عند يونج فهذه الأنماط قديمة وأصلية، هى "صور كانت موجودة منذ أقدم العصور"، لكنها تفصح عن نفسها فى الأسطورة وفى "التعاليم الباطنية" وفى الأحلام والرؤى وحكايات الجنيات.. "إن النمط البدائى هو أساساً مضمون لاشعورى، لكنه يتغير ليصبح شعورياً وموضع إدراك".

كان يونج يرى فى الأسطورة "عملية نفسية لاشعورية"، وبالتالى فليس مجدياً عند علماء الأساطير أن "يستعينوا دائماً بأفكار تتعلق بالشمس أو القمر أو الشهب أو النبات أو ما إليها.." وقد رفض " رفضاً مطلقاً" أن يرى الصور والمضامين الأسطورية

من حيث إنها تعكس ظاهرة نفسية عميقة وأصيلة. وأن "ما يصدق على المعتقدات البدائية يصدق كذلك على الأديان الأرفع درجة والتى تحكم العالم، فكلها تحوى معرفة تكشفت بعد أن كانت خفية.. (كان يجب أن أقول: "معرفة خفية بعد أن كانت متكشفة..").

والرموز المستخدمة فى الأديان إنما هى تمثيل أو تصوير للمضامين الخفية.. "فالعقيدة تحل محل اللاشعور الجمعى عن طريق إعادة صياغة مضامين على نطاق كبير.." ولكن "طريقة الحياة الكاثوليكية لا تعى أبداً مسائل سيكولوچية بهذا المعنى، وكل حياة اللاشعور الجمعى، تقريباً، قد حدد مجراها فى أفكار العقيدة ذات النمط البدائى، وهى تتدفق مثل مجرى تحت السيطرة فى رمزية الإيمان والطقس.. فقبل وجود الكنيسة المسيحية كانت هناك الأسرار القديمة، التى تعود إلى تلك الفترة الرمادية لضباب العصر الحجرى فيما قبل التاريخ.." وخلقت الكنيسة جداراً واقياً من الصور المقدسة.. "وقد نسى الناس منذ ذلك الحين ما كانت تعنى. ولكن.. هل حقاً نسوا؟ ألا يمكن أن يكون الأمر أنهم لم يعرفوا أبداً ما كانت تعنى؟.. فى الحقيقة إننا لا نملك المفهوم الأكثر قدماً لما كان يعنيه "ولادة العذراء" وألوهية المسيح وتعقيدات الثالوث.. فى الحقيقة إن صور النمط البدائى مثقلة بالمعنى فى ذاتها حتى إن الناس لا يقفون، أبداً، للتساؤل عما تعنيه.. وحين يبدأ (شخص ما) التفكير فيما تعنيه، فهو يفعل بمعاونة ما يسميه "العقل"، والذى هو، فى حقيقة الأمر - ليس سوى جماع تحيزاته ونظره الحسير.." (٤).

لقد حاولت أن استخرج من يونج خطأ فكرياً واضحاً، لكنه، فى حقيقة الأمر، لا يكاد يقوى على متابعة موضوع واحد، فهو فى كتابته يتبع تدفق الأفكار أو "التداعى الحر"، وينحرف دائماً لمناقشات خارجة عن الموضوع، فيروح يتحدث عن الفضائح القديمة

لسكان الأوليمب وعن تفكك البروتستانتية إلى "نحو أربعمائة ملة"، وعن "البؤس المدقع" لرموزها، وعن الهوة الفاغرة أمام الإنسان الحديث لحاجته إلى الرموز. وقد انتهى يونج نفسه إلى لون من التعلق بالأديان الشرقية التى تحتوى على حكمة غائمة ورمزية غير مفهومة، "إنه غواية الشرق وعطره الفواح"، وتعاليم الفرق الباطنية، وهو يعترف بأن لديه فضولاً طاغياً - هو فى الحقيقة يكاد أن يكون تماهياً - بالصوفية والنساك فى القرون الماضية. على أية حال، فإن القراء يودون معرفة المزيد عن الأنماط البدائية، وإذا كان هذا سَيَلىٍ، فإنهم يودون معرفة كيفية تطبيق هذه التعاليم لعلاج فرد واحد، أو لعلاج الجنس الإنسانى إذا أمكن. إزاحة السحب تفتح ثغرة. ونحن نقرأ:

"لا حيلة للبشرية أمام البشرية، والآلهة - كما هى العادة - تكشف أمامنا طرائق المصير.. ففى مجال الشعور نحن سادة أنفسنا.. لكننا إذ نخطو خطوة واحدة عبر باب الظل نكتشف، مرتعبين، أننا موضوعات فى أيدى قوى غير مرئية، ومعرفة هذا أمر غير سار بالتأكيد، فما من شىء أقدر على إزاحة الأوهام من اكتشاف عجزنا الخاص، بل إنه يمكن أن يستثير لوناً من الفزع البدائى، فبدل أن نكون واثقين من سيادة الوعى، المحمى بقلق، والذى هو، فى حقيقة الأمر، أحد أسرار النجاح الإنسانى، تصبح هذه السيادة معرضة للشكوك على أكثر الأنحاء خطورة. ولكن، حيث إن التجاهل ليس ضمانة للأمان، بل إنه يجعل افتقادنا للأمان أكثر سوءاً، فمن المحتمل أن تكون معرفتنا بمكامن الخطر أفضل، رغم الخوف..".

طرح يونج السؤال، ثم أتبعه باهتمام يُدرك عن طريق الحدس، رغم أنه ليس جواباً:

"إن طرح السؤال الصحيح هو، بالفعل، نصف الطريق إلى

الجواب عنه. وعلى أية حال، فنحن قد تَبيناً الآن ونعرف أن أعظم الأخطار التى تهددنا تأتى من عدم قدرتنا على توقع ردود أفعال النفس. وقد أدرك أصحاب الفطنة منذ بعض الوقت أن الشروط التاريخية الخارجية، من أى نوع، ليست سوى مناسبات، أو نقاط وثوب، للمخاطر الحقيقية التى تهدد حياتنا؛ أى تلك النظم السياسية الاجتماعية الخادعة القائمة. إننا لا يجب أن ننظر إليها على نحو سببى؛ أى كنتائج ضرورية للشروط الخارجية، بل كقرارات قذف بها اللاشعور الجمعى.." (٥).

ويبدو أن ما كان فى عقل يونج هو الشيوعية العالمية؛ ذلك أن موقفه من صعود الاشتراكيات الوطنية، كما أوضح بعض الدارسين، كان يمثل موقف التعاطف، ولم يصفها بالنظم الخادعة، فى حين أنه كان يود الانفصال عن المسيحية اليهودية. إن آلهة "ڤالهالا" (مقبرة الشهداء فى ميثولوچيا اسكندناڤيا) أقرب إليه من رب سيناء أو إله الجلجثة. ومثل الذى يرى تياراً ويعجز عن اختراقه لكنه يسجل اكتشافه؛ يصوغ يونج مفهومه:

"موضوعى إذن كما يلى: إضافة إلى وعينا المباشر الذى هو ذو طبيعة شخصية خالصة، والذى نعتقد أنه النفس التجريبية الوحيدة (حتى لو أضفنا اللاشعور الشخصى إليه كملحق له)، لكن ثمة نظاماً نفسيا آخر ذا طبيعة جماعية عامة وغير شخصية، يتطابق عند جميع الأفراد؛ هذا اللاشعور الجماعى لا يتطور على نحو فردى لكنه موروث، وهو يتكون من أشكال سابقة الوجود؛ هى: الأنماط البدائية.." (٦).

"سابقة الوجود" تعنى منذ بدء نشوء النوع الإنسانى. لكن يونج لم يفسر لنا أبداً لماذا سكنت هذه الأشكال عقل الإنسان. إنه لم يحاول الاقتراب من الظاهرة بدراسة غرائز الحيوان. إننا نرى النمط البدائى فى مواقف تحليلية كثيرة، وثمة موتيفة مترددة

حول أن يكون للفرد أمّان، لا أم واحدة، تم تفسيرها باعتبارها نمطاً بدائياً (هناك تفسير أبسط هو الارتباط بأم وبأخرى مرضعة)، وراح يونج يزيد من عدد الأنماط البدائية بإضافة كل أنواع المفهومات المترددة، وبعضها ذو طبيعة مشكوك فيها، وحوّل يونج جهود جماعته فى التحليل النفسى باتجاه التعرف على الأنماط البدائية فى أحلام مرضاهم وخيالاتهم، بل حتى سلوكهم، وهكذا تشجع أتباعه على التوسع فى تطبيق مفهوم الأنماط البدائية على الخيالات التافهة أو السلوك الذى لا أهمية له.

غير أن السؤال الكبير، والمبحث المهم، وهو: كيف استطاعت الأنماط البدائية الحقيقية أن تدخل عقل الإنسان، وأن تستقر فيه، وأن تسبب له الازعاج، ثم تنتقل من جيل إلى جيل؟ حتى إن مجرد هذا السؤال لم يُطرح!

هبوط فرويد إلى هاديس (الجحيم)

فى ١٩١٣ انفصل فرويد عن يونج الذى جنح إلى الصوفية، وعن أدلر الذى جنح إلى الاشتراكية. وفى نفس السنة نشر كتابه "الطوطم والتابو" وهو دراسة فى التحليل النفسى للفولكلور القديم، وجزئياً للفولكلور الحديث، المنتقى - فى معظمه - من عمل فريزر "الغصن الذهبى"، وفيه حاول أن يثبت من طقوس وشعائر مختلفة وجود آثار باقية من ممارسات قتل الأب فى كهف إنسان ما قبل التاريخ، فقد اعتاد الأبناء الشبان قتل آبائهم وامتلاك أمهاتهم، إكمالا لتحقيق المركب الأوديبى؛ أى تعلق الابن، الجنسى، بالأم. "وقد شعر فرويد بأن الطقوس الدينية، كذلك ردود الأفعال السيكولوجية الفردية مازالت تحمل شهادة الاستمرار اللاشعورى لذكريات مواقف بدائية، تتمثل فى صور من القلق والشعور بالإثم

ومختلف تكوينات ردود الأفعال التي تتجاوز الخبرة المعاصرة.." (٧).

وقد وصل فرويد إلى هذا الفهم متأخراً بعض الشيء في عمله التحليلي، فقد ظل ما يقارب العشرين سنة يعزو أصل العصاب كله إلى الخبرات الصادمة في السنوات الأولى من حياة الفرد، عادة ما بين الثانية والخامسة.

وتقدم فرويد ببطء نحو هذا التوجه الجديد. وما اعتاد أن يسميه اللاشعور كان هو اللاشعور الشخصي، أو - إذا كنت تفضل هذا التعبير - ما قبل الشعور أو القبشعور، أما في المكامن الأكثر عمقا من العقل، فثمة مخزون ذكريات النوع، كما أن الغرائز تنتمي إلى ميراث النوع.

كلما أطال فرويد الجلوس وراء أريكة المحلل، وكلما أطال الاستماع والتفكير، كلما بدا له مفهوم الشعور بالإثم نتيجة أفعال ارتكبها الأسلاف أكثر قدرة على الأقناع. كانت فكرة الأنماط البدائية المغروسة في أسلاف الإنسان غريبة عن فرويد؛ فإنسان الأسلاف "اكتسب" مشاعر الإثم حين ارتكب فعل قتل الأب، ثم إنه مضى أبعد من ذلك، فارتكب بقية الفعل، ولم يكن نادراً أن تتمثل هذه البقية في أبناء يأتون نتيجة سفاح المحارم، ثم إنه "يعيد" فعله، ويريد للأجيال التالية أن تعيده وتعاني الشعور بالإثم، أو - على الأقل - أن تحاكيه بدفعة لاشعورية، ثم تعاني الإثم. والخبرة الصادمة لدى الفرد تطالب بالإعادة أو التكرار، ثم هو وريث للخبرات الصادمة لدى الأسلاف، ولم يعرف فرويد صدمة أكبر من هذه كي تكون مصدراً للشعور الشامل بالإثم.

في عمله "من تاريخ عصاب طفلي" (١٩١٨) شرح فرويد عمومية تعبيرات رمزية فعلية في الكلام وفي مختلف الأخيلة، وهي ترتبط عادة بمشاهد الجماع بين الأبوين ومخاوف الإخصاء التالية،

وأساسها ذكريات لاشعورية مستمرة لأنماط بدائية:

"وأخيراً، علينا أن نهيىء عقولنا لقبول افتراض أن المدركات النفسية للفترة البدائية قد أصبحت ملكية موروثة، وهى فى كل جيل جديد لا تعود بحاجة إلى الاكتساب، بل إلى مجرد الإيقاظ.. وأننا نجد أطفالنا يستجيبون - فى عدد من العلاقات المهمة - لا بطريقة تتفق وخبراتهم الخاصة، بل غريزياً، مثل الحيوانات، بطريقة لا يمكن تفسيرها إلا من حيث إنها مكتسب من مكتسبات تطور النوع الإنسانى.." (٨).

وتنتج الحالة العصابية عن قدح زناد مادة قابلة للتفجر موروثة عن أجيال الأسلاف:

"إن الدفاع المبكر الكامن ضد الصدمة - وهو انبثاق المرض العصابى - إنما هو رجوع جزئى للمكبوت. تلك هى الصيغة التى وضعناها لتطور العصاب، والقارئ مدعو، الآن، لافتراض أن ثمة أحداثاً قد حدثت فى حياة النوع الإنسانى شبيهة بما يحدث فى حياة الأفراد، لافتراض أنه هنا أيضاً حدثت أحداث ذات طبيعة جنسية عدوانية، تركت وراءها آثاراً دائمة لكنها، فى معظمها، تم اتقاؤها ونسيانها، وأنها بعد فترة كمدن طويلة تعود إلى العمل، وتخلق ظواهر شبيهة بالأعراض، من حيث بناؤها وهدفها.." (٩).

هنا يفترض فرويد تكافؤ الأدوار بين الصدمة الشخصية والصدمة الموروثة:

"وكقاعدة، ثمة امتزاج بين العنصرين التكوينى والحادث، وكلما زاد العامل التكوينى كلما جنحت الصدمة إلى إحداث التثبيت، وتركت اضطراباً متعلقاً بالتطور، وكلما قويت الصدمة، قوى التأكد بأن آثارها الجارحة سوف تكون سافرة حتى لو كان الموقف الغريزى سوياً.." (١٠).

ولكن.. كيف يمكن أن يكون "الموقف الغريزى سوياً" إذا كان كل

فرد من النوع الإنساني حاملاً لخبرة صادمة عن أسلافه القدامى؟،
لم يتضح موقف فرويد هنا بعد. نافراً من استخدام أية مفهومات
أو مصطلحات "يونجية" خطط فرويد لمفهوم "الهى"، باعتبارها
مملكة اللاشعور عند الفرد، ومستودع التراث النوعي والغريزى،
بنفس القدر التي هي به مستودع الخبرات وردود الأفعال الفردية
التي تعرضت للكبت والنسيان نظراً لطبيعتها الصادمة:

"إنها (الهى) تحوى كل ما هو موروث؛ أى موجوداً لحظة الميلاد،
لأنها موجودة في التكوين نفسه، وقبل كل شيء في الغرائز، التي
تنبع عن تنظيم الجسم، وتتخذ تعبيرات نفسية هنا (في الهى)
بأشكال غير معروفة لنا.." (١١).

هذه الفقرة أدخلها فرويد، في عمله "تخطيط عام للتحليل
النفسي.."، في ١٩٣٨ كذلك الفقرة التالية التي أضافها نتيجة
خبرته التحليلية فيما بين ١٩١٣ و ١٩٣٨:

"ولاشك في أن جانباً من الموروث الثقافي قد ترك وراءه
رواسب في "الهى"، وكثير مما أسهم به "الأنا الأعلى". سيثير صدى
في "الهى"، وثمة خبرات جديدة - ليست قليلة - لدى الطفل
ستقوى لأنها تكرارات لخبرة نوعية بدائية" (١٢). وحيث إن كثيراً
من الاستجابات والترتيبات الغريزية تخدم الأنواع، بل تؤدى إلى
بقائها على قيد الحياة، فقد وجب أن نقيم خطاً فاصلاً بين موروث
الغرائز ذى الأهداف المفيدة من جانب، وذلك المطمور عميقاً من
الذكريات النوعية للصدمات العنيفة، من الجانب الآخر، وهكذا فإن
التعلق الأوديبى وقتل الأب لا ينتميان لنفس المجموعة التي تنتمى
لها الغرائز التي تخدم البقاء على قيد الحياة، ولا الصدمات
الشخصية المكبوتة في النسيان تنتمى لنفس الفئة أو التي يتم
تخزينها في نفس الطبقة من اللاشعور، مثل "شيء حدث في حياة
النوع الإنساني، له طبيعة جنسية عدوانية" بتعبير فرويد.

تلك بعض المسلمات ذات الأهمية الفائقة فى نظرية التحليل النفسى كما صاغها فرويد، وهى تتعلق بالخبرات الصادمة، وقمعها المتكرر وإزاحتها بعيداً عن الذاكرة الواعية، ثم الدافع إلى إعادة إحيائها، وفى هذا الفعل يتم إحداث صدمة مشابهة لشخص آخر، وهكذا تنقلب الأدوار.

كتب فرويد فى "ما وراء مبدأ اللذة":

"فى البداية يكون (الطفل) فى موقف "سلبى"، مسحوقاً بالخبرة، لكنه حين يكررها كلعبة - مهما كانت الخبرة غير سارة - فإنه يأخذ دوراً "إيجابيا"، والطفل، وهو ينتقل من سلبية الخبرة إلى إيجابية اللعبة، فهو يسلم خبرته غير السارة إلى أحد رفاق لعبه، وهكذا ينتقم لنفسه عن طريق البديل.." (١٣).

فى الخبرة الصادمة يلعب الفزع والقلق أهم الأدوار. وأحياناً تكون ذكرى الخبرة الصادمة لم تنس بعد، لكن الرغبة فى إحيائها من جديد تظل قائمة، ولاشك فى أن هذه الرغبة ستكون أقوى لو أن هذه الخبرة نفسها قد تم كبتها، وإنزالها إلى مرتبة العقل القبشعورى. ويظل ضحية فقدان الذاكرة نتيجة خبرة صادمة يعيش تحت وطأة الرغبة فى إعادة الخبرة، غالباً بعد قلب الأدوار فيها فيصبح هو نفسه من يقوم بالعدوان ويوقع العقاب بضحية أخرى.

عن الذاكرة النوعية

إن قابلية الخصائص المكتسبة للتوريث مسألة أثارت جدلاً علمياً وبحوثاً منذ أيام لامارك. إنه أول من قال بهذه القابلية، ويقال عادة إن داروين - الذى جاء بعده بجيلين - كان مناصراً لهذا القول. والحقيقة إن داروين - فى نظريته عن "ناقلات الصفات

الوراثية" (١٨٦٨) أيد وجهة النظر القاضية بأن أى خلية فى الكائن الحى ترسل سمتها المميزة لإعادة إنتاج الخلايا (الجرثومية والجبِلّية)، وعلى هذا النحو يتم انتقال ملامح الأبوين، وفى هذا النسق فإن الخصائص المكتسبة ستكون قابلة للتوريث بطبيعة الحال. إن الخصائص الجديدة لنبات القمح أو الجودار الذى يُزرع فى بيئات متغيرة يمكن أن تكون قابلة للتوريث كذلك. فمثلاً يمكن أن تنمو ساق خشنة إذا ظل النبات يزرع عاماً بعد آخر فى منطقة ذات صيف قصير، وربيع متأخر ومساقط للريح، أما إلى أى مدى يبقى هذا الميراث لو أعيد النبات إلى تربته ومناخه اللذين كان فيهما، فهى مسألة فى أساس الخلاف الدائر اليوم حول توريث الخصائص المكتسبة.

إن تغييراً يصيب الخلايا الجرثومية (الحيوان المنوى، البويضة) سينتج خصائص جديدة قابلة للوراثة، ولكن مع افتراض أن الخلايا الجسمية وحدها هى التى يسرى عليها التغيير، على أنه لا يمكن إنكار أن عمليات كيميائية معينة أو اضطرابات فى الغدد عند الكائن الحى لابد أن تؤثر على الخلايا الجبلية، وفى هذه الحالة فإن الذرية سوف تعانى من خلل وراثى يمكن أن ينتقل، أحياناً، لأجيال تالية.

المسألة، إذن، يمكن اختزالها فيما إذا كانت المؤثرات الخارجية – عبر الخلايا الجسمية أو حتى على نحو مباشر – يمكنها أن تؤثر فى الخلايا الجرثومية – الخلايا الجسمية – التى تكوِّن جسم الكائن الحى – تحيا دورتها الزمنية، ثم تعود إلى عملية الأيض فى الطبيعة أو إلى التراب. والخلايا الجرثومية تحمل الحياة إلى أجيال لا حصر لها، مستخدمة الكائن العضوى المفرد كحامل لها، هذه الخلايا هى – بالإمكان – غير قابلة للموت، رغم أن نسبة هائلة منها تتبدد، كما يمكن للمرء أن يلاحظ فى بذور الأشجار أو حبوب اللقاح أو بلايين

الحيوانات المنوية التى تقذف فى عملية جماع واحدة، واحد منها فقط هو - فى العادة - الذى تتاح له فرصة الإخصاب. إن ثمة قدرة كامنة على إعادة الإنتاج إلى ما لا نهاية، مختزنة فى كائن مجهرى كالحيوان المنوى أو البويضة، تحمل خصائص قابلة للتوريث أجيالاً بلا حصر، ليس لأن الحيوان المنوى يورث ويتكاثر مرة أخرى، ولكن لأن الكائن العضوى الجديد لديه خلايا إعادة الإنتاج التى تقوم بدورها بإنتاج الحيوان المنوى والبويضة. هذه الخلايا التى تعيد الإنتاج، الحيوان المنوى أو البويضة، إذا تعرضت لتأثير قوى من عامل كيميائى أو حرارى أو إشعاعى، فإن خواصها الجديدة يمكن أن تصبح قابلة للتوريث كذلك، وهذا يفتح الباب أمام إمكانات هائلة فى علم الوراثة.

اشتداد الأعراض أو البرحاء فى الطبيعة، مصحوبة بمثل هذه العوامل يمكن أن تؤثر على خلايا إعادة الإنتاج فى المملكة الحيوانية والنباتية، وإذا كانت المساحة التى تشملها البرحاء - كما حدث أكثر من مرة - هى الدنيا كلها، تتاح الفرص الكثيرة لحدوث تغيرات إحيائية فجائية فى الأجناس والأنواع. ويمكن للخلايا الجرثومية أن تتأثر، ليس فقط عن طريق الجسم، بل أيضاً على نحو مباشر، ومن ثم تؤدى إلى نشأة وانتقال خصائص جديدة. ونظراً لأن نفس الأسباب يمكن أن تؤدى لتغيرات مشابهة، خاصة فى الأشكال التى تنتج أكثر من نتاج واحد فى المرة الواحدة، فإن الأشكال الجديدة يمكن أن يتحقق لها الدوام، شريطة أن تكون قادرة على الحياة.

أما مسألة، ما إذا كانت الانطباعات القوية على حواس الحيوان هى أساس الغرائز، فهى مسألة بحاجة لتناول يضيق عنه الحيز المتاح هنا، كما أنها بحاجة لقدر من التجريب المبدع. ووجود ذاكرة نوعية لا يعنى أن الانطباع الذى يمثله جيل ما سوف تتذكره

الأجيال التالية، بل يعنى أن الانطباعات، خاصة الانطباعات ذات الطبيعة الصادمة والقابلة للتكرار، التى خبرها كثيرون من الأجداد، يمكن أن تصبح دائمة، رغم أنها ذاكرة لاشعورية أو مركب الذاكرة، تقدم استجابات مناسبة فى مواقف مناسبة.

ليست الذاكرة النوعية هجرة للروح، هى ذاكرة لاشعورية موروثة. ومن خلال الذاكرة النوعية يمكن أن نعتبر أنفسنا حاضرين فى مشاهد كارثة كبرى، طوفان أو زلزال رهيب، وسط قوى وعناصر لا يقيدها قيد، تسبب دماراً لا يكاد ينجو منه مخلوق فى البحر أو على اليابسة. وينحدر تراكم هذه الذاكرات الوراثية إلى كل ممثلى النوع فى أيامنا عن طريق كل خطوط الوراثة، وكلها تعود بأصولها إلى نفس الجيل الذى تعرض للصدمة.

عند اقتراب الزلازل، تفر الحيوانات ذات الحواس المرهفة قبل أن تسجل المراصد أية إشارة. وأثناء حرائق الغابات فإن الحيوانات التى تحيا عادة فى رعب من حيوانات أخرى، سوف تركض مع مفترسيها، وقد أصابهم جميعا رعب أعظم، إلى ملاجئ الكهوف.

واضح تماماً أن ثمة معرفة - تدعى الغريزة - يتم إيقاظها وتفعيلها، دون أن يغيب عنها الخوف أبداً.

إن الذاكرة النوعية لدى الأنواع حقيقة، إنها تنبئ مخلوقاً ضارياً كيف يبنى عشه، وكيف يحصل على الطعام، وكيف يجد رفيقاً أو رفيقة من أجل الإنسال، وكيف يعيش فى مكان مفتوح أو فى شتاء طويل، غير أن أكثرها قدرة على التدمير هى أيضاً المدفونة على عمق أبعد، وعودتها إلى اليقظة مصحوبة بإحساس بالفزع.

إن مؤسس التحليل النفسي - الذى جاوز الثمانين - لم يكن قد بلغ، بعد، نهاية كشوفه واستبصاراته. إن فكرة مكبوتة تلح فى طلب التعبير الواضح عنها:

"إذا نحن نظرنا إلى البشرية ككل، وأبدلناها بفرد واحد، فسوف نكتشف أنها أيضاً قد نمّت أوهاماً تستعصى على النقد المنطقى وتناقض الواقع. وإذا كانت هذه الأوهام قادرة على ممارسة تأثير قوى على البشر، فإن الفحص يقودنا إلى نفس التفسير كما فى حالة الفرد الواحد. ويرجع سبب قوتها إلى عنصر "الحقيقة التاريخية" التى استمدتها من كبت المادة البدائية المنسية.." (١٤).

إن فرويد يتحدث هنا عن أوهام البشرية؛ أى الأوهام التى نتشارك فيها جميعاً، والتى هى غير قابلة للنقد المنطقى، لكنها، فى العمق، حقيقة تاريخية.

ما هى إذن هذه الحقيقة؟ ما هذا الحدث الذى حدث مرة فسحق النوع البشرى، ثم صدم وسجن ولذع عقول الأجيال التالية؟ هل كانت «حكاية ماقبل النوم؟» هل كانت اكتشافاً يعرفه كل طفل كما يعرف الرضاعة؟ هل كانت هذا الدراما تحدث بانتظام كما كان فرويد يظن؟ وهل كانت عملية التوالد الطبيعية، رغم أنها ليست متحررة من الصدمة تماماً، تورث لنا دائماً أوهاماً وضلالات؟ هل هذه الفعلة، كلية الوجود؛ أى قتل الأب على يدى الابن هى «الحقيقة التاريخية؟» وإذا كان الأمر كذلك، فما هى الحقيقة التاريخية التى تستثير العصاب لدى الإناث؟ أم أن الذكور فقط هم الذين تصيبهم أوهام البشرية؟

كان فرويد يفتقد الاستبصار الأخير. خلال السنوات التى كان فيها سوط أشرار البشر يجعل القلوب تخفق والوجوه تشحب،

قضى فرويد، اليهودى الذى يعيش فى ڤيينا التى كانت سعيدة يوماً ما، خمس سنوات طوالاً (١٩٣٣-١٩٣٨) يدين فيها كل يوم يرى فيه الحواجز فى شوارع المدينة، وجنود العاصفة يدقون الباب بعنف، وكان مدعواً من جانب «الهى» عنده، كذلك من جانب «الأنا الأعلى» أيضا، لإصاخة السمع إلى صوت لا يكاد يسمع، قادم من أعمق الأعماق. فى ليالى القلق، مع آلام فكه المصاب بالسرطان، كان فرويد أقرب مايكون إلى تلك «الحقيقة التاريخية» أو -على الأقل- بالإحساس بأنه لم يكتشفها بعد كما كان يظن من قبل.

لقد تابعنا فرويد فى ملاحظاته الباكرة حول أن خبرة صادمة، ذات طبيعة نفسية أو فيزيقية، تؤدى غالباً إلى فقدان الذاكرة، ثم تابعناه فى يقينه التالى بأن ضحية فقدان الذاكرة إما أن ينكر الصدمة أو يبذل جهداً كى يحياها من جديد.

وحين تبين فرويد -فى نفاد متأخر وأكثر عمقا للنفس الإنسانية- وجود ذكريات نوعية مدفونة لخبرات صادمة عاناها أسلافنا، فقد تابعناه أيضاً، ولكن بأنفاس متقطعة، فقد كنا نعرف أنه سوف يخفق هذه المرة. لم تكن الصدمة الإنسانية الكبرى كما تصورها: قتل الأب وامتلاك الأم من جانب الأبناء الذين كبروا وأصبحوا قادرين على قهر الأب الذى كان طاغية الكهف. وهو يتابع تحليل الأعراض حسب تشخيصه، رجع فرويد فى كتابه الأخير إلى أيام «الخروج» ليوضح نوعاً من العتمة، لم تكن ثمة طواعين ولا انقلاب فى الطبيعة ولاخبرات مرعبة على جبل سيناء، لم يكن سوى رجم موسى: رمز الأب، بالأحجار من جانب أبناء إسرائيل فى الصحراء (١٥).

أصاب فرويد، على وجه التقريب، فى التشخيص حين كتب أن الإنسانية تعيش حالة من الوهم، لكنه عجز عن تحديد أسباب

المرض، وهو فى هذه الحالة طبيعة الخبرة الصادمة.

وفى إطار فقدان الذاكرة الجماعى، وهى مجموعة الأعراض التى سبق أن ناقشتها فى «عوالم فى تصادم»، فإن فقدان الذاكرة لدى ضحية مفردة، والذى يعقب الصدمة، ليس موازياً دقيقاً؛ فالعقل الجماعى لاينسى -مباشرة- ما مر به. مايشغلنا هو العملية التى يتم بها انتقال الإرث، ترحيله شفاهة فى البداية، ثم مكتوباً بعد ذلك، والذاكرة النوعية اللاشعورية الموروثة التى يحدث إحياؤها بعد اجتياز خبرة ذات علاقة بها.

والتحليل النفسى كما تتم ممارسته اليوم، يتجاهل أعمق استبصارات فرويد؛ ذلك أنه استنكف أن يقرأ شهادة شاهد على تحويل النظام السماوى والأرضى إلى الفوضى، وهو رعب يشل حتى نخاع العظام- فحاذر أن يتبع فرويد، وآثر أن يتوقف قبل أن يخطو خطوة كبرى، فلا يعترف بأهمية دور الوراثة البيولوچية للخصائص المكتسبة فى المجال العقلى على أساس جماعى، رغم أن كثيرا من الإمكانيات الجديدة يمكن أن تتفتح، وكثيرا من مظاهر العصاب الملحوظة يمكن أن تفهم، لو أننا أصبنا قدراً من المعرفة بما حدث للبشرية فى عصورها الماضية.

الصدمة البدائية

قلة فقط من مظاهر عُصابات الخوف وعُصابات القهر -رغم أن كليهما قد يستثار بفعل خبرات الطفولة الباكرة- ترجع أصولها إلى مواقف بدائية. وهى من طبيعة ردود الأفعال إزاء الشروط التى تهدد الحياة؛ فالأشخاص الذين يخافون من الأماكن المغلقة، أو الذين يرتعبون من المساحات المفتوحة الواسعة، أو من النظر من المرتفعات، أو ركوب الطائرة، قد يكونون، بالمصادفة، يعبِّرون عن

مخاوف الأسلاف التى ترجع أصولها إلى الخبرات الكارثية لأولئك الأسلاف- وكما فى علم الأحياء التكوينى، فإن تشوهات مثل وجود ستة أصابع فى كف اليد، يمكن تقصيه وإرجاعه إلى جد بعيد جداً، وهو يعود للظهور عند سليل بعيد جداً. كذلك شأن الشذوذ النفسى، يمكن أن يُسقط عدة أجيال، ثم يعود إلى الظهور، كما لو أنه على نحو عشوائى.

إحدى أكثر خبرات البشرية الجماعية الصادمة حدثت حينما أدى اقتراب جسم غريب إلى زحزحة القشرة الأرضية، مما أطلق صرخات الرعب والعذاب. عبَّر الشاعر والكوزمولوچى الإغريقى المبكر هزيود عن تلك الضجة المبهمة: «أنَّت الأرض الكبرى وتأوهت، فرددت الأرض مرعوبة، كذلك السماء المفتوحة فوق...» (١٦).

ومما زاد كرب الناس إحساسهم بأنهم لا يكادون يثبتون فوق الأرض، وأدى الإحساس بوجود جسم غريب، وربما أيضاً بعض التأثيرات الكهربية المصاحبة إلى إحساس بفقدان الوزن الوشيك. ألا يمكن أن يكون لدى أولئك الناس الذى يخشون الارتفاع عن الأرض، وركوب الطائرات، ذكريات الأسلاف القديمة وقد استيقظت؟ وأولئك الذين يخافون خوفاً مبالغاً فيه من هزيم الرعد، أو يخافون حتى أن يبللوا أقدامهم بمياه البحر، أو غير ذلك من مظاهر عصابات الخوف قد يكونون كذلك ضحايا ذاكرة وجدت قبل مولدهم بقرون أو بآلاف السنين. والأمر بالمثل فى عصابات القهر، لابد أن ثمة أمثلة كثيرة يمكن تقصيها إلى صدمات نوعية.

ولا يجب أن يصل القارئ إلى الاستنتاج الخاطئ بأن النفس الإنسانية ليست سوى حاملة للانطباعات المنحدرة إليها عن شروط كارثية. ومن المؤكد أن الدوافع الطبيعية مثل إرواء العطش

والجوع، والنشاط الجنسى، وحماية الأبوين -الأم بوجه خاص- للأبناء، والحاجة إلى التعبير عن الذات، وتأكيد الذات، والاحتشاد فى مجتمع، والانشغال بمراكمة الأشياء المادية، وغير ذلك من الدوافع، إنما هى مفطورة فى الإنسان، ولا يكاد يوجد منها شىء لا تعرفه الأنواع الحيوانية؛ ضارية أو أليفة، كل هذه الغرائز موجودة عند الكائنات الإنسانية، وبدون بعضها قد لا يمكن استمرار الحياة نفسها، غير أن فورات الطبيعة، وإطلاق سراح القوى المسعورة، قد صدمت عقول الذين بقوا على قيد الحياة، وخلّفت فيها انطباعات قابلة للوراثة، وغير قابلة للمحو.

هوامش الفصل الأول

1- "Elektrencephalogramm des Menschen," Archiv für Psychiatrie und Nervenkrankheiten (1929), pp. 527 ff.

2- "Ueber die Energetik der Psyche und die physikalische Existanz der Gedankenwelt. Ein Beitrag zur Psychologie des gesunden und somnambulen Zustandes," Zeitschrift für die gesammte Neurologie und Psychiatrie, 133 (1931), pp. 422-37.

3- It was not the purpose of my paper to present extensive case materials. Cf. my paper "Very Similar, Almost Identical" in Psychoanalysis and the Future: A Centenary Commemoration of the Birth of Sigmund Freud (New York, 1957), pp. 14-17, 152-53.

4- Carl G. Jung, The Archetypes and the Collective Unconscious, translated by R.F.C. Hull (Princeton University Press, 1968), pp. 3-7, 12-13.

5- Ibid., pp. 13-15, 23.

6- Ibid., p. 43.

7- "Racial Memory," Encyclopedia of Psychoanalysis (1968), p. 361.

8- Freud, Moses and Monotheism in Works, edited by James Strachey (1955), vol. 23, pp. 132-33.

9- Ibid., p. 80.

10- Freud, "Analysis Terminable and Interminable," in Works, edited by Strachey, vol. 23, p. 220.

11- Freud, An Outline of Psychoanalysis, Part 1, ch. 1, in Works, edited by Strachey, vol. 23, p. 145.

12- Ibid., pp. 206-7.

13- Freud, Beyond the Pleasure Principle, sect. II, pp. 16-17, in Works, edited by Strachey, vol. XVIII.

14- Freud, "Construction in Analysis," in Works, edited by Strachey, vol. 23, p. 269.

15- Freud, Der Mann Moses und die monotheistische Religion (Amsterdam, 1939).

16- Theogony, translated by H. Evelyn-White (Loeb Classical Library, 1914). 11. 820 ff., 852 ff

الفصل الثانى

أن تعرف ولا تعرف

أرغمنى المنطق والدليل على أن أتخلل بعض المسلمات فى بيت العلم.
وأعترف - بملء حريتى - أننى أشعلت الحرائق أكثر من مرة، رغم أن الشمعة التى أرفعها فى يدى ليست إلا للإضاءة.

إعادة بناء الأحداث

إن الدمار المتكرر للعالم الذى حدث بقدر ما تستطيع ذاكرة الإنسان أن تستعيد، خاصة أحداث الدمار الأخيرة، قد ترك آثاره على ذاكرات الشعوب المختلفة حول العالم، على نحو لا يمكن محوه ونسيانه.

وقد قدمت فى كتبى المنشورة إعادة بناء لبعض هذه الأحداث من الماضى التاريخى، إعادة بناء يقوم على دراسة شهادة الإنسان كما احتفظ بها تراث كل الحضارات القديمة. وكلها -حسب النصوص التى وصلتنا منذ تعلم الإنسان الكتابة - تحكى - فى أشكال متنوعة- حكاية لا تستطيع عين المحلل النفسى المدربة إلا أن تراها تنويعات على نفس التيمة أو الموضوع: فى التراتيل والصلوات، فى النصوص التاريخية، فى بحوث الفلاسفة، فى تسجيل الملاحظات الفلكية، بل أيضاً فى الخرافات وفى الأساطير الدينية، حاول القدامى، دون يأس أو كلل، أن ينقلوا لأخلافهم - ونحن منهم - تسجيلاً للأحداث التى تركت آثاراً قوية على شهاداتهم.

وقد رَوَيتُ الحكاية على نحو موجع، بمعنى أننى أحسست قلة الاهتمام بعدم الوعى المطلق من جانب القراء الذين يعيشون كبتاً مطلقاً، تقريباً، لأكثر الجوانب أهمية فى الذاكرات النوعية، فى نسيان كامل، تقريباً، للمحن التى أثقلت جدودهم.

وفى ممارستى للتحليل لم أكن، أبداً، لأربك المريض بالكشف المفاجئ عن العناصر المختبئة وراء مرضه، دون أن يسبقه إعداد مطول، يمكننى من خلاله أن أقود المريض - بحرص وبعناية - إلى استبصاره، أو استبصارها الخاص. وبعد أن ينتهى هذا العمل المبدئى فقط، يمكن المغامرة ببدء الكشف المروع، وفى بعض الحالات لا تكون استجابة المريض لهذا الكشف سوى اللغو والثرثرة، غير أن أبواب التراجع عنه إلى التجاهل تكون قد أوصدت، وفى هذا الوقت أيضا يستطيع المريض أن يتبين نوايا المحلل الطيبة إزاءه، وتبدأ فى التشكل رابطة "الطرح" بينهما. ولكن فى تقديم ذكرى مستعادة، أو حكاية تطور الكبت، من حيث إنها معاناة جماعية من فقدان الذاكرة، فإننى لم استخدم نفس الطريقة، ولا كنت قادراً على استخدامها فهل كان يتعين علىَّ أن أروى أولاً، قصة مختصرة للانقلابات الكبرى التى حدثت فى الماضى فى طبعة مخففة؟ أو أن أقدمها فى جرعات صغيرة: ملء ملعقة شاى بعد الإفطار؟ هل كان علىَّ أن أقدمها باعتبارها رواية محتملة، وليست صحيحة بالضرورة؟ أو أن أقدمها كرواية من روايات الخيال العلمى؟ أن أنشرها مسلسلة أو أقطِّع أوصالها فى مجلات مغمورة؟

ولقد فعلت ما فعلت، موقناً أن ردة فعل قوية سوف تستثار عند أى فرد يواجه هذا الكشف، مباشرة أو عن طريق شخص آخر. لدى بعضهم ستأخذ ردة الفعل هذه شكل الأفكار الصاخبة، والاحتجاج، وتوجيه الاتهام، وتنظيم المعارضة. ولدى آخرين - الذين يطغى عليهم هذا الكشف - سوف تكون ردة الفعل مساوية فى القوة،

وستأخذ شكل القبول، والتهليل، ثم الاندفاع - بحماسة تبشيرية - لهداية الآخرين. وقدوجدت أن الخط الذى يفصل بين هذين المعسكرين، وهو لا يكاد ينحرف، إنما هو بين الذين لم يقرأوا الرسالة المنشورة بعنوان "عوالم فى تصادم" فى ١٩٥٠، والذين قرأوها. حتى الذين لم يقرأوها لديهم أفكار واضحة عنها، فقد كانوا يعرفون "كل شىء" عن طريق عروض الكتب والمناقشات والنمائم، فى حين منعتهم ردة فعل تلقائية من قراءة الكتاب ذاته.

والقصة المروية فى ذلك الكتاب ليست مجرد فروض، وليست نظرية خاملة لكنها إعادة بناء الأحداث التى حدثت فى الماضى التاريخى؛ أى منذ أربعة وثلاثين قرناً، وسبعة وعشرين؛ أى فى الأساس، منذ نحو المائة جيل.

كل صفحة من صفحات النص تحمل إشارات إلى المصادر، ومن ثم فالدليل الذى تقدمه قابل للضبط، والحكاية مفزعة ومزدوجة كذلك: فمن ناحية، ثمة المشهد المروِّع والمثير للقلق؛ مشهد أسلافنا وهم يعانون كوارث الطبيعة. ومن ناحية أخرى ثمة هذا اليقين المفزع أيضاً، بأننا قد تربينا على الخديعة، على رؤية للماضى ليست سوى كذب ورياء، عطلت قدرتنا على البحث، وجعلت فضولنا فى سبات عميق، وعلمتنا - نحن وسياسيينا وفلاسفتنا وعلماءنا - درساً فى اللامبالاة بمصائرنا الحقيقية، وفى ذات الوقت أشربتنا الطمأنينة إلى أنه لا شىء يزلزل الأرض يمكن أن يحدث لنا.

لكن كوكبنا كان عرضة لحوادث مرورية، فأطوال السنة والشهر واليوم لم تكن ثابتة غير متغيرة من البداية، بل تغيرت تكراراً فى أزمنة تاريخية كان فيها الإنسان متعلماً فسجل هذا التغير بالكتابة، وهذا موجود فى نقوش مختلفة، خاصة فى الشكل المسمارى، وتمكن مقارنة المادة التى تقدمها النقوش المسمارية

بتلك التى تقدمها الهيروغليفية، وهما معاً تمكن مقارنتهما بالتقاويم القديمة حول العالم، ومع المزاول وساعات الماء فى الأيام الخوالى، والتى لحقها الفناء لا لتصميمها الخاطئ ولكن للتغيرات التى أصابت ما كانت مصممة كى تقيسه. هذه المادة كلها يمكن - ويجب - أن تفحص فى ضوء سجلات التاريخ، ثم يعاد فحصها بالنظر إلى معنى النصوص المقدسة فى كل الديانات القديمة، وهى نصوص غزيرة فى مقاطع تتناول الانقلابات الكونية والتراث الأسطورى للعصور القديمة.

يضع السجل الأدبى أمام أعيننا صورة واضحة، وعلينا بعدها أن نتفحص مجالات التاريخ الطبيعى. إذا كانت أحداث بهذا القدر من الأهمية قد وقعت، فلابد أن نجد دليلاً بيِّناً لها على الأرض أو فى أعماق البحر. ومطالعة كتابى "الأرض فى اضطراب" لابد أن تقنع أكثر القراء تشككاً بأنه ليس ثمة مكان على الأرض يخلو من هذا الدليل الواضح؛ فى المناطق القطبية، فى الماضى، تكوَّن الفحم ونبت المرجان، وتركت حيوانات الكركدن (وحيد القرن) والماموث والجاموس عظامها بوفرة فى أماكن عديدة؛ فى عمق المنطقة القطبية. فى إفريقيا وفى الصين وفى البرازيل وفى شرق أوروبا، وفى أماكن أخرى نجد خليطاً من حيوانات المناطق الاستوائية والقطبية؛ الدببة القطبية، والثعالب القطبية، الأفاعى والتماسيح الاستوائية، وقد وجد أن بالفحم البنى (الليجنيت) أشكالاً حشرية ونباتات ملقاة معاً من مناطق يتباعد بعضها عن البعض: النرويج ومدغشقر والبرازيل، وقد بلغت قمم الجبال ارتفاعاتها الراهنة فى عصر الإنسان، بل الإنسان المتقدم. وكل فريق كشفى يعود من إحدى السلاسل الجبلية الرئيسية: الهملايا والقوقاز والألب والأنديز، يعود مندهشاً لاكتشاف هذه الحداثة المفرطة.

كما قلت، لقد رويت الحكاية بقسوة وخشونة، ولا يمكن لمثل هذا التعثر في التحليل إلا أن يستثير ردة فعل قوية. وقد حدث. على أن القيمة التحررية للتغلب على كبت الذاكرة النوعية هي أعظم بكثير من احتمال إحداث ضرر سيكولوچي. والحل كامن في البدء بتدريس إعادة البناء الذي قدمته في المدارس، وفي المراحل الأولى منها بشكل أساسي، ومن ثم لن يكون هناك صراع ضد وجهات نظر مغروسة عميقاً في المراجع المدرسية اليوم، وسوف تكون عملية إعادة اكتساب ذكريات الأحداث الصادمة القديمة أكثر سلاسة، وسوف تكون الصدمة - إن حدثت صدمة - أعظم فائدة. إن حقائق الحياة هذه بحاجة لأن نتواصل معها مبكرين، كي نحررها من عنصر "الصدمة الثانوية"، فالأولى قد عاناها أسلافنا في شروط كارثية.

أن تعرف ولا تعرف

كتب فرويد عن اثنين من ردود الأفعال النفسية تجاه الصدمة: «إن آثار الصدمة ذات طبيعة ثنائية: موجبة وسالبة. الأولى: هي السعي لإعادة الحياة إلى الصدمة، تذكر الخبرة المنسية، أو ما هو أفضل: تحويلها لواقع؛ أي أن تحياها مرة أخرى عن طريق تكرارها.. هذا السعي يمكن إيجازه في تعبيري: "التثبيت على الصدمة" و"قهر التكرار" أو "التكرار القهري". وعن ردة الفعل الثانية كتب: ردِات الفعل السلبية تتغيًا الهدف المعاكس. هنا لا شيء يتم تذكره أو تكراره عن الصدمة المنسية. هذه (الردِات السلبية) يمكن أن تتجمع معاً كردة فعل دفاعية، وتفصح عن نفسها في تجنب وتحاشي موضوعات أو ميول، وقد تتصاعد لتصبح "كفاً" أو "خوفاً مرضياً (فوبيا)"، وهذه الردَّات تسهم، بقدر معتبر، في تشكيل

الطابع. وبالفعل، فهى تمثل صور التثبيت على الصدمة لكنها تتبع الاتجاه المعاكس. إن أعراض العصاب الخالص هى حل وسط، تسهم فيه الآثار الموجبة والسالبة للصدمة معاً، أحياناً يسود هذا الجانب وأحياناً ذاك. ردات الأفعال المتعاكسة هذه تخلق صراعات لا يتوصل الشخص، فى العادة، إلى حلها.. » (١).

إشعيا

فى أدب العصور الكلاسيكية، والقرون الأولى للمسيحية، وبعدها أيضاً، نلاحظ عملية سقوط كل الأحداث السابقة إلى هاوية النسيان. هناك أولاً هؤلاء الذين عرفوا، الذين شهدوا الأحداث ووصفوا ما شهدوه.

بدأ النبى إشعيا رسالته فى - ٧٤٧، فى أيام الملك قزحيا، نفس الأيام التى أحدثت فيها الطبيعة دمارها الرهيب، وظل يواصل خطبه وهو يتحول إلى رجل دولة، مقدماً نفسه إلى الأمة وضميرها، وإلى الفرد وروحه. وبوصفه سيِّداً من سادة الكلمة المكتوبة، ليس ثمة من يضاهيه فى الأدب العالمى، وليست ثمة ترجمة تنصف عبرية إشعيا من حيث إيجاز وقوة وثراء الكلمات والبناء. عاش إشعيا زمن آخر سلسلة من الكوارث، ولم يكن بوسعه أن يصفها على نحو أكثر وضوحاً:

"انظر.. إن الرب جعل الأرض خاوية.. وجعلها خراباً، وقلبها رأساً على عقب.. احترق قاطنو الأرض.. ولم يبق سوى القليلين.. (٢).

الخوف والخطر والشراك منصوبة أمامك يا قاطن الأرض.. النوافذ فى الأعلى مفتوحة.. وأسس الأرض مهتزة. الأرض قد تحطمت تماماً، الأرض قد تفككت تماماً.. الأرض تتحرك دون

توقف.." (٣).

إن إشعيا يصف كل شيء: التغيرات الحادثة فى السماء، جيشان الأرض والبحر، زلزلة الجبال، فرار الناس، هجرة شعوب كاملة.

كتابة إشعيا إلى جانب كتابات أنبياء آخرين فى العهد القديم، قرأها ملايين الناس من كل الأجيال منذ إنشائها، وليس ثمة كتاب آخر تمت قراءته على نطاق واسع، أو تم التعليق عليه بكثافة مثل هذا الكتاب. مع ذلك، تبقى حقيقة أن الكوارث التى حدثت أيام "الخروج"، ثم مرة أخرى فى القرن الثامن - قبل العصر الراهن - وبداية السابع، زمن الأنبياء: إشعيا وميكاه وناحوم وهوسيا وعاموس وحبقوق، وكلهم تحدثوا باستمرار عن هذه الكوارث، مضت كلها كأن لم يلاحظها أحد. قرئت النصوص لكنها اعتبرت كنايات واستعارات لأحداث سياسية. إن خوفاً عظيماً يتكشف وراء العزوف عن رؤية الانشغال الجاد، والقلق، لدى أولئك الأنبياء.

المحاولات الباكرة للعقلنة

مع أرسطو (٣٨٤ إلى ٣٢٢) بدأ نوع من التقنين للنسيان الذى اعترى الثورات الطبيعية التى حدثت فى الماضى التاريخى، وأصبح نفى هذه الأحداث هو قوام لا الفلسفة وحدها، بل الدين والعلم كذلك، كما أصبح مُسَلَّمَةً فى العقيدة السياسية. ولكن حتى قبل بداية هذا التقنين كان ثمة ميل نحو عملية المحو والإلغاء، إحدى آليات هذا المحو ما سوف نسميه بالعقلنة؛ أى إبدال ما يبدو غير عادى بما يبدو أقل من حيث كونه غير عادى.

وقبل أن يكتب أرسطو تقنينه (الذى لم يلق معارضة أو لم يكد بالنسبة للعلم) بمائة عام، قام هيرودوت بزيارة مصر، وكتب ما سمعه من الكهنة المصريين ومن الأدلاء الذين يرشدون الزائرين

من البلاد الأخرى.

وحسبما استطعت أن أستنتج من مصادر عديدة عن أجزاء كثيرة من العالم، فإن آخر كارثة كبرى حدثت فى الثالث والعشرين من مارس سنة ٦٨٧ قبل الميلاد حسب تقويم چوليان (٤)، ذات الليلة التى دمر فيها جيش سنحاريب بفعل "العاصفة" كما جاء فى الكتاب المقدس وفى التفسير اليهودى التقليدى (المدراشيم)، لكن هيرودوت سمع من المصريين أنه حين خرج ملكهم (سيتى) على رأس جيش ضعيف إلى فلسطين لملاقاة الأشوريين وملكهم سنحاريب، حدث أن جحافل من فئران الحقل غزت معسكر الأشوريين خلال الليل، وقامت الفئران بقرض أوتار أقواس الجنود، وأرغم الجيش - الذى لم يعد مسلحاً - على الفرار. ويضيف هيرودوت: "وفى نفس اليوم، أقيم تمثال حجرى للملك (سيتى) فى معبد "هيفاست"، يحمل فى إحدى يديه فأراً، ونقش على التمثال: "انظر إلىَّ.. وخف من الآلهة..".

وقد وقع هذا الحدث فعلاً نتيجة اقتراب وثيق لكوكب المريخ الذى أزاحه عن مداره كوكب الزهرة، فى المرحلة الأخيرة من عملية انتظام العائلة الكوكبية. وتذكر السجلات الصينية عن ليلة ٢٣ مارس من سنة ٦٨٧ ق.م أن نجماً يقع فى مسيله أمطار من نجوم منطلقة (٥)، رغم ذلك فالكتاب المقدس، والميدراشيم تتحدث - بتفصيل أكثر - عن عاصفة نارية كانت تتميز فيها أنفاس المحاربين الذين كانت ثيابهم لم تستهلك بعد، (٦) وكان الحدث نفسه مصحوباً بضجيج هائل. فى "عوالم فى تصادم" قدمت هذا الحدس: "إذا حدث لسبب من الأسباب أن زادت - بشكل كافٍ - شحنة الغلاف الأيونى (ايونوسيفير) - وهو الطبقة المكهربة من الغلاف الجوى العلوى - فسوف يحدث تفريغ الشحنة فيما بين الغلاف الجوى العلوى والأرض، وسوف تندفع عاصفة نارية من سماء لا

سحب فيها.." (٧).

مثل هذا الحدث غير "مشروع" فى الفكر الأرسطى أو فى الفكر المتوائم، وبالتالى فإنه لم يحدث فقط، بل يجب حتى عدم الإشارة إليه. لكن إزاحته أو "عقلنته" عن طريق حكاية جحافل فئران الحقل التى قامت فى ليلة واحدة بانتقاء أوتار الأقواس لقضمها، والجيش الآشورى يراقب الكارثة ويستسلم لها. هذا اللون من العقلنة لا يفعل شيئاً سوى تقييد الخيال.

اللاعقلانية الواضحة فى هذه "العقلنة" أرغمت كتاب الحوليات على البحث عن تفسير أكثر قبولاً. وحيث إنه من المعروف أن الطاعون الدبلى ينتقل عن طريق الجرذان، فقد أبدلت فئران الحقل بالجرذان، هكذا نجد فى كتب التاريخ، واللاهوت كذلك، أن جيش سنحاريب فنى نتيجة هذا الطاعون. ولتأييد وجهة النظر هذه يشيرون إلى أن أبوللو سمينوس كان يرسل الطاعون أو يوقفه كما جاء فى "الإلياذة" (الكتاب الأول).

كتب أحد مترجمى هيرودوت: (٨) "هذه رواية هيرودوت للحكاية اليهودية عن الوباء الذى قضى على الجيش الأشورى أمام أورشليم..". لكن أياً من المصادر العبرية القديمة (الكتاب المقدس والميدراشيم) لم يقل بمثل هذا الزعم، حتى برغم أن الوباء كان متفشياً، وقد عزى إلى نفس الاضطرابات فى الطبيعة.

ونصوص الكتاب المقدس تجعل الحادث يبدو كما لو كان حدثاً لحظياً. (٩) على أن الأمر يتطلب أكثر من ليلة واحدة كى يتاح للطاعون الدبلى، أو أى نوع آخر من الطواعين، أن يفنى ١٨٥.٠٠٠ رجل، وهو تعداد الجيش كما جاء فى هذه النصوص.

إن التأليف بين استخدام نظم متعددة، أو استخدام أكثر من منهج فى النظر إلى الموضوع، سوف يعيننا فى توضيح كيف أن ظاهرة ترتبط - على نحو مباشر - بكارثة كوكبية تنتهى بأن

تعرض باعتبارها معجزة، بدل من اعتبارها تتضمن إفساداً لنظام مستقر فى المنظومة الشمسية.

فى فصل متأخر من "عوالم فى تصادم" رويت حكاية منتشرة بين إحدى قبائل الهنود القدامى: "أعد الصبى أنشوطة ومدها عبر الطريق، وحين بلغت الشمس هذه النقطة التفَّت الأنشوطة حول عنق الشمس، وراحت تشدد عليه الخناق حتى تقطعت أنفاسها، وأصبحت الدنيا ظلاماً.."، صرخت الشمس طالبة النجدة، لكن أحداً لم يستطع أن يعينها.. "لأن الحبل قد غاص فى لحم العنق، ولم يستطع أحد أن يفعل شيئاً.." ثم.. "نادت الشمس على الفأر وطلبت منه أن يقرض الحبل، فجاء الفأر وراح يقرض الحبل، لكن المهمة كانت صعبة لأن الحبل كان ساخناً، وكان قد غاص عميقاً فى عنق الشمس، وبعد أن عمل الفأر لمدة طويلة فى قرض الحبل نجح فى قطعه، وحين استعادت الشمس أنفاسها انقشع الظلام، ولو لم ينجح الفأر فى مهمته لماتت الشمس.." (١٠).

ها نحن أمام قصتين، فى كل منهما نجد أن "المخلِّص" هو فأر يقرض حبلاً، لكن الحبل فى القصة الهندية كان يعوق حركة الشمس. أليست ثمة علاقة، ولو بمجرد المصادفة، بين القصتين؟

عند هيرودوت نجد تلك الجملة الشهيرة التى يفضى فيها بالسر الرهيب الذى عرفه من الكهنة المصريين، وهو أنه منذ أصبحت مصر مملكة، فإن حركة الشمس تغيرت عدة مرات عن مسارها المألوف، هذه الجملة لا نجدها فى أى مكان آخر من "تاريخ" هيرودوت إلا على نحو مختصر، يلى مباشرة حكاية الكارثة التى أصابت جيش سنحاريب. هذا التتابع نفسه هو ما نجده فى القسم الثانى من "سفر الملوك": فى حكاية سنحاريب فى الفصل التاسع عشر، وفى الفصل العشرين نجد حكاية اضطراب حركة الشمس؛ هذه الحركة التى تأخرت، عشر درجات، على الساعة الشمسية.

يمكن أن نعـــرف من هذه التنويعـــات الثـــلاثة: التى رواها هيـــرودوت عن الكهنة المصريين، والتى رواها الهنود، مقـــارنة بالتنويع الثالث المحفوظ فى الكتاب المقدس (إشعيا ٣٦ - ٣٨، الملوك (٢) ١٨ - ٢٠، التواريخ (٢)، ٣٢)، كيف يعمد الإنسان إلى تغيير شكل الماضى كى يحرمه من أى شىء يمكن أن يهدد رغبته فى الانسجام والثبات، أن تكون لديه "السماوات نفسها، والكواكب، وهذا المركز المتعلق بالمدى والأسبقية والموقع.." (١١).

هيرودوت - الذى زار مصر فى ٤٥٠ ق.م؛ أى بأقل من ٢٥٠ عاماً على حدث ٢٣ مارس ٦٨٧ - لا يعى التفسيرات التى قيلت فى بلده عن اضطراب حركة الشمس، وهو حين كتبها فباعتبارها خرافات لا تستحق أن تدخل فى كتابته للتاريخ.

والكهنة المصريون، رغم أنهم يعرفون الانقلابات المتكررة فى حركة الشمس، تحدثوا عن فئران الحقل التى قرضت أوتار الأقواس، وهكذا فصلوا بين كارثة جيش سنحاريب وأى اضطراب فى حركة الشمس.

أما الهنود الأمريكيون فقد احتفظت ذاكرتهم بما حدث حين اتخذ تمدد الغلاف الجوى لجسم سماوى شكل حيوان من ذوات الأربع يطلق سراح الشمس التى بدت واقعة فى شراك حبل طويل، لكنهم جعلوا من ينصب هذا الشرك صبياً صغيراً، ومن ثم حرموا القصة من عناصرها الدرامية الحقيقية.

وثمة قبائل أخرى، خاصة فى جنوب الپاسفيك وشماله، عزت "اصطياد" الشمس إلى واحد من أنصاف الآلهة، وحكاياتهم موجودة فى "عوالم فى تصادم".

وحين تضع هذه المادة بعضها فى مواجهة البعض يمكن أن نعرف أيضاً لماذا كان "أبوللو" عند الإغريق تضاف إليه صفة "صاحب الفأر" (Smintheus)، ونقترب أكثر من فهم أبوللو نفسه.

لكن الشيء الأساسى الذى نتعلمه هو أن عملية "العقلنة" لم تبدأ إلا فى أجيال بعدت كثيراً عن الأحداث، ومن ثم أشاعت الاضطراب فيما كان لا يجب أن يشيع فيه.

أفلاطون

رأينا فى القسم السابق النسيان فى وضع كارثة طبيعية، هى الأخيرة بالفعل، قبل انقضاء زمن طويل جداً على وقوعها. لكننا - مع ظاهرة فقدان الذاكرة الأولى، المعبر عن الرغبة فى الغالب - نلحظ فى الآن نفسه اتجاهاً معاكساً، يتمثل فى الجهد الواعى للإبقاء على ذاكرة الأحداث التى هزت إطار الأرض كله؛ أحداث شاركت فيها كل عناصر الطبيعة: البحر والأرض، الشمس والقمر، وكافة مفردات الحشد السماوى.

بعد زيارة هيرودوت لمصر بخمسين عاماً جاء إليها أفلاطون الذى بلغ الثلاثين بالكاد، مباشرة عقب انفصاله عن سقراط الذى جرع كأس السم. وحين كان أفلاطون فى العاشرة سمع بما تعلمه "صولون" - الذى يسبقه بعدة أجيال - من كهنة مصر عن كوارث الماضى، وقد سببت إحداها الدمار ونشوء أطلانطس.

عاش أفلاطون من ٤٢٧ إلى ٣٤٧ ق.م، وقد سبقت آخر الكوارث الكونية زمانه بأقل من ثلاثة قرون. ولابد أن اضطراب حركة الشمس كان موضوعاً مألوفاً لكل من قرأ دراما سوفوكليس التاريخية "أتريوس" التى لم يبق منها اليوم سوى مقطع صغير. إن الشمس طلعت من الشرق، فقط، لأن مسارها قد انقلب:

"زيوس.. غيَّر مسار الشمس، جعلها تطلع من الشرق، لا من الغرب..".

كذلك فإن قراء يوربيديس، أو الجمهور المتردد على المسرح،

كانوا يعرفون هذه المقطوعة من "اليكترا":

" وقام زيوس فى أوج غضبه وحنقه.. حوّل أقدام النجوم إلى الطريق المشتعلة بالنار.. واستدارت الشمس إلى الوراء.. وبسوط نقمته أوقع العقاب بالفانين..".

كان الفلاسفة الرواقيون يعلمون عن الحرائق الهائلة التى تكررت فى العالم، وكان الفيثاغوريون غارقين فى تأملات عن النظام الكونى والفوضى الكونية، وقبلهم فى "إلياذة" هومير نجد مشاهد عديدة عن الحروب الدائرة بين آلهة الكواكب، ومجمع الآلهة الإغريقى كله ليس سوى عاصمة الجحيم على جبل الأوليمب، وجبل الأوليمب ذاته - الذى تغير موقعه كثيراً فيما بعد على الأرض الإغريقية - لم يكن سوى قبو السماء.

ليس مدهشاً، إذن، أن نجد عند أفلاطون عدداً من المقاطع التى تتناول موضوع الانقلابات العالمية أو حتى الكونية. وقد اقتبست عن عدد منها فى "عوالم فى تصادم" وعن "فى السياسة" اقتبست حديث أفلاطون عن انقلاب النقاط الرئيسة: "أعنى التغير الذى حدث فى الشروق والغروب بالنسبة للشمس وسواها من الأجسام السماوية، وكيف أنها كانت، فى تلك الأيام، تغرب فى الجزء الذى تشرق اليوم منه، وتشرق حيث تغرب اليوم..". ومع انقلاب المحور الأرضى، انقلب العقد السماوى كذلك، يواصل أفلاطون: "فى بعض الفترات، كان للعالم حركته الدائرية المعروفة اليوم.. وفى فترات أخرى كان يدور فى الاتجاه المعاكس.. وبين كل التغيرات التى حدثت فى السماوات، كان هذا الانقلاب فى الحركة أعظمها وأكثرها اكتمالاً..". مثل هذه التغيرات كان يصحبها الهلاك وفناء الأنواع والأجناس.. "فى ذلك الوقت، كان ثمة دمار عظيم للحيوانات على وجه العموم، وبقى على قيد الحياة فقط قسم صغير من النوع الإنسانى..".

وفى "تيماوس" يصف أفلاطون آثار تصادم أرضى.. "اجتاحتها عاصفة من الرياح.." مع "نار غريبة من الخارج، ونتوء صلب فى الأرض.." أو بمياه "فيضان عظيم يُزْبد ويفيض.."، والكرة الأرضية التى اضطرب مسارها تتحرك "إلى الأمام وإلى الوراء، ومرة ثانية إلى اليمين وإلى الشمال، وإلى فوق وإلى تحت، تتحرك فى كل اتجاه من الاتجاهات الستة.."، ومحور الأرض "مقلوباً فى مرة، ومنحرفاً فى أخرى، ثم مقلوباً من جديد.."، كما تحدث أفلاطون أيضاً عن الفوضى الكونية والچيوفيزيقية.. "اهتزاز عنيف فى الدوران.." و "انغلاق تام للمسار"، و"اهتزاز فى المجرى" نتج عنها "كل طرق الالتواء، وتسبب دورانها فى صدوع وتشققات من كل نوع..".

وكان أفلاطون واعياً أيضاً بالنسيان الذى يمحو ذكرى مثل هذه الكوارث فى الطبيعة. فى "تيماوس" نفسها يحكى حكاية زيارة صولون الأثينى لمصر، قبل زمان أفلاطون بقرنين. وسأتبع فيما يلى ترجمة فرانسيس كورنفورد:

"صولون.. يا صولون.." قال أحد الكهنة وهو رجل عجوز جداً: "أنتم الإغريق دائماً أطفال، ليس فى بلادكم شىء مثل رجل عجوز..".

سأل صولون: "ماذا تعنى؟"

أجاب الكاهن: "عقولكم شابة، لا مكان فيها لاعتقاد قديم قائم على تراث طويل، لا معرفة تتحقق مع الزمن. وهذا هو السبب: لقد حدث من قبل، وسوف يحدث من بعد؛ دمار كبير ومختلف الأشكال للبشرية؛ أعظمها جاء نتيجة النار والماء، وأقلها يعود إلى أسباب أخرى لا تحصى، والحكاية السائدة أيضاً فى الجزء الذى تشغلونه من العالم هى أن "فاتيون"، ابن الشمس، استخدم يوماً عربة أبيه، لكنه لم يستطع أن يقودها على طريقة أبيه، وهكذا أحرق كل شىء

على وجه الأرض، وهو نفسه التهمته عاصفة النار. لهذه الأسطورة شكل الخرافة، لكن الحقيقة التى وراءها هى انحراف الأجسام التى تدور فى السماء حول الأرض، ومن ثم الدمار ¬ يحدث هذا على فترات بالغة الطول - لكل شىء على الأرض نتيجة حريق عظيم.. إن كل إنجاز عظيم أو نبيل، وكل حدث استثنائى حدث فى الجزء الخاص بكم، أو هنا، أو فى أى مكان، لدينا عنه أنباء، تمت كتابته منذ عصور سابقة، وهو محفوظ فى السجلات فى معابدنا.. فى حين أنكم أنتم، وشعوب أخرى مثلكم، لم تغتنِ حياتهم بالحروف وسواها من ضرورات الحضارة إلا أخيراً، وحين حدث مرة أخرى - بعد انقضاء الفترة المعتادة من السنين - أن انهمرت السيول من السماء واندفعت تكسح كل شىء كالطاعون، لم تترك منكم إلا الغلاظ والجهلة. وهكذا بدأتم من جديد مثل الأطفال، لا تعرفون شيئاً عما حدث فى الماضى، هنا أو فى بلادكم.. وكبداية، فإن شعبكم يتذكر طوفاناً واحداً فقط، فى حين أن طوفانات عديدة قد سبقته، فضلاً عن ذلك فأنتم لا تعرفون أن أكثر أبناء النوع الإنسانى نبلاً وشجاعة فى العالم كانوا يعيشون يوماً فى بلادكم، ومن بقايا ضئيلة من بذرتهم، جئتم أنتم ومواطنوكم، وأنتم لا تعرفون شيئاً عن هذا؛ لأن الذين بقوا على قيد الحياة لعدة أجيال ماتوا دون أن يتركوا كلمة مكتوبة واحدة..

تنبئنا السجلات أنه.. كانت ثمة جزيرة (فى المحيط الأطلسى) أمام المضيق الذى قال لى بعض مواطنيكم أنكم تسمونه "أعمدة هرقل". كانت الجزيرة أكبر من ليبيا وآسيا (الصغرى) معاً.. على هذه الجزيرة الأطلسية قامت سلطة غير عادية بأيدى ملوك لم يكونوا يحكمون الجزيرة كلها فقط، بل كثيراً من الجزر الأخرى وأجزاء من القارة، إضافة لذلك فإنهم كانوا - عبر المضايق - سادة ليبيا حتى مصر وأوروبا حتى حدود ترخينيا.. بعد ذلك جاء زمن

الزلازل والفيضانات الجامحة، وفى يوم وليلة بلغا أقصى درجات الرعب ابتعلت الأرض أجساد كل رجالكم المحاربين، وجزيرة أطلانطيس أيضاً غرقت تحت البحر وتلاشت. لهذا بقى المحيط الخارجى حتى اليوم لا يستطيع أن يجتازه أو يستكشفه أحد؛ لأن الطريق قد أغلقته الأوحال، تحت السطح مباشرة، وقد خلفها استقرار الجزيرة الغارقة تحت.." (١٢).

ونحن بحاجة لأن نؤكد كلمات أفلاطون عن "انحراف الأجسام التى تدور فى السماء حول الأرض" باعتباره سبب الدمار الذى يحدث على فترات طويلة؛ لأن هذه الكلمات هى ما يتم تجاهلها فى العادة! أعداد لا تحصى انشغلوا بتخمين "موقع" أطلانطيس فى كل أجزاء الدنيا، لكن لا أحد منهم انتبه لتلك الكلمات التى اقتبسناها.

كان أرسطو يعد بين تلامذة أفلاطون. لكننا لو نظرنا إليه فى الضوء الصحيح لرأينا أن موضوعه هو نقيض موضوع أفلاطون الذى كان يحس بميراث العصور. ولابد أن أرسطو كان يعرف ما يقوله أفلاطون ويعلمه، لكنه كان، وحده، غير ميال لأن يتقبل كلمات المعلم هذه باعتبار أن لها أية علاقة بالحقيقة التاريخية. ولم يحاجج أفلاطون، اكتفى، فقط، بأن يتجاهل ما قاله معلمه فى كلمات كثيرة فى مختلف أعماله.

النفى الأرسطى لصدمات الماضى، وقد انبنى فى نظام فلسفى يضم عديداً من مجالات المعرفة الإنسانية، أصبح هو الصخرة التى قامت عليها مدارس الإسكندرية فى الطبيعيات والرياضيات والفلك عند أرشميدس واقليدس وكلاوديوس بطليموس.

وتعاليم التماثلية (لويل وداروين) هى طبعة القرن التاسع عشر من الأرسطية. وحيث إن علماء الكنيسة (حسب تعبير توماس هكسلى) مازالوا يتبعون خطى داروين، فهى ما تزال أرسطية، وفى اتباعهم إسحق نيوتن فى دراسة الفضاء السماوى والأجسام

التى تسكنه، فعلماء الكنيسة أرسطيون مرة أخرى. وحيث إن هذا التعبير الأخير يكافئ السكولاستية، فهذا يعنى أن العصور الوسطى لم تبلغ نهايتها بعد.

أرسطو وفقدان الذاكرة

"القسم التالى من إعداد الأستاذ لين أ. روز بناء على اقتراحى. وفيه يلخص روز الموضوعات الرئيسة فى كتاب يقوم بإعداده عن أرسطو.".

كل صفحة من صفحات أعمال أرسطو، تقريباً، تثير سؤالين مزعجين: (١) لماذا يكتب ما كتب؟ (٢) لماذا دأب الناس - عبر العصور - على إبداء الإعجاب بهذا الذى كتبه؟. أفضل جواب عن هذين السؤالين نجده فى إعادة البناء الذى قدمه فليكوفسكى فيما يتعلق بالتقارب الذى كاد أن يبلغ التصادم، بين الكواكب، وكذلك فيما يتعلق بمفهومه عن فقدان الذاكرة الثقافية الجماعى.

قلب نظام أرسطو، وإطاره العام، هو "كوزمولوچيته" أو علم الكون عنده، إنه ليس أكثر نظريات الكوزمولوچى تأثيراً فقط، بل هى أيضاً أكثر تلك النظريات استفاضة فى تماثلها الفلكى. والحقيقة أن أفكاره هى على أقصى بعد ممكن من أفكار فليكوفسكى، بل إن مجمل نظام أرسطو يبدو أنه مصمم، بوجه خاص، كى يستبعد نفس احتمال عوالم فى تصادم. وهذا سبب جاذبيته وقبوله وشعبيته الدائمة.

نادراً ما اعتمدت نظرية أرسطو الكونية، وأفكاره الأخرى، على الأدلة المستمدة من الملاحظة والتجربة. بل يبدو أن أفكاره تتطور - أساساً - من خلال مخيلته وذاته. لأى هدف؟ لإشباع حاجات شخصية خاصة به؛ لخدمة الأهداف السياسية لسادته المقدونيين:

فيليب، ثم الاسكندر؟ لنفى نفس إمكان التقارب الذى كاد يبلغ التصادم بين الكواكب؟ من المحتمل أنه كان يعمل فى خدمة هذه الأهداف الثلاثة معاً. على أية حال، إن الدليل والحجة لن يقولا لنا الحكاية، وعلينا أن نتحول إلى الاعتبارات السيكولوچية إذا شئنا أن نفهم كيف يعمل عقل أرسطو.

وحالة أرسطو ممتازة لتطبيق وإثبات مفهوم فليكوفسكى عن الذكريات الجماعية المكبوتة فيما يتعلق بالكوارث الكونية والتقارب الذى كاد يبلغ التصادم بين الكواكب، والطرائق التى تفصح بها هذه الذكريات. والحقيقة أن تاريخ الحالة بالنسبة لأرسطو أكثر أهمية من تاريخ أية حالة مفردة أخرى؛ إذ يمكن القول بإن كل الملامح الأساسية والمميزة فى نظام أرسطو إنما تخدم - على هذا النحو أو ذاك - هدف تهدئة مخاوفه العميقة من الكوارث بين الكواكب. وقد مضى به إنكاره لما قد حدث فى الماضى إلى مدى متطرف. فخلق نظاماً لا ينكر حدوث تقارب يكاد يبلغ التصادم بين الكواكب فقط، بل ينفى أيضاً إمكانية حدوثه. وقد أصبح أرسطو، والأرسطية، هو العقبة النظرية الأساسية أمام نظرية الكارثة. فلا أحد فى تاريخ الفكر الإنسانى المسجل كله فعل ما فعله أرسطو لنزع المشروعية عن هذه النظرية. وثمة دليل على هذا، ليس فى أعماله الطبيعية والكوزمولوچية فقط، بل من خلال الأعمال الأرسطية الكاملة.

الأرض - عند أرسطو - هى فى مركز كون دائرى، وهى لا تتحرك. فى العالم الأرضى، تحت القمرى، ثمة تغير دائم (يشمل الظهور والعبور، كما يشمل تغيرات فى الكيف والكم والمكان)، غير أن كل هذه العمليات هى - على المدى الطويل - مجرد "دوران"، ليس ثمة تحول حقيقى أو تطور أو جدة فى العالم الأرضى. وفى السماء ثمة خمسة وخمسون كوكباً متداخلاً تشترك مع الأرض فى

المركز؛ هذه الكواكب غير المرئية، المكتملة رياضياً، لا تتغير، ولا يمكن اختراقها، "النشاط" الوحيد المسموح لها به أن تدور. (ليس ثمة تغير آخر مسموح به في العالم السماوى).

يفترض أرسطو وجود "عقل" أو ملاك حارس لكل من هذه الكواكب السماوية، يجعله يظل يتحرك بمعدل متماثل ومطلق على طول الأبدية؛ أقطاب كل كوكب، ترتبط معاً وتظل على حركتها الدائرية بفعل كوكب آخر خارجها، على هذا النحو يمكن أن تعزى هذه الأنماط المعقدة من الحركة إلى تزاوج الحركات الدائرية المتماثلة. وكل من "الكواكب" السبعة (زحل، المشترى، المريخ عطارد، الزهرة، الشمس، القمر) موضوع، كالجوهرة، على خط اعتدال أحد الكواكب، كل من هذه الكواكب، الحاملة للنجوم، مغلقة بطبقات من الكواكب غير الحاملة للنجوم، ومن ثم لا تستطيع الكواكب أن يقترب أحدها من الآخر إلا بقدر ما يستطيع الاقتراب منا نحن، وحيث أن الكواكب لا تتحرك لذاتها، بل هى محمولة على الكواكب الأخرى، وحيث إن هذه الأخرى لا تتحرك بذاتها، بل تدفعها "العقول"، فإن أرسطو لم يعمد، فقط، إلى إبعاد الكواكب - مقدار مرحلتين - عن أى مصدر للحركة، بل وضمن أيضاً أن يكون مصدر الحركة عقلياً، لا أعمى يفتقد العقل.

وربما بدا "كتاب الشعر" مكاناً غير ملائم لأن نبحث فيه عن استجابات أرسطو تجاه الكوارث الكونية، لكننا سوف نرى - خاصة فى مفهومه للتراچيديا المثالية - أن "الشعر" منجم غنى بهذه المعلومات، ربما أكثر من أعماله الكوزمولوچية المحددة. ذلك أن كوزمولوچيا أرسطو ما هى إلا صياغة لنفيه أو لكبته كوارث الماضى، وفلسفته فى التراچيديا - من الناحية الأخرى - تقدم له سبيلاً لإعادة زيارة هذه الكوارث، وهو آمن هذه المرة، له مطلق السيطرة على ذاته (من الممكن أن يكون النفى أو الكبت وإعادة

الزيارة، كلاهما على المستوى اللاشعورى).

يؤكد أرسطو أن التراچيديا تقدم "أحداثاً تستثير الشفقة والخوف، وبهما يتحقق "التطهر" من هذه العواطف"، (١٣) لكن ملاحظاته حول التطهير أو التطهر لا توضح أبداً ما إذا كانت العاطفة التى تم التطهر منها ذات مضمون حقيقى، أم أن المشاهد هو الذى يتطهر من العاطفة، يبدو أن هذا المعنى الأخير هو الذى كان فى عقل أرسطو، على أنه يمكن القول إنه كان يعنى التطهير: بكلا المعنيين: نحن المتفرجين نتطهر من عواطف الشفقة والخوف، كما أن عواطف الشفقة والخوف التى نشعر بها قد تطهرت هى ذاتها من المضمون الذى كان يمكن أن يكون لها لو كنا نشهد أحداثاً حقيقة، لا تقليداً مسرحياً زائفاً لهذه الأحداث.

تعرف أرسطو على مختلف مكونات التراچيديا، بما فيها الحبكة والشخصية، لكن الحبكة - أى طريقة ترتيب الأحداث - هى التى لها الأهمية الأولى:

"وأهم من كل شىء بناء الأحداث.. الآن فإن الشخصية هى التى تحدد ماهية الإنسان، لكن أفعاله هى التى ستجعله يشعر بالسعادة أو بنقيضها. الحدث الدرامى، إذن، ليس بهدف تصوير الشخصية؛ فالشخصية تأتى كمساعد إضافى للأحداث.. مرة أخرى: دون حدث لا تكون تراچيديا، لكنها يمكن أن تكون دون شخصية..".

واهتم أرسطو اهتماماً خاصاً بثلاث خصائص فى الحبكة؛ هى تحول الموقف أو عكسه والتعرف، ثم الشفقة أو مشهد المعاناة. وأرسطو يفضل أن يتزامن مشهد عكس الموقف والتعرف معاً (على نحو ما هما فى "أوديب ملكاً" لسوفوكليس).

كثيراً ما يقال إن "الشخصية قدر"، لكن مصير الضحية التراچيدية، كما يراها أرسطو، هو نتيجة تتابع الأحداث، فهو ليس - فى الجوهر - مسألة الشخصية. لكن النظريات التالية فى

التراچيديا أكدت أهمية "الخطأ التراچيدى أو الصدْع التراچيدى" عند الضحية، هذا الخطأ التراچيدى، هو عادة، مسألة شخصية، غالباً ما تكون اللاأخلاقية أو الرذيلة، ومن ثم يعد السقوط التراچيدى إنما هو نتيجة الإثم أو الجنون أو أية سمة شخصية أخرى لدى الشخصية الرئيسة. وماتزال للحبكة أهميتها بالطبع، لكن من الصعب أن نرى أياً من أنصار القول بأن "الشخصية قدر" أو "الخطأ التراچيدى" فى مدارس التفسير يمكنه حتى أن يوافق أرسطو فى أن الحبكة وحدها - أى الحدث، ثم تتابع الأحداث - هى الأمر الجوهرى فى التراچيديا، وأنه يمكن أن تكون ثمة تراچيديا حتى لو لم تكن بها شخصية. كان أرسطو واضحاً تماماً فى أن السقطة "غير مستحقة" (١٤٥٣ (أ) ٤ - ٥) وأن الضحية "مثلنا" (١٤٥٣ (أ) ٥ - ٦)، "إنسان ليس طيباً وعادلاً على نحو فائق، لكن سوء حظه لا يأتى بسبب الرذيلة أو الفساد، ولكن نتيجة خطأ أو زلة.." (١٤٥٣ (أ) ١٠). الكلمة اليونانية الواحدة التى ترجمها بوتشر فى كلمتين هى: "الهامارتيا hamartia" التى ترجمها إلى "خطأ أو زلة". وقد تحدث أرسطو، بقدر من الإطالة، عن الطيبة والسوء عند ضحايا التراچيديا، لكننا يجب أن نؤكد هنا أنه لا يقدم الشرط الأخلاقى للضحايا من حيث هو "سبب" لسقوطهم، كل ما قاله هو أن الضحايا لو لم يكونوا على هذا القدر من الطيبة أو هذا القدر من السوء، فلن نحس نحن لا خوفا ولا شفقة. من أجل أن نحس، نحن الجمهور، الشفقة والخوف، يجب أن نرى هذه السقطة "غير مستحقة"، ويجب أن نرى الضحايا "مثلنا"؛ أى ليسوا طيبين بصورة استثنائية ولا سيئين بصورة استثنائية كذلك. تلك هى الاعتبارات الوحيدة التى قادت أرسطو للحديث عن المكانة الأخلاقية لضحايا التراچيديا.

فى كتاب "الشعر" وضع أرسطو - لا شعورياً - نماذج شخصيات تراچيديته المثالية على غرار شخصيات ما يقارب الصدام الكونى، فضحايا مثل هذه الكوارث الكونية (كالضحايا فى التراچيديا) يختارون بصرف النظر تماماً عن ارتكابهم الخطأ أو الشر، سقوطهم "غير مستحق" ويأتى "بالدهشة"، وأقدارهم تصيبهم من الخارج، ولا علاقة لشخصياتهم بها. والدمار الأساسى يميل إلى أن "يقتصر على دورة واحدة من دورات الشمس، ولا يكاد يتجاوز هذا الحد إلا قليلاً جداً.." (١٤٤٩، (ب) ١٣)، وذلك فى معرض حديثه عن الفترة الدرامية للتراچيديا (جدير بالملاحظة أن أرسطو يربط هذه الفترة بالشمس، وقد كان بوسعه، مثلاً، أن يحددها "بيوم أو نحوه" دون إشارة إلى أى جسم سماوى على الإطلاق). مفهوم أرسطو للتراچيديا المثالية يحتفظ بهذه الخصائص - وأخرى سوف نراها - من خصائص الكارثة الكونية، ويستبعد من الصورة عناصر مثل الجريمة أو العقاب.

يقول أرسطو: "تلك، إذن هى القواعد التى يجب على الشاعر الالتزام بها" (١٤٥٤، (ب) ١٥). والمرء يدهش ما إذا كان أرسطو يضع نفسه فى موقف مَنْ تُوجه إليه اتهامات مثل تلك التى وجهها "جلاوكون" لنقاد معينين، ووافق عليها أرسطو بقوة:

"يقول (جلاوكون) إن النقاد يقفزون إلى استنتاجات لا أساس لها؛ يصدرون أحكاماً معادية، ثم يبدأون فى البحث عن أسباب لها، يفترضون أن الشاعر قال ما يفكرون هم فيه. ويجدون الخطأ حين يجدون أن شيئاً ما لا يتسق وأوهامهم.." (١٤٦١ (ب) ١ - ٣).

ويعترف أرسطو بمدى ثراء وتنوع التراچيديا الإغريقية، وكيف أن الكثير منها كان يمثل التعارض بين ما يريده هو، وما يحدث فعلاً على المسرح. والكثير منها كذلك لا يتفق والقالب الذى حاول أن يفرضه. و"الشعر" حافل بالإشارات إلى أولئك الذين كتبوا - فى

القرن أو القرنين السابقين على أرسطو - على نحو لم يكن يريده. ويبدو أن أرسطو "كان يجد الخطأ حين يجد أن شيئاً ما لا يتسق و "أوهامه"..." (يبدو أن "أوديب.. ملكاً" لسوفوكليس هى تراچيديا أرسطو المفضلة، فهى واحدة من القلة القليلة التى لم ينقدها). إن القواعد التى يضعها أرسطو بالغة الضيق، وقد حكم هو على الكثير مما كان قبل زمانه، وكذلك على الكثير الذى سيكون بعد زمانه. "أنتيجون"، على سبيل المثال، يمكن أن تكون "أكثر طيبة" من أن تتفق ومتطلبات أرسطو. كليتمنسترا، من الناحية الأخرى، وهى "البطلة" الأولى فى مسرحية ايسخيلوس "أجاممنون"، كما تظهر فى مسرحيات أخرى، إنما هى "أقل طيبة" مما يتفق وأهداف أرسطو. وقد قيل كثيراً إن معايير أرسطو هذه سوف تستبعد تراچيديات تالية مثل تراچيدتيْ شكسبير "ريتشارد الثالث" و "ماكبث" حيث إن الشخصيات الرئيسة فيهما شخصيات شريرة. وربما يكون ثمة كثيرون هم أقرب لأرسطو حين يفكرون فى التراچيديا مما كان يمكن أن يكونوا عليه لو لم يوجد أرسطو أصلاً، لكن قلة قليلة فقط هى التى تتقبل كل التفسير الأرسطى؛ لأن هذا من شأنه استبعاد عدد كبير من التراچيديات الممتازة واعتبارها أقل أهمية وقيمة.

كل الملامح المميزة لنظرية أرسطو فى التراچيديا كانت جاذبة له لأسباب لا يعيها هو نفسه، حيث إنها جميعا - بطريقة أو بأخرى - مرتبطة باقتراب التصادم بين الكواكب. إن ضحايا الكوارث الكوكبية هم، تماماً، "مثلنا" بمعنى أنهم ليسوا طيبين على نحو استثنائى وليسوا سيئين على نحو استثنائى كذلك. وفيما يتعلق بهذا الأمر، فهم ليسوا "مناسبين" وليسوا " غير مناسبين " كذلك؛ ذلك أن المناسب يعانى قدر غير المناسب فى الكوارث الكوكبية، (١٤) كلهم قصبات سهلة الكسر. فضلاً عن ذلك فإن مصائرهم لا

ترتبط بأى "خطأ تراچيدى" فى شخصياتهم، فمصيرهم "غير مستحق"، وهو يصيبهم "بالدهشة"، وبالنسبة لمعظم الناس يتزامن تعرفهم على الاقتراب الوشيك لإله كوكبى وفترة الانقلاب وانهيار عالمهم، وبهذا تكتمل حكاياتهم التراچيدية خلال "دورة واحدة للشمس". التعرف وفترة الانقلاب يأتيان معاً فى الكارثة الكونية، إلا بالنسبة لشخصيات استثنائية مثل أشعيا (ومن المحتمل أنه كان يحدس فقط)، فلم يعرف الناس أن كوكباً كان يقترب منهم حتى وجدوه فوق رءوسهم. ونحن - على وجه اليقين - يمكن أن نشعر "بالشفقة" نحو ضحايا الكارثة و"الخوف" من أن يصيبنا الأمر نفسه، فقابليتهم للجرح وهشاشتهم هى مثلنا نحن أيضاً.

ولد أرسطو - بالكاد - قبل أن تنقضى ثلاثة قرون على آخر كوارث الاقتراب الوشيك للكواكب، وكان النوع الإنسانى - على وجه العموم - لم يفلح، بعد، فى طمر ذكرياته عن تلك الكوارث فى شعوره الجماعى. وأفلاطون قد احتفظ، فى الحقيقة، بكثير من الروايات عن هذه الكوارث، وهى روايات ما أسرع ما صنفها أرسطو وأتباعه بأنها "أسطورية" أو "غير علمية" أو "غير تاريخية"! وإحدى وظائف الأسطورة عند أفلاطون هى: نقل حقيقة لا يمكن نقلها بطريقة أخرى، لم تكن "الأسطورة" كلمة ذات مضمون سيئ عند أفلاطون. وظيفة أخرى للأسطورة هى المحافظة على رواية لأحداث التاريخ فى الماضى؛ هذه الرواية "وقائعية" وليست "روائية". أما عند أرسطو فأصبحت الأسطورة مجرد جزء من الأدب، وهى رواية، لا حقيقة، وهى - بالتالى - ليست جزءاً من التاريخ. إن أرسطو يستخدم الأسطورة كأداة يمكن أن تهدئ التوترات الناجمة عن نفيه للحقيقة التاريخية، وتصبح الأساطير النبيلة مجرد أوعية تتلقى التطهر الانفعالى.

فى القرن الأخير قبل العصر الحالى كان "لوكريتوس" يعرف عن تلك الكوارث وكتب عنها فى كتابه "عن طبيعة الأشياء"، أما معاصره "شيشرون" رجل الدولة وفيلسوف جمهورية روما، فقد انكر إمكان حدوث أن تغير الكواكب مساراتها، وأعلن أن هذه الكواكب آلهة، ويمكن تفسير ألوهية الكواكب بأنها تشغل المواقع الأرقى، وأنها تتبع مساراتها دون خطأ: "وجود الآلهة من الوضوح بحيث إنه لا يمكننى أن أعتبر مَنْ ينكر هذا الوجود ذا عقل راجح.." (١٥).

والتفكير الدوجماتى الذى يغير قانون الإيمان لكنه لا يغير طريقة التفكير موجود فى كل العصور، فى روما شيشرون وقيصر، وفى روما الكنيسة الكاثوليكية، وفى مراكز الرصد والمراقبة فى عالم اليوم. والعقلية التى تقوم بتصنيف المخالفين والمنشقين وإيقاع العقاب بهم باعتبارهم أصحاب عقول غير راجحة أو عقول شريرة، نراها مرة أخرى فى إحراق جيوردانو برونو وفى إرغام جاليليو على التخلى عن معتقداته - حتى فى محاصرة ناشر "عوالم فى تصادم" كى يتوقف عن نشره.

والفكرة التى عبر عنها شيشرون بأن الكواكب أجسام إلهية موهوبة بعقل إلهى لم تكن صادرة عن حقيقة أنها تشغل مكانة سماوية وأنها تتحرك دون خطأ، لكن تلك الصفات قد استدعيت فيما بعد لإثبات الفكرة الموجودة بالفعل وهى: أن الكواكب والنجوم ليست سوى آلهة. أما مصدر هذا الاعتقاد عميق الجذور واسع الانتشار، فهو ذكريات الظواهر الطبيعية والأحداث الاستثنائية التى حدثت فى الماضى، والتى تشحب كلما مر جيل من الأجيال.

"بلينى": عالم الطبيعة الرومانى الذى عاش فى القرن الأول، يمكن أن يقول لنا شيئاً عن تفريغ الشحنات المتبادل بين الكواكب: "تندفع النيران السماوية من الكوكب، كما تندفع الجمرات المشتعلة من الفحم عن خشب محترق.."، (١٦) والعواصف النارية بين الكواكب قد جاءت فى الماضى عن كل من الكواكب الخارجية الثلاث: المشترى والمريخ وزحل.

"سينيكا" الذى كان معاصراً لبلينى، الفيلسوف ومعلم نيرون الخاص، كتب يقول "إن الكواكب الخمسة المرئية ليست هى كل النجوم التى لها مسارات شاذة، هى فقط ما أمكن رؤيته من هذه الطبقة، وثمة أخريات لا حصر لها، تدور فى السر، غير معروفة لنا، إما لشحوب أضوائها، وإما لأن محاورها تقع بحيث إنها لا تكون مرئية إلا حين تبلغ أقصى طرفيها..".

وكتب سينيكا فى "تعليقاته": "وسوف يأتى يوم يكون فيه تقدم البحث عبر العصور قادراً على أن يضع تحت أبصارنا غوامض الطبيعة الخافية عنا اليوم. إن حياة مفردة - حتى لو خصصت بكاملها لدراسة السماء - لا تكفى لفحص مسائل لها هذا القدر من التعقيد.. ومن ثم فإن الأمر يتطلب عصوراً طويلة متتابعة للكشف عنها.. رغم ذلك فسوف يأتى اليوم الذى يندهش فيه أخلافنا لأننا بقينا على جهلنا بتلك الأمور التى تبدو لهم شديدة الوضوح، إن الكواكب الخمسة تفرض نفسها على ملاحظتنا بشكل دائم، فهى تقابلنا فى مختلف أقطار السماء بتحدٍ مفيدٍ لفضولنا..".

وثمة اكتشافات عديدة ستبقى مصونة للأجيال القادمة حين تكون ذاكرتنا قد فنيت. وسوف يكون هذا العالم بائساً لو لم تكن فيه مادة لبحث العالم كله فى كل عصر.. إن الطبيعة لا تكشف عن كل أسرارها مرة واحدة، ونحن نتصور أنفسنا اليوم فى قلب أسرارها، لكن الحقيقة أننا مازلنا متعلقين بأسوارها الخارجية.." (١٧).

"العصور المظلمة" فى أوروبا تعنى تلك الفترة ما بين غزو القوط والوندال لروما فى القرن الخامس إلى بداية النهضة والإصلاح فى القرن الخامس عشر. وفيما يتعلق بالمعرفة فقد كان هذا زمن السكولاستية، وسيطرة تعاليم أرسطو على العقل. أما فى الأقطار الإسلامية فالنهضة كانت قد وصلت قبل عدة قرون.

ثلاث قوى أعاقت العلم عن التقدم، وكانت وراء العصور المظلمة: غزو الحشود القادمة من الشرق والشمال، وتأثير الكنيسة التى فرضت أفكارها الجامدة وأخمدت روح الإنسان، والدوجما العلمية حجرت ذاتها وتجمدت فى عبادة أرسطو التى دامت ألف سنة؛ هى سنوات العصور الوسطى بما فيها من حملات صليبية وسكولاستية وأوبئة الطاعون الأسود.

إن مزيجاً غريباً من الدوجما المسيحية والأرسطية أصبح هو عقيدة الكنيسة التى ترى العالم متناهياً والأرض مركز العالم وهى ثابتة لا تتحرك. أما تصنيفات علم الفلك فكان يقوم بها تلميذ بعيد من تلامذة أرسطو هو كلاوديوس بطليموس: فلكى ورياضى سكندرى، كان يعد أعظم مرجع فى هذه العلوم فى زمانه، وطوال القرون التالية، حتى زمن تيشو دى براها وچوهانز كبلر، بعد خمسة عشر قرناً، كان هو العقيدة التى لا يختلف معها أحد.

وقد انتشر الإسلام فى أسبانيا فى الغرب، وفى بخارى وكشمير فى الشرق. كانت الكنيسة الكاثوليكية تسيطر على أوروبا الغربية، ولم تكن أمريكا قد اكتشفت بعد. فى الشرق والغرب معاً حافظ اليهود، وهم أقليات صغيرة مشتتة، على عقيدتهم القديمة التى نبع عنها، فى الأساس، كل من المسيحية والإسلام.

وفى القرن الثانى عشر، كتب ابن رشد (١١٢٦ - ١١٩٨)، وهو عالم وطبيب مسلم فى أسبانيا "تعليقاته" أو "شروحه" على أرسطو، مازجاً بين أرسطو والإسلام، من ذلك الحين أصبح هذا المزيج غير قابل للانفصام، ثم كتب موسى بن ميمون، الذى يعرف باسم "ميمونيدس" (١١٣٥ - ١٢٠٤)، والذى ولد فى أسبانيا، لكنه عاش ومارس الطب فى القاهرة "دليل الحيران"، مازجاً اليهودية الربانية بالأرسطية. هذان المتعاصران اللذان تفصل بينهما سنوات قليلة فى الميلاد، تلاهما توماس الأكوينى (١٢٢٤ - ١٢٧٤)، وهو راهب دومنيكانى، كتب بحوثه اللاهوتية مازجاً فيها الكاثوليكية بالأرسطية.

هؤلاء الثلاثة يعتبرون المراجع العليا فى لاهوت أديانهم على التوالى، وفى عهدهم أسيئ تفسير الأحداث الكونية التى حدثت فى عصور تاريخية باعتبارها استعارات وكنايات، وتعرض الكتاب المقدس للرقابة (١٨)، والمعجزات الحقيقية للقوى المنطلقة، والفوضى العائدة، والرعب، أصبح بزوغها منكراً على العقل الواعى.

كوبرنيكوس

ثمانية عشر قرناً انقضت منذ زمن أرسطو، وثلاثة عشر قرناً ونصف القرن منذ أيام كلاوديوس بطليموس، وبقيت تعاليمهما عن الكواكب التى تدور حول الأرض فى مركز الكون دون أن تتغير؛ إنها لم تبق على قيد الحياة فقط ، بل بقيت مسيطرة لا يقوى أحد على معارضتها، فجامعات العصور الوسطى والكنيسة بفلاسفتها ولاهوتييها ظلت جميعاً جامدة على هذه العقيدة.

وفى ١٤٩٢ حين اكتشف كولومبس جزر الهند الغربية فى

أمريكا، كان كوبرنيكوس شاباً فى الثامنة عشرة، مسجّلاً فى جامعة كراكوف، ثم تابع دراسته فى إيطاليا، عاد بعدها إلى وطنه بولندا ليصبح كاهن مدينة فراينبرج.

وفى ١٥٠٦ أو ١٥٠٧ بدأ كوبرنيكوس العمل فى كتابه "عن دوران الأجرام السماوية"، موضحاً أن الشمس، وليست الأرض، هى مركز الكون، وأن الأرض تدور فى حركة يومية وتدور فى حركة سنوية. لكنه، على أية حال، لم يتخل عن مفهوم الحركة الدائرية المتسقة، ولا فهم طبيعة النجوم الثابتة، الشموس العظمى على مسافات نائية، بل اعتبرها أضواء مرتبطة بنجم هائل يمثل حدود الكون.

وفى ١٥٣٠ قام مارتن لوثر - الذى كان قد اختلف مع البابا للمرة الأولى فى ١٥١٧ - بالوقوف ضد كوبرنيكوس، مهاجماً "الفلكى الجديد الذى يريد أن يثبت أن الأرض هى التى تتحرك وتدور، لا السماء ولا القبة الزرقاء كلها؛ أى الشمس والقمر، هذا الأحمق يريد أن يقلب علم الفلك كله رأسا على عقب، لكن نصوص الكتاب المقدس تثبت أن يوشع قد أمر الشمس بأن تثبت فى مكانها، لا الأرض". إلى جانب تمرده على الكنيسة الرومانية فهو يزدرى دوران السماء المرصعة بالنجوم.

فى مقدمة كتابه كتب كوبرنيكوس:

"إننى أستطيع أن أتفهم أنه ما أن يعرف بعض الناس أننى - فى كتابى هذا الذى كتبته عن دوران الأجرام السماوية - قد نسبت حركة معينة للأرض، حتى يصيحوا على الفور بضرورة رفضى ورفض نظريتى.. وبالتالى حين أعى فى عقلى كيف سيبدو هذا العرض عابثاً وسخيفاً لدى هؤلاء الذين يقولون بأن مئات السنين قد أثبتت حكمها بأن الأرض ثابتة، وأنها هى مركز السموات. وإذا جئت أنا - على العكس تماماً - لأؤكد أن الأرض تتحرك، حين أعمل

التفكير فى هذا، فإن ازدرائى للخوف الذى يمكن أن تثيره جدة ما أقول به وسخفه البادى، كان يمكن أن يؤدى بى إلى التوقف عن إكمال ما بدأت. فكيف حدث لى أن أغامر - على عكس الرياضيين ووجهات نظرهم التى تلقى القبول، وعلى عكس الحس العام تقريباً - وأصوغ مفهوماً عن حركة أرضية أياً ما كانت؟..".

وقد أرجأ كوبرنيكوس نشر عمله حتى رأى أن أيامه قد أصبحت معدودة، وأن ليله الطويل على وشك الهبوط، وخشى أن يقف أمام ربه دون أن يقول لأهل الأرض الحقيقة التى تكشفت له. بعد عقود من الإرجاء، أغراه تلميذه الوحيد ريتيكوس بأن يسمح له بنشر عمله: عن دوران الأجسام السماوية"، وفى يوم ٢٤ مايو من سنة ١٥٤٣، وقبل موت كوبرنيكوس بعدة ساعات، كانت النسخة الأولى من كتابه بين يديه.

ما الذى كان غير مقبول إلى هذا الحد فى نظام يقوم على مركزية الشمس؟ إنها حاجة الإنسان إلى الشعور بالأمن، القائمة، أغلب الظن، على افتقاد خفى للأمن. والأرض التى تتحرك هى مكان أقل أمناً من أرض لا تتحرك، ثم إنه ينكر على الإنسان دوره المركزى فى الكون، وهذا أمر يسبب جرحاً للأنا. وهو كذلك على تعارض مع معتقدات الكنيسة المسيحية، فهل جاء يسوع إلى كوكب ذى أهمية ثانوية، واحداً من كثرة؟

ولكن، بين هذه الاعتبارات فإن يقظة الشعور بافتقاد الأمن كان أساس هذا القلق العظيم الذى استقبل الإعلان المتأخر لنظرية كوبرنيكوس، ووضع احتمال خروج هذا الكوكب عن الخط أثناء حركته قلقاً هائلاً فى روح الإنسان، وكما تُنفى الصدمات العميقة فى نفس الإنسان الفرد إلى النسيان، فهذا شأن البشرية أيضاً.

جاليليو وجيوردانو

حين تبنى جاليليو عقيدة كوبرنيكوس بدوران الأرض وسواها من الكواكب حول الشمس، فإنه لم يختلف، فقط، مع نصوص الكتاب المقدس، بل اختلف أيضاً مع أرسطو. حين أخضعته محكمة التفتيش للاستجواب عن رفضه عقيدة أن الأرض هى الكوكب المركزى، وأن الشمس، وكواكب أخرى، تدور حولها، فقد كانت هذه تعاليم أرسطو، لا نصوص الكتاب المقدس. الكلمات المشكوك فى صحتها والمنسوبة إلى جاليليو وهو ينهض من على ركبتيه بعد أن تراجع عن أفكاره "ولكنها لا تزال تتحرك" إنما تكشف موضوع جريمته ومضمونها. الفصل الافتتاحى فقط من العهد القديم يبدو كما لو كان يقول بأن الشمس تضئ الأرض لصالح الإنسان. أما بقية العهد القديم فتتحدث مراراً عن أحداث مثل: انتقال الأرض من مكانها، أو انقلابها، وهى أفكار مشروعة حسب مخطوطات أرسطو. وبالفعل، فإن الكنيسة من حيث هى وصية على الكتاب المقدس وعلى أرسطو معاً، فقد تقبلت هذا الأخير على طول الخط تقريباً، أما فيما يتعلق بالكتاب المقدس فقد عمدت الكنيسة إلى منهج استعارى فى النظر إلى المعجزات الكبرى من جانب الطبيعة، وأبدلتها لتصبح معجزات شخصية للقديسين.

جاليليو الذى كان هو نفسه كاثوليكياً مخلصاً، ارتكب انحرافه الوحيد عن أرسطو – هو فى الحقيقة انحراف معتقد كوبرنيكوس الذى كان عمله قد نشر قبل استدعاء جاليليو للمثول أمام محكمة التفتيش (١٦٣٣) بتسعين عاماً. لم يجرؤ جاليليو على أن يتخذ موقفاً حاسماً مثل معاصره البروتستانتى يوهان كبلر الذى أنكر الأجسام الدائرية إنكاراً تاماً، وقال بأجسام بيضاوية أو أهليليجية، أو كما فعل معاصرهما المبكر جيوردانو برونو، المؤمن بوحدة

الوجود، والذى أزاح الشمس والأرض كلتيهما عن مكانتيهما المبالغ فى أهميتهما، وأعلن أن النجوم الثابتة هى شموس، تحيطها كواكب أخرى.

عوقب جاليليو وجيوردانو لتجاوزهما الحدود. عوقب جاليليو بأن سجن ثمانية عشر يوماً فى سجن محكمة التفتيش، ثم أبقى مقبوضاً عليه فى بيته حتى نهاية حياته. وجيوردانو برونو حكم عليه بالسجن سبع سنوات، ثم الموت حرقاً. على أية حال، فإن برونو لم ينكر، فقط، أرض أرسطو الثابتة لا تتحرك فى مركز الكون، بل أنكر كذلك القول بالحمل دون دنس، وكان قد فعل هذا باكراً فى حياته، حين هجر صومعته فى دير الدومنيكان فى "بولا" على منحدرات "فسيوفيوس"، وهى صومعة كان يشغلها توماس الأكوينى قبل قرون ثلاثة. تجديف برونو، إذن، كان موجهاً ضد العقيدتين اللتين لحمهما توماس معاً، وهكذا، فى ١٧ فبراير ١٦٠٠، وفى محرقة "كامبو ديل فيورى" فى روما، أرسلته محكمة التفتيش إلى الجحيم (١٩).

نيكولاس - انطوان بولنجر

اسم نيكولاس - انطوان بولنجر غير موجود فى معظم دوائر المعارف، وليس معروفاً إلا لقلة من الدارسين. كان معاصراً لچان چاك روسو وڤولتير وديدرو، وكلها أسماء لامعة فى تاريخ الأدب الفرنسى، عاش سبعة وثلاثين عاماً فقط، من ١٧٢٢ إلى ١٧٥٩. وقد وقعت على اسمه فى مرحلة متأخرة جداً من أبحاثى، فى الواقع فى سنة ١٩٦٣ فقط. (٢٠) وحين قرأت أعماله بعدها بعدة سنوات، وجدت أنه كان - فى جوانب معينة - بشيراً بفرويد ويونج، وبى شخصياً، وأنه قد حل المسألة التى تركها فرويد ويونج دون حل،

وعلى وجه التحديد لأنه استطاع أن يفهم أن كثيراً من وجوه سلوك الأنواع الإنسانية، جنباً إلى جنب تراث الطقوس الدينية، والبناء السياسى فى عصره وفى عصور أخرى، إنما ترجع بجذورها إلى خبرات الكوارث الكونية فى الماضى، وبالذات كارثة الطوفان (أو الطوفانات، فمن المحتمل حدوث أكثر من طوفان).

وبعد موت بولنجر قبل ميعاده، قام ديدرو بنشر أعماله، غير أن ملاحظاته الچيولوچية لم تكن متضمنة فى المجلدات المطبوعة، ثم ظهرت مقتطفات من هذه الملاحظات والأفكار فى عمل حديث عن بولنجر، (٢١) ولكنها لم تبد مثيرة للاهتمام، لكن علينا أن نضع فى اعتبارنا أن عصر الجيولوجيا - من حيث هو علم - لم يبدأ إلا بعد موت بولنجر.

فى زمن بولنجر، كانت الچيولوچيا - بوصفها علماً - ما تزال فى مرحلة ما قبل الولادة، غير أن ملاحظاته - كمهندس طرق - فى وادى مارين جعلته يصل إلى استنتاجات وجد تدعيماً لها فى كتب الفولكلور والكتابات المقدسة للكتاب الكلاسيكيين التى أتيحت له فى أصولها أو مترجمة. وقد كان مقتنعاً بأن الطوفان كان حدثاً كونياً، رغم أن هذه الفكرة لم تكن من ابتكاره، بل كانت فكرة تلقى القبول فى زمانه، وكان بولنجر - فى الواقع - هو مؤلف مدخل "الطوفان" فى دائرة المعارف الفرنسية الكبرى التى حررها ديدرو. وفى كتبه كان يشير إلى الطوفان أحياناً باعتباره حدثاً مفرداً، ثم يعود مرة ثانية ليتحدث عن فيضانات عديدة. ويبدو أنه لم تكن لديه أدنى فكرة حول مصدر المياه فى تلك الفيضانات ومن أين تأتى، ولم يكن واعياً بأن أى عنصر من خارج الأرض يمكن أن يكون سبباً فى هذه الكارثة الكونية، وأى من الكواكب التى صورها فى عمله لم يكن له علاقة بهذا الانقلاب. كذلك فإنه لم يربط أوصاف الأحداث التى أحاطت "الخروج" بأى حدث يمثل كارثة كونية، ولا

وصل إلى نتيجة أن أحاديث الأنبياء العبرانيين أيام سيطرة الأشوريين (فى القرن الثامن قبل الحقبة الراهنة) كانت تتناول كوارث كونية معاصرة. رغم ذلك فقد كان مستعداً لأن يعترف - فى مناسبة واحدة على الأقل - بأن ثلاثة آلاف سنة فقط هى التى انقضت على استقرار النظام فى الطبيعة، ومن ثم فلابد أن الكائنات الإنسانية قد شهدت هذه الأحداث، وأن النوع الإنسانى قد عانى، مرة أو أكثر من مرة، هذه الخبرات العنيفة، والتى ماتزال آثارها معنا:

"إننا مازلنا نرتجف، حتى اليوم، من عواقب الطوفان، وماتزال مؤسساتنا - دون أن نعرف - تنقل إلينا المخاوف وأفكار الرؤى المروعة التى كانت لدى آبائنا البعيدين. والرعب ينتقل من نوع لنوع، وخبرة القرون يمكن أن تضعف منه، لكنها لا يمكن أن تجعله يختفى تماماً. وسيظل الطفل - إلى الأبد - يخاف مما أخاف أسلافه.." (٢٢).

وبتعميم عريض يمكن القول إن مجتمعنا - شأن المجتمع البدائى كذلك- مازال يعيش ظلال خبرة الفيضان. لقد استبق بولنجر فرويد ويونج، وحدد طبيعة الخبرة التى أثرت فى سلوك الأجيال التالية. يرى فرانك أ. مانويل أنه حسب مفهوم بولنجر "ليس ثمة انتقال فسيولوچى لرعب ما بعد الطوفان، أو كابوس له طابع لاهوتى يتعلق بالإثم، هو مجرد تراث تاريخى تجسد فى الطقوس والأساطير والشعائر. لم يتطلب بولنجر ميكانيزما بيولوچياً، أو ذاكرة نوعية تورث عن طريق الجبلات لتفسير استمرار تأثير صدمة الطوفان، تكفى المحاكاة وتراث المؤسسات، وهى نظرية تتيح أيضاً الشفاء من المرض على نحو أكثر يسراً، ومن ثم ولدت قدراً من التفاؤل، يمكننا أن نميز تأثيره فى تعامل فرويد الإنسانى مع الصدمة (٢٣).

لم يعرف فرويد ولا يونج شيئاً عن بولنجر، واسمه ليس موجوداً فى التراث السيكولوچى، وليس قوله بأن أحداثاً كارثية قد حدثت فى الماضى هو الجديد بالاهتمام، إن تميزه، بالأحرى، راجع إلى تأملاته فى عواقب مثل تلك الانقلابات على النوع الإنسانى. وفكرة الأحداث الكارثية فى الماضى موجودة بالفعل فى كتابات "ويليم ويستون"، الذى خلف ايزاك نيوتن فى ترينتى لولدج، كامبردج، الذى قال بأن الطوفان كان بسبب مذنب عاد مرة أخرى على أيامه؛ أى فى ١٦٨٠. كذلك كان چورج لويس دى بوفون، وهو معاصر لبولنجر، يظن بأن مذنباً هائلاً قد ضرب الشمس، ووضع أساس العائلة الكوكبية. وبعد زمن بولنجر راح الفكر العلمى فى القرن الثامن عشر والنصف الأول من التاسع عشر، يبحث المرة بعد المرة عن سبب تلك الانقلابات الكونية.

انقسام لابلاس

فى كتابه "عن الحركة السماوية" (١٧٧٩ - ١٨٢٥) أثبت بيير سيمون دى لابلاس أن النظام الشمسى، الذى تحكمه الجاذبية، منتظم، وأن الكواكب تتحرك فى مسارات آمنة تماماً. وفى كتابه "عرض لنظام الكون" (١٧٩٦) ناقش احتمال حدوث تصادم بين الأرض ومذنب من المذنبات، وقد بدأ بأن قلل من أهمية هذا الاحتمال ونتيجته، لكن الملاحظ أنه كلما مضى فى الحديث زاد حماسه، وسرعان ما اعترف بإمكان حدوث نتيجة مرعبة، ثم زعم فيما بعد أن ثمة مشاكل فى علم الچيولوچيا والمناخ القديم لابد من أن تجد تفسيرات مضبوطة تليق بهذا الحدث. هكذا أقام لابلاس انقساماً: انكر احتمال حدوث اضطرابات بهذا القدر الكبير فى النظام الشمسى، وفى الوقت نفسه اعترف باعتقاده بواقعية مثل

هذه الأحداث!

أما قوله بأن النظام الشمسى لم يعرف - ولا يمكن أن يعرف - الاضطراب فهو أمر معروف، وهذا المعتقد الأساسى فى الفلك الحديث يتم اقتباسه دائماً، ومن ثم لا داعى لاقتباسه عن لابلاس هنا. فيما يتعلق بالمقولة الأخرى، وحيث إن المراجع تعمد دائماً - وعلى نحو منظم - إلى استبعاده من التراث العلمى، فسوف أعيد نشرها هنا. هب أن مذنباً بحجم الأرض قد عبر بالقرب منها:

"سوف يتغير محور الدوران وحركته، والبحار سوف تهجر مواضعها القديمة وتدفع بنفسها نحو خط الاعتدال الجديد، وسوف يغرق جانب كبير من النوع الإنسانى والحيوانات فى هذا الطوفان الكونى، أو يدمر بفعل الصدمة العنيفة التى ستعم كوكب الأرض، وسوف تنقرض أنواع بكاملها، وسوف يطاح بكل آثار ما صنع الإنسان.. تلك هى الكوارث التى يمكن أن يحدثها المذنب إذا كان حجمه مقارباً لحجم الأرض..".

بناء على ذلك سنفهم لماذا هبط المحيط عن الجبال العالية وترك وراءه آثاراً لا يمكن إنكارها لإقامته المؤقتة، وسنفهم كيف استطاعت حيوانات ونباتات الجنوب أن تبقى فى مناخ الشمال حيث اكتشفت آثارها وبقاياها، وسوف يفسر لنا هذا، أخيراً، حداثة الحضارة الإنسانية، فبعض آثارها لا تعود لأكثر من خمسة آلاف سنة، ثم إن النوع الإنسانى، الذى تناقص عدده إلى أفراد قليلين، فى أقصى درجات الشقاء، سيقتصر ما يشغله على البقاء على قيد الحياة، ولابد من أن ينسى تماماً كل ذكريات العلوم والفنون، وحين تتقدم الحضارة وتعود هذه المطالب مرة أخرى يصبح ضرورياً بالنسبة له أن يبدأ من جديد، كما لو أنه وضع على الأرض لتوِّه.." (٢٤).

لقد سقت هذا النص عن لابلاس لأصور حالة انقسام فى

الشخصية، ليس فقط بالنسبة لهذا العالم الذى يعتبر العبقرى الذى بلغ بنظام نيوتن الاكتمال، بل أيضاً بالنسبة لأولئك الذين يفضلون اليوم - بعد ما يقارب المائتى سنة - تصديق حكايات الجنيات عن عالم تغمره النعمة، عن التاريخ الصادم للأرض فى اضطراب.

فى اللقاء الذى تعقده كل سنتين الجمعية الفلسفية الأمريكية، والذى عقد فى جامعة نوتردام فى انديانا فى ٢ نوفمبر ١٩٧٤، تحدثت عن رغبة العلم فى أن يعرف، وكذلك رغبته القوية المكافئة فى ألا يعرف، منذ أرسطو فى العصور القديمة، ولابلاس فى العصور الحديثة، أصبحت الرغبة فى أن نعرف الكثير وألا نعرف أكثر هى السائدة فى مجال البحث العلمى!

داروين

إن المدى الذى بلغه الخوف من التيقن بأننا نسافر فى مركبة معرضة للحوادث، وسيطرته على فكر العلم الحديث، يمكن أن يتضح فى أمثلة قليلة.

تشارلس داروين، وهو عالم شاب فى الطبيعة، قام بزيارة لأمريكا الجنوبية، وكانت هذه أطول مدة قضاها - حتى ذلك الحين - فى جولة حول الأرض على السفينة "بيجل". كتب فى "يومياته" عن هذه الرحلة (سبق أن اقتبست هذه المقاطع فى "الأرض فى اضطراب"): "لا يمكن أن تفكر فى التغير الذى حدث فى القارة الأمريكية دون دهشة كبيرة. لابد من إنها كانت فيما سبق تحتشد بعمالقة ضخام، واليوم لا نجد سوى أقزام، مقارنة بأسلافهم أو بالعناصر الأخرى المشتركة..".

ويواصل: "ومعظم، إن لم يكن كل ذوات الأربع المنقرضة عاشت

فى فترة متأخرة، وكانت معاصرة لمعظم قواقع البحر الموجودة اليوم، ومادامت قد ظلت باقية فهذا يعنى أن تغيراً كبيراً فى شكل الأرض لم يحدث. ما الذى، سبب انقراض هذه الأنواع انقراضاً تاماً إذن؟ فى البداية فزع العقل فزعاً قوياً لفكرة حدوث كارثة عظمى، ولكن أن تُدمَّر الحيوانات الكبيرة والصغيرة فى بتاجونيا الجنوبية وفى البرازيل وفى كورديليرا فى البيرو وفى أمريكا الشمالية حتى مضايق بهرنج، فلابد من اختبار الإطار الشامل للكرة الأرضية..".

لم يكن داروين يعرف الجواب، فكتب "من الصعوبة أن يكون تغيير المناخ هو الذى دمر - فى نفس الوقت تقريباً - كل من يعيشون فى مناطق استوائية أو معتدلة على جانبى الكرة الأرضية..". لم يكن الإنسان هو من قام بهذا التدمير، فهل كان له أن يهاجم الحيوانات الضخمة، يتساءل داروين، وهل يمكن أن يكون هو سبب انقراض "كثير من أنواع الجرذان وذوات الأربع الصغيرة الأخرى التى وجدت حفرياتها؟..". ثم يستنتج: "على وجه اليقين، ليس ثمة حقيقة فى التاريخ الطويل للعالم على هذا القدر من إثارة الدهشة والحيرة مثل الانقراض الواسع والمتكرر لمن يعيشون فيه.." (٢٥).

وقد رأينا ما فعله داروين فى أمريكا الجنوبية، فلم يكن أمامه سوى أن يتبنى القول بالكارثية. إنه لم يصل لمعلوماته عن طريق القراءة فقط، لكنه رأى بعينيه آثار ضحايا الكارثة، لا فى المتاحف، بل فى مواقعها ذاتها: فى سهول ومنحدرات الأنديز. وهذه التجربة أكثر إلزاماً من معلومات الكتب. رغم ذلك قدم داروين - بعد عقدين من الزمان - اقتراحاً لا يتفق مع المقدمات حين أرجع كل التغيرات فى المملكة الحيوانية إلى تطور بالغ البطء عن طريق التنافس، ولجأ إلى ديالكتيك ممتد كى يثبت أن الأرض قد سلكت مسلك

التطور الثابت فى مسار مستقر هو الدوائر غير المتقطعة، ذلك أن فكرة اهتزاز الكرة الأرضية كلها كانت بعيدة عن تفكيره. لكنه رأى هذه الحيوانات بنفسه، رأى عظامها المتناثرة المتشظية، مكومة فى مجموعات غريبة تضم الحيوانات الضخمة من الكسالى والفيلة إلى جانب الطيور والجرذان. وكان عليه أن ينسى صور الكارثة تلك من أجل وضع نظرية عن أرض عاشت فى سلام ولم تعرف اهتزازاً أو ارتجاجاً فى كليتها؛ أرض تعيش عليها أنواع متنافسة من أجل الحياة، مستفيدة من التنويعات التى تحدث مصادفة، وكلها تطورت عن قلة من الكائنات العضوية ذوات الخلية الواحدة، وعن طريق التنافس ("البقاء للأصلح") يمكن أن ينتج عن الحيوان الجد نفسه طائر بجناحين وثعبان طيار وحشرة متعددة الأرجل وإنسان. وفى ضوء معارفنا الحالية بظواهر تحولات العناصر والتحولات البيولوجية التى تحدث تحت شروط بالغة الشدة؛ حرارية أو إشعاعية، فإننا لا نعود بحاجة لفكرة أن التنافس الأبدى من أجل أسباب البقاء قد أنبت الأجنحة للكائنات الأرضية، وجعل كل ما هو على الأرض والهواء والماء قد تطور عن جد واحد مشترك. ولكن أياً كانت أسباب التطور - زمن داروين لم يكن ممكناً له أن يعرف ظاهرة تحول العناصر - فإن ثمة ظاهرة كانت معروفة له هى ظاهرة الدمار الكامل الذى حاق بأنواع وأجناس متعددة، ولم يكن بوسعه تجاهلها أو الصمت عنها فى "أصل الأنواع"، كتب: "انقراض الأنواع يدخل فى أكثر المسائل غموضاً من حيث أسبابه.. ولم يكن أحد ليندهش قدر ما اندهشت لظاهرة انقراض الأنواع.."، لكنه حتى هنا لجأ إلى اختيار تفسير يتمثل فى "إن فترات بالغة الطول من الزمن تفصل بين تكويناتنا (الچيولوچية) المتتابعة، وخلال هذه الفترات كان يمكن أن يحدث كثير من أشكال الانقراض البطىء.." (٢٦).

هذا التفسير الذى يفترض وجود ثغرات أو فجوات فى التاريخ الچيولوچى، وبدونه يمكن إيجاد أدلة على الانقراض التدريجى للأنواع "غير الصالحة"، لا يساعد على شرح تلك المجازر الجماعية للحيوانات التى تمت ملاحظتها، ليس فقط من الأنواع المنقرضة، بل فى زحام صاخب مع أشكال ماتزال على قيد الحياة، خضعت، بدورها، لنفس الدورة فى الطبيعة. وكان واضحاً أن هذه البقايا كُوِّمت معاً فى أعمال مفردة من الطبيعة دون ثغرة چيولوچية تفصل بينها. وكانت أكوام الحيوانات المنقرضة فى جنوب أمريكا وفى كل مكان من العالم أمراً معروفاً على نطاق واسع فى زمن داروين، وقد أعلن ألفريد راسل والاس، فى زمن داروين نفسه، نظريته فى الانتقاء الطبيعى، وعلى نحومرتبك جذب اهتمام دنيا العلم إلى تلال "سيواليك" تحت أقدام "الهملايا"، حيث تمتد لمساحة عدة مئات من الأميال أكوام من عظام الحيوانات.

قد نستطيع أن نضع إطاراً من الفروض حول ما لم نره، مثل افتراض الثغرات أو الفجوات الچيولوچية، وهو أساس "أصل الأنواع" كله، أما بالنسبة لما "نرى" بالفعل، وهو الدليل على وجود كوارث كونية كبرى، فليس تفسيراً أن نفترض وجود تاريخ چيولوچى ناقص أو معيب.

ترى الكنيسة المسيحية أن الحيوانات بلا أرواح، وأن ثمة هوة لا يمكن جسرها بين المملكة الإنسانية والمملكة الحيوانية. وحين هدم داروين الإحساس بالانفصام المطلق بين الإنسان والحيوان، فقد وضع أساس هدم الاعتقاد بأن للروح وجوداً مستقلاً يمكن أن يوجد دون الجسد، هكذا أفرغ داروين كبرياء الإنسان لأصله وتفرده. ولكن هناك جانباً آخر فى نظرية داروين، بدونه كان العداء لتعاليمه سيصبح أكثر ضراوة وأطول زمناً، ذلك هو الإحساس بالأمن إزاء

التاريخ الآمن لكوكبنا، مثوى الإنسان، لم تكن فيه انقطاعات كارثية فى الماضى. ولن تكون فى المستقبل. من أجل هذا الاطمئنان كان الإنسان مستعداً للتخلى عن فكرة تفرده والموافقة على أن يُعْتبر جزءاً من المملكة الحيوانية، وهذا لا يتطلب منه التخلى عن منزلته باعتباره الأول، وباعتباره حراً فى استغلال - بل واستهلاك - أى من إخوانه الحيوانات، بصرف النظر عن الموقع الذى تشغله فى سلم التطور، لم يكن بحاجة للحصول على حق امتياز على الخيل وسواها من الثدييات العليا، فقد كانت إناثه هو نفسه لم يحصلن بعد على حق التصويت. وبدا الأمر أشبه بالإحساس بأن قائمة النسب التى كان يعتبرها أصيلة لم تكن كذلك، والنبل المفترض لم يكن مبنياً على المكانة السامية التى كانت للأسلاف، لم تكن ثمة دماء زرقاء تجرى فى عروق الثدييات العليا، هذه الخسارة أثارت السؤال الساخر الذى وجهه الأسقف صامويل ولبرفورس إلى توماس هكسلى خلال مواجهتهما الشهيرة: "عن طريق جدك أم جدتك تزعم بأنك انحدرت عن قرد؟..".

هكذا أتيحت للإنسان فرصة أن يبادل أصله شبه الإلهى بضمان الأمان فى مثواه. كان داروين يعرف هذه التضحية (بأشياء صغيرة) التى يطلبها مقابل ضمان أمن النفس الذى يقدمه. ومن يهتم بالماضى إذا كان المستقبل هو موضوع الرهان؟ لقد أوضح داروين الأمر تماماً فى الصفحة الختامية من "أصل الأنواع": "وحيث إن كل الأشكال التى هى على قيد الحياة الآن هى السلالات المباشرة لتلك التى عاشت قبل العصر "الكمبرى" بكثير، فإن بوسعنا التأكيد بأن التتابع الطبيعى للأجيال لم يتعرض للانقطاع مرة واحدة، وأنه لم يحدث أن أصابت الأرض كارثة أودت بكل صور الحياة فيها، إذن، فإن من حقنا أن نتطلع للأمام بقدر من الثقة فى

أننا سننعم بمستقبل آمن لزمن طويل..".

وأنهى داروين كتابه "أصل الأنواع" بالكلمات التالية: " ثمة جلال فى هذه الرؤية للحياة، بقواها وعناصرها المتعددة، نفثها الخالق فى شكل واحد أو عدة أشكال، على حين مضى كوكبنا يدور حسب قانون الجاذبية الثابت، من هذه البداية البسيطة وجدت أشكال لا حصر لها، أكثر جمالاً وروعة، ومازالت موجودة، ومتطورة..".

استقرت الحبكة إذن، ويمكن لدراما كل واحد ضد أى واحد آخر أن تستمر، دون خشية من انهيار خشبة المسرح كلها. وبالنسبة للإنسان على قمة السلم، فقد كان هذا أشبه برخصة شاملة له باستغلال الأقل تطوراً، سواء كانت له روح أو لم تكن، وبالنسبة للإنسان فإن معركته من أجل البقاء على قيد الحياة فى المملكة الحيوانية أصبحت ليست أكثر من رياضة يمارسها. وعلى أية حال، فإن ما أدى إليه هذا كله هو انتصار دام مائة عام للداروينية على فهم الإنسان الخبئ لنفسه من حيث إنه نسل الذين بقوا على قيد الحياة بعد كوارث لها قوى تدمير لا يمكن تصورها.

التطور الطبيعى والثورة.

ظهر كتاب داروين "أصل الأنواع عن طريق الانتقاء الطبيعى" فى نوفمبر من عام ١٨٥٩، وحقق نجاحاً من الفور، فى نفس يوم صدوره تم بيع نسخ الطبعة كلها البالغة ١٢٥٠ نسخة.

فى كتب تاريخ العلم، وبوجه أخص فى الكتب عن داروين، نقرأ دائماً عن المعارضة المريرة التى أثارها الكتاب، وهذه مقولة بحاجة للتقويم. صحيح أن أصحاب الأسماء الكبيرة فى العلم فى ذلك الحين مثل لويس أجاسيز، العالم فى الأسماك، وعالم النبات آسا جراى،

وسواهما، عبروا عن تحفظات قوية على أفكار داروين، لكنهم فعلوا هذا ليس دون احترام، وعلى أسس علمية خالصة. أشار أجاسيز إلى أن فحص بقايا الهياكل العظمية لعدد من أنواع الأسماك القديمة أو البائدة قد أثبت وجود تقدم أفضل على طريق التطور وقدرات أكثر على التكيف، فى صراعها من أجل البقاء، بأكثر مما هو موجود لدى الأنواع التالية من الأسماك، وبالتالى فإن مبدأ "البقاء للأصلح" لا يسرى هنا. لكن جوقة الأكاديميين المناصرين لداروين كان صوتهم أعلى، وسرعان ما تحول المشهد فى الدوائر الثقافية نحو المسارعة للحاق بالفريق الفائز فى المباراة. رأس الحربة فى هذه الحركة تمثل فى توماس هكسلى من انجلترا وارنست هاكل من ألمانيا، وأبقى داروين نفسه فى الخطوط الخلفية، لكنه كان يقوم أحياناً بتحريض مقاتليه فى الصفوف الأمامية لتدمير خصم علمى، غالباً من رجال الدين، وذلك بالالتفاف حول الحجج العلمية ومهاجمة الناقد على المستوى الشخصى، على غرار ما حدث مع الراهب الفرنسى سان چورچ ميڤارت الذى قدم حججاً قوية ضد نظرية التطور والانتقاء الطبيعى. وفى مراسلاته أشار داروين إلى لامارك، الذى سبقه فى القول بالتطور، والذى كان قد مات منذ زمن طويل، بأنه مؤلف "ذلك الكتاب التافه"، كذلك فقد تجاهل داروين أعمال مؤسسى علم الچيولوچيا: سير رودريك مارشيسون، وليم باكلاند، آدم سيدڤيك، من أوائل القرن التاسع عشر، وهم الذين أطلقوا الأسماء التى مازالت مستخدمة حتى اليوم لمختلف العصور الچيولوچية: الكمبرى، البرمانى، الاردوازى، الطباشيرى... إلخ. كما أحاط بالصمت مؤسس علم حفريات الثدييات، وعلم الأسماك چورچ كوڤير. إن مؤسسى علم الأرض هؤلاء قدموا معطيات مستمرة تكشف أن أحداثاً كارثية على نطاق العالم كله قد قاطعت تدفق التاريخ الطبيعى على نحو

متكرر. إن داروين قد تبع تشارلس ليول، الذى كان محامياً بالتعليم، وقال بنظرية التماثل، لا كعالم ولكن كمحام، كان كتابه هو ما قرأه داروين وهو فى رحلته على ظهر السفينة "بيجل"، وهو يعترف بأن هذا الكتاب كان إنجيله الخاص.

من الواضح أن داروين كانت لديه رغبة سيكولوچية فى أن يغمض عينيه عن الدليل المعاكس، ولكن كانت ثمة رغبة مماثلة لدى كلا المجتمعين: العلمى والعلمانى للتخلص من نظرية الثورة الطبيعية بتبنى نظرية التطور الطبيعى. وإن المرء ليعجب لدرجة الحدة التى أبداها العلماء فى قبولهم نظرية داروين، فلم تستخدم أية حجة من الحجج التى كان يمكن استخدامها ضده من جانب معارضيه. وفى يومياته المنشورة عن رحلاته فى أمريكا الجنوبية، على سبيل المثال، ثمة عدد من المداخل تشير لوجود انقطاع كارثى لتدفق الصراع من أجل البقاء بين أشكال الحياة. لم يكن فيها، فقط، هذا النص الذى سبق اقتباسه عن ضرورة فحص إطار الأرض كلها من أجل تفسير الانقراض الجماعى والمفاجئ لعديد من الأنواع الحيوانية، بل فيها أيضاً الدليل المتمثل فى ارتفاع ساحل شيلى لأكثر من ألف قدم فى فترة أقصر من أن تتيح انقراض القواقع البحرية، والتعديات المتكررة من المحيط على طول ساحل البرازيل حتى تلال سفح الأنديز. لكنه، على الرغم من عدم قيامه بإجراء أبحاث ميدانية جديدة بين تسجيله هذه الملاحظات وكتابته "أصل الأنواع"، إلا أنه عارض - فى هذا الأخير - فكرة التغيرات الكارثية لمحيطات الأرض والبحر، كما عارض كذلك فكرة حدوث انقلابات قارية، أقل كثيراً من أن تكون عالمية. ولم يثر أى من معارضيه هذه التناقضات بين الملاحظات التى سجلها فى يومياته، والأفكار التى كتبها فى كتابه الرئيسى. كذلك لم يرتفع ضده القول بأنه لا يشغل مكاناً أكاديمياً فى جامعة من الجامعات، أو أن درجته العلمية لم تكن

سوى بكالوريوس فى اللاهوت، أو أنه قد استبعد كل الهوامش التى تحدد مصادره، ومن ثم يستحيل على القارئ اختبار المادة التى يقدمها - كل هذه المآخذ لم يشر إليها أى من نقاده. هذا إضافة لعدم اهتمامه بالنتائج الصلبة التى توصلت إليها العلوم التى كانت شابة جداً فى زمانه وهى علوم الحفريات والچيولوچيا، وفشل داروين، هو وبطانته من الشمامسة، فى معرفة شىء عن عمل معاصره چورج مندل الذى أثبت صحة القوانين الأساسية للوراثة، ووضع أساس علم الچينات الحديث.

كان داروين روح العصر الڤيكتورى: نظرية تطورية تزعم أنها ثورة وهى ليست كذلك. وأصبح داروين هو المرجع الأعلى، رمزاً لحل جميع المسائل، وبديلاً عن الخالق ذاته الذى أصبح متهماً بأنه غير جدير بالثقة؛ فالكتب الموسوية التى أوحى بها، وكذلك قصة الخلق، ثبت أنها جميعاً زائفة!

إن نجاح داروين، والقبول السريع لنظريته من جانب الأكاديميين، وتسرب هذه النظرية إلى كل الشئون الروحية والمادية، على طول المائة سنة الأخيرة، إنما يرجع لتأكيده أن إطار الأرض لم يتعرض أبداً لأى اهتزاز.

سوء الفهم عند ماركس.

يذكر چاك بارزون كيف أن ماركس "رغب فى أن يهدى جزءاً من "رأس المال" إلى مؤلف "أصل الأنواع"، لكن داروين رفض هذا الشرف..". (٢٧) فى عرضه إهداء داروين جزءاً من "رأس المال" - صيحة المعركة لتحرير "غير الملائمين" من استغلال "الملائمين" - كان ماركس يصدر عن فكر يعوزه الوضوح، وحين رفض داروين هذا العرض كان هو الأكثر منطقية بين الرجلين.

إن تعاليم داروين تكرس - بمعنى ما - استغلال الأقل "ملاءمة" أو "صلاحية" من جانب "الأكثر ملاءمة"؛ أى استغلال هؤلاء الأقل قدرة على التوافق مع شروط الزمن وفرصه المتاحة. وقد شهدت الثورة الصناعية - التى كانت تتشكل فى العصر الڤيكتورى - المغامر الجسور، ولكن أيضاً عديم الضمير والخلق، يحصل على ميزات الفقير، معدوم المصادر، الجاهل، الذى لا تتوفر له الحماية؛ أى باختصار "غير الملائم"، وكان الاستغلال واضحاً فى ساعات العمل الممتدة من الفجر إلى الليل، وفى عمالة الأطفال مقابل أجور زهيدة، وفى المصانع التى لا تتوفر لها الشروط الصحية، وفى المناجم المحفوفة بالخطر. وكان المستغل يهتم ببقاء الحيوان الإنسانى على قيد الحياة أقل مما يهتم بحيوان الحقل، فقد كان هذا الأخير ملكية خالصة للمالك، أما الحيوان الإنسانى فما أسهل استبداله دون أن يتكبد المستغل أية خسارة.

لقد راقب ماركس ودرس العلاقات الصناعية، وخرج ضد فكرة الملاءمة، وكانت الجزر البريطانية، التى فقدت مستعمراتها الأمريكية نهاية القرن السابق، تتهيأ الآن، على عهد ڤيكتوريا، كى تتوسع وتصبح القوة الاستعمارية السائدة فى العالم، وتم استبعاد سود إفريقيا، وداكنى السمرة من الأراضى الواقعة على المحيط الهندى، وألوان عديدة أخرى، من حيث إنهم جميعاً شعوب مستعمرات. ورغم أن التوسع الاستعمارى البريطانى يعود تاريخه إلى القرن السادس عشر، إلا أنه لم يبلغ هذا المدى من الهول ودرجة الاغتصاب الذى بلغه على أيام ڤيكتوريا، ولم يكن مجلس العموم، ولا مجلس اللوردات، ولا رئيس الوزراء، على عجلة من أمرهم فى إصدار تشريعات لحماية أولئك الذين يقع عليهم الاستغلال فى الداخل أو الخارج. كانت بريطانيا العظمى سيدة البحار، وكانت الملكة تتهيأ كى تكون إمبراطورة.

كان ماركس ما يقول عنه الألمان "Luft mensch": أى متبطلاً أو معدماً. لم تكن له وظيفة ثابتة، ولا كانت لديه وسائل دائمة للعيش، ولد فى ألمانيا، وهاجر إلى فرنسا، ثم إلى لندن. وكان الرجل صاحب الجبهة العريضة والعرف الذى يشبه عرف الأسد يصعد كل يوم سلالم المكتبة فى المتحف البريطانى فى راسل سكوير. ومات الأبناء الذين وُلدوا له فى لندن، واحداً بعد الآخر، نتيجة سوء التغذية وبؤس الرعاية الصحية، وذات يوم أنزل أثاثه إلى الشارع الجانبى لأنه لم يدفع إيجار المسكن، لكنه ظل على عناده، يواصل النضال من أجل المسحوقين، "غير الملائمين"، وكان يمكن لماركس أن ينتقى شعاره من بين أقوال كثيرة للأنبياء العبرانيين الذين كانوا - دون فائدة العمل وإحصاءات التمويل - يرفعون نفس المطلب الاجتماعى: "ويح لأولئك الذين يجمعون البيت إلى البيت، ويضمون الحقل إلى الحقل، حتى لا يعود هناك مكان، فى يوم من الأيام سيتركون وسط الأرض وحدهم.." (إشعيا ٥: ٨). كان الأنبياء متمردين على العرش والأغنياء والمستغلين.

بل إن ماركس يبدو، كما نتخيل، واحداً من أنبياء العهد القديم، رغم ربطة العنق وطية السترة الرسمية، لكنه أنكر كل الروابط بالأنبياء القدامى. كان نبيه مادياً فاهماً للتاريخ، بل إنه، حتى، طرح عنه أصله اليهودى، وكان فى السادسة قد تم تعميده، وأحد أعماله الأولى بعد تحوله للشيوعية كان ضد اليهود!

كان المطلِق الحديث لفكرة الشيوعية هو موسيس هيس: ولد فى ألمانيا، ويقيم ويكتب فى فرنسا، وفى ١٨٤٠ جاء إليه الشاب فريدريك أنجلز، وفى العام التالى قام أنجلز بتقديم ماركس لأفكار هيس، وبعدها بعدة سنوات كتبوا "البيان الشيوعى" وبدأت الحركة. على أية حال، سرعان ما أحس هيس بأن هذه الحركة الجديدة لابد من إنها ستؤدى يوماً إلى الكراهية والعنف، وفى استباق له

طابع النبوءة لمعسكرات العمل التى أقامها ستالين فى سيبيريا، وإخضاع بلدان أوروبا الشرقية، كتب إلى اللاجئ الفوضوى الكسندر هرزن:

"أنت تعرف أننى لا أنكر إمكان مثل هذا الموت الذى لا بعث بعده، وهذا انتصار حاسم للبربرية والوحشية، إننى، فقط، أرى أن الغزو والبربرية والرجعية هى مرتبطة معاً برباط لا ينفصم، بحيث إن أحدها لابد من أن يؤدى لبقيتها، ولكى تنقذ (فكرتك عن غزو سلافى، فإن الشيء الوحيد أمامك هو تحويل الاشتراكية عما فعلته إلى فكرة سالبة - مثل الفوضوية فى المحيط السياسى، والإلحاد فى المحيط الدينى، إلى فكرة إيجابية.." (٢٨).

وفى سنة ١٨٦٢ كتب هيس كتابه "روما وأورشليم" الذى يعبر عن ضمير قومى يقظ، لقد استبق رؤية تلك الموجة العارمة من معاداة السامية التى ستجتاح فرنسا مع قضية دريفوس، وتفهم مشكلة اليهود فى مختلف البلدان على نحو أكثر نفاذاً مما فعل تيودور هرزل فى الجيل التالى. كان هرزل يفكر، أولاً، فى أن خلاص العنصر فى التمثل والذوبان، لكنه، أيام محاكمة دريفوس كتب "الدولة اليهودية"، ولم يكن قد حدد، بعد، أين ستقوم هذه الدولة؟

ماركس، مايزال معتمداً على داروين مثلما اعتمد داروين على نيوتن، غيَّر التاريخ الإنسانى، رغم ذلك فإنه لم يدرك، لا هو ولا تابعوه، أنه فى ضوء المادية التاريخية، وفى صخب الثورة السياسية، فإنه، هو وهم، يضاهون الثورة الطبيعية لا التطور الطبيعى. إن تجاوزات الثورة، وحملات ستالين التالية للتطهير، قد بخست قدر الإنسان، حرمته من حقوقه الطبيعية فى حرية الفكر والتعبير وتغيير الموطن، وجعلته عبداً ذليلاً. إن بضعة المئات الذين قطعت رءوسهم فى قصر الكونكورد فى باريس أيام

الثورة الفرنسية، قد تبعهم، خلال قرن ونصف القرن، ملايين تعرضوا لمحاكمات هازلة وللسجن والتعذيب والقتل وماركس يرقبهم من صورته دائمة الحضور.

إن أسس الصرح الماركسى قد وضعها صاحبه بحيث لم تبلغ الطبقة الصخرية الصلبة، ومن ثم فإن الصرح مهدد بالاضطراب وربما الانهيار.

وعقيدة الملاءمة التى ينتظرها القانون الطبيعى، غالباً ما تضطر "الملائم" لأن يحيا على حساب "غير الملائم"، وقد تطورت فى المرحلة التالية إلى تعاليم نيتشه حول "السوبرمان" الذى يُسمح له بكل شىء، وأساس الفلسفة الهتلرية فى الجيل التالى تم إعداده: من "الملاءمة"، ثم "السوبرمان" انبثق مفهوم العنصر السيد. استدعت نحاسيات ڤاجنر ذكريات غرف الشهداء فى ميثولوچيا الشمال، وعنف السيف والنار فى تدريبات بسمارك العسكرية، ومن ثم جاء "الاندفاع نحو الشرق"، وفى النهاية لاقت هذه الجيوش، التى اندفعت نحو الشرق بخطوات الأوزة، مصيرها المحتوم حين اصطدمت بالنتاج النهائى الآخر لأيديولوچية القرن التاسع عشر.

شكلان من أشكال الخوف

قبل اندلاع الحرب العالمية الثانية بأسابيع قليلة، حين كانت التوقيعات توضع على وثيقة تطلق اندفاع الجيوش النازية نحو الشرق والغرب، كنت مع عائلتى فى طريقى إلى شواطئ العالم الجديد. وخلال سنوات الحرب، عاجزاً عن تغيير أى شىء فى المشهد العالمى، قضيت أيامى فى القراءة والبحث والتفكير والكتابة.

كنت أجلس تحت أقدام حكماء عديد من الحضارات القديمة، يوماً مع المخطوطات المصرية المعروفة، ويوماً مع الأحبار العبرانيين،

ويوماً مع الهندوس أو الصينيين أو الفيثاغوريين، ثم أنهض على قدمي لأنهل من المعرفة العلمية الحديثة. أحياناً كنت أفهم ما حير القدماء، وأحياناً أخرى أجد إجابات لما يحير المعاصرين. هذه المراوحة بين الوراء والأمام ظلت هي انشغالي اليومي لعقد من السنين أو أكثر، ثم أصبحت طريقة لفهم الظواهر: الإصغاء إلى أولئك الذين عاشوا قريبين من الأحداث في الماضي، حتى إلى الشهود، ثم محاولة فهمهم في ضوء المعرفة النظرية والتجريبية للقرون القليلة الماضية. هكذا أضع الشهود في مواجهة الخبراء.

وسرعان ما أيقنت أن الحكماء القدامى عاشوا في حالة من الرعب العقلي، كان مبررها الأحداث التي شهدوها أو شهدها أسلافهم القريبون. أما المحدثون فلديهم - لسوء الحظ - إيمان راسخ بعقيدة التماثلية، وهو افتراض يرتفع إلى مستوى القانون الأساسي، يعتمد على مقولة أنه لم تكن هنا، أبداً، أحداث كارثية أسهمت في تشكيل العالم والحياة فيه. وكان على أن أضع في اعتباري دائماً نقطتي ضعف: الخوف الذي يرجع بأصوله غالباً إلى عبادة آلهة الكواكب، والحروب الدينية، والخرافات، ثم الخوف الذي جعل الإنسان الحديث مؤمناً عظيم الإيمان بالتماثلية: لا شيء يمكن أن يكون قد حدث في الماضي، ولم يحدث أمام عيوننا، في أيامنا، أو فلنقل منذ أيام إيزاك نيوتن.

لهذين الشكلين من الخوف مصدر مشترك، لكن المتأخرين ينكرون حكمة أسلافهم، حتى استقامتهم وتكاملهم، وهو أن رسالة القدماء كانت جهداً يشوبه القلق للتواصل مع الخوف الذي فجرته رؤية الطبيعة وعناصرها في حالة انطلاق تام، والإيمان بدوجما التماثلية هو عرض من أعراض خوف شامل من مواجهة الماضي، حتى التجارب الموثقة تاريخياً والتي خبرها أجدادنا منذ أربعة أجيال سلفت.

اختيار

أصبح مضمون "عوالم فى تصادم" معروفاً نتيجة عرض موجز قدمه الكاتب إريك لارابى، ونشر فى "هاربر مجازين" عدد يناير ١٩٥٠، ثم نشرت "نيو ريببلك" فى مارس ١٩٥٠ المقال التالى بعنوان "اختيار واضح"، بقلم هارولد إيكس، الذى عمل وزيراً للداخلية مع فرانكلين روزفلت:

"كنا منزعجين، لفكرة أن تقوم روسيا بقذف قنبلة على واشنطن أو نيويورك. أما الآن فإن بوسعنا أن ننصرف للتفكير فى شأن آخر.

فقد أثار دكتور ايمانويل فليكوفسكى، أحد مؤسسى جامعة أورشليم - خوفاً يتجاوز أى خيال، حتى يصبح باستطاعتنا التخلص من تلك المخاوف التافهة المتعلقة بقنبلة ذرية أو هيدروچينية.. وهو يقتبس عن نصوص قديمة وعن أساطير كى يثبت هذا، فى الحرب التى دارت بين كوكبى الزهرة والأرض، عانت الأرض من الحرارة الرهيبة التى انبعثت.. إن ذات عنوان الدكتور فليكوفسكى "عوالم فى تصادم"، الذى سينشر قريباً، كان ليستثير فينا مخاوف تتعلق (إذا جاء طرف آخر مقابل) بأن كلاً من الزهرة والأرض سيكون هباءً فى يدى قوى كونية لا سيطرة لأحد عليها.

فى هذه الشروط، فإنه يكاد يبدو أمراً طفولياً أن تستمر روسيا والولايات المتحدة فى سباقهما بالنسبة للأسلحة التى ستنصهر وتتحول إلى معادن مذابة قبل أن يتوهج كوكب الزهرة الداعى للحب. وقد حدث أن تحول الأعداء إلى أصدقاء بصورة تلقائية إذا بدا خطر راهن يهدد كليهما.. وربما دون أن يعرف ماذا يفعل، قدم الدكتور فليكوفسكى هدية ثمينة لكل منا.. فقد أعطانا

شيئاً نفكر فيه، بل نصلى من أجله.. وربما سيكون لدينا من الإحساس ما يكفى كى نضع رءوسنا على أيدينا ونقوم بشىء من التفكير الجاد حول السلام العالمى والدائم.

...ثمة بداية طازجة، لا ترتبط بأى شىء يكون قد حدث فى نطاق خبرة الأجيال الحديثة، تقود إلى تحقيق إنجاز ليس بعيداً عن متناول الرجال ذوى الخيال والجسارة.. أن نعيش فى سلام ورفقة طيبة مع جيراننا..".

كانت المقالة مكتوبة على أنها للتسرية والترفيه، وفيها خلط "العجوز سريع الغضب"، كما كان إيكس يسمى، أفكاراً جادة ووصفاً لعوباً لما كان الإغريق يطلقون عليه "حرب الآلهة"، غير أن الجانب الجاد من مقالة إيكس كان أكثر تجهماً من أن يفهم باعتباره إحساساً له طبيعة ملحة، وبالتالى استقبلت المقالة باعتبارها نزوة أكثر منها تحذيراً يجعلنا - بالفعل - "نضع رءوسنا بين أيدينا..".

إن الاستجابة الانفعالية، غير العقلانية، "لعوالم فى تصادم" لدى أناس كثيرين، خاصة بين العلماء، بدت لى، على وجه اليقين، نتيجة خوف خبئ من معرفة أحداث الماضى، أكثر منها كراهية لتحدى الأفكار السائدة فى العلم. (٢٩)

"انحطاط العلم والدين.."

إن ردة الفعل على الجهود التى تبذل لإخراج المادة المكبوتة إلى سطح الشعور، والتى تناضل كى تبقى مكبوتة، يمكن أن تتسم بالعنف وأن تؤدى إلى انبثاق الكراهية، والشخص الذى يعين شخصاً آخر على إخراج ما هو مكبوت، قد يتهم، هو نفسه، بأنه يثير الكراهية والنفور. والعداء للعملية العلاجية يمكن أن تعزو للمعالج دوافع شريرة، هى ذاتها موجودة لدى الخاضع للتحليل تحت

قناع كاذب من العقلانية الواعية. وثمة حالة تصور ردة الفعل هذه، هى حالة الراحل ج. ب. س. هولدين بعد قراءة "عوالم فى تصادم".

كان هولدين عالماً بريطانياً فى الوراثة، لكنه كان يضع نفسه فى عباءة النبى، وحين نشر "عوالم فى تصادم" فى انجلترا كتب عرضاً له فى "ذى نيو ستيتمان آند نيشن" (١١ نوفمبر ١٩٥٠). والجهد الذى بذله من أجل تدمير "عوالم فى تصادم" تمكن مناقشته تحت عناوين متعددة. أما حججه العلمية فلسنا بحاجة لأن نشغل أنفسنا بها هنا، فقد تولى التقدم العلمى منذ ١٩٥٠ الرد عليها.

وبين تكنيكات أخرى، لجأ هولدين إلى تكنيك ربط الكتاب بالرعب الأعظم الذى عاشته الأمة البريطانية نتيجة الغارات بالقنابل أثناءالحرب العالمية الثانية. كتب:

"إننى أعتبر المبيعات الكبيرة التى حققها هذ الكتاب فى الولايات المتحدة باعتبارها أحد أعراض التحذير فى زماننا، والصحف التى أشادت به (انظر قائمة بها على الغلاف الورقى) هى تلك التى يمكن أن تدعو إلى استخدام بريطانيا كقاعدة للحرب الذرية. إن قسماً كبيراً من الشعب الأمريكى يحلم فى ضوء الكوارث الكونية، وفليكوفسكى سيشجعهم، يقيناً، على ذلك، حتى لو كان ذلك فقط لأنه يظن أن العالم يمكن أن يدمر تماماً نتيجة صدام كونى خلال آلاف قليلة من السنين، وهو أمر محتمل الحدوث لو أن تاريخه كان صحيحاً. في الحقيقة إن هذا الكتاب انحطاط للعلم والدين على قدم المساواة.." الصحف التى كانت مثبتة على الغلاف الورقى "لعوالم فى تصادم" كانت "النيويورك هيرالد تريبيون" ومجلة "نيس ويك"، ولم تكن أيهما فى صف الحرب الذرية، أو فى صف اتخاذ بريطانيا قاعدة لهذه الحرب. إن "عوالم فى تصادم" يصف الأحداث الطبيعية المرعبة التى حدثت فى الماضى، لكنه كان حريصاً كل الحرص على ألا يثير الخوف من تكرار

مثل هذه الأحداث فى المستقبل.

وقد اعتبرتُ نشر "عوالم فى تصادم" كتحذير ضد الحرب الذرية. إن الكارثة يمكن أن تأتى، لا نتيجة صدام كوكبى آخر، بل بما فعلت أيدى الإنسان نفسه، ضحية فقدان الذاكرة، الذى يملك السلاح النووى الحرارى. هذه هى الفقرة الختامية فى مقدمة "عوالم فى تصادم":

"إن السنوات التى انقضت فى كتابة "عوالم فى تصادم" و "عصور فى فوضى" كانت سنوات كارثة عالمية من صنع الإنسان، الحرب التى كانت معاركها تخاض على الأرض وفى البحر وفى الجو. أثناء ذلك الوقت، تعلم الإنسان كيف يفصل قلة قليلة من الآجر الذى بنى منه العالم: ذرة اليورانيوم. وإذا شاء يوماً أن يحل مشكلة انشطار وانصهار الذرات التى يتكون منها سطح الأرض والماء والهواء، فقد يستطيع - عن طريق المصادفة - أن يثير سلسلة من ردود الأفعال تأخذ هذا الكوكب بعيداً عن الصراع من أجل البقاء وسط أعضاء الغلاف السماوى..".

وألمح هولدين فى عرضه أيضاً لأن "عوالم فى تصادم" قد ترك عمداً بعض المؤشرات التى توحى بأن الكتاب قد وضعت خطته باعتباره خديعة، وأن هذا يمكن أن يؤدى لدمار العالم.

هذا العرض المليئ بشتى صور التفسيرات الخاطئة التى لا يمكن صدورها إلا عن ردة فعل غير عاقلة، تبعه رد مسرف فى التضليل، جاء رداً على تعقيبى فى "النيو ستيتسمان آند نيشن" فى ٣ فبراير ١٩٥١.

إن هولدين، عالم الأحياء والفيلسوف، أراد أن يصبح معروفا باعتباره الضمير المتجسد للدوائر العلمية والفلسفية، وكان يعتقد أن انجلترا، موطنه الأصلى، هى دون أية معايير أخلاقية، على نحو يستحيل إصلاحه، وقرب نهاية حياته، انجذب انجذاباً غير معقول

نحو العوالم الخفية، فرحل إلى الهند، حيث مات هناك.

كان غضب هولدين صادراً عن حساسيته، والتى كانت دوافعها مرتبطة - إلى حد كبير - بذكرياته العنصرية الموروثة، فى حين كان هو نفسه يعتقد فى صحة قضيته. لقد أحس بالحاجة إلى مطاردة الأرواح الشريرة التى تملكته، فلم يطارد غير كتابى، جاء بمقولات تفتقد الشرف، لا يمكن فهمها إلا بأنها غير معقولة، وبالتالى فلا عذر له. وأخيراً، ذهب يبحث عن النيرفانا، فما وجد شيئاً.

ولا تختلف حالة ايوچين رابينويتش عن هذه اختلافاً كبيراً، هو المحرر السابق لنشرة "بوليتين أوف ذى أتوميك ساينتستس"، وهى صحيفة أنشئت للتكفير عن خطيئة العلماء الذين طعموا من شجرة المعرفة بخيرها وشرها، ثم بنوا القنبلة الذرية. وتبنى دكتور رابينويتش رسالة أن يصبح ضمير الجماعة العلمية، وكانت رؤية يوم الحساب تخايله دائماً. هو أيضاً أسقط خوفه من الكارثة الذرية على "عوالم فى تصادم". وفى ١٩٦٤، حين حدثت سلسلة من التأكيدات "غير المتوقعة" تجدد الاهتمام بالكتاب، قام بشن حمله ضده، وفي حين أن الأدلة المتراكمة كانت تتطلب العكس تماماً: الفحص الدقيق من جانب العلماء المتخصصين فى تلك المجالات، وقد استكتب صحفياً هو هـ مارجوليس عن موضوعات، كلاهما جاهل بها أشد الجهل (مثل فقه اللغة العبرية والمصرية) كى يبخس من قدر تناولى نصاً معيناً وجد فى العريش منقوشاً على حجر مقدس. (٣٠)

هذه الأمثلة، والتى من الممكن مضاعفتها، توثق لإسقاط الخوف من الكارثة الذرية، لا على مصدره المتمثل فى ميراثنا العقلى، بل على "كشف" هذا المصدر. وتلك استجابة سالبة، هى - حسب

تسميات فرويد - مزيج من عدم الرغبة فى الوعى بالمصادر الخبيئة، وردة الفعل الانفعالية ضد ما يمكن أن يجلب الوعى بسبب اضطرابنا العقلى.

قبة سماوية

إن مثال داروين، ضحية فقدان الذاكرة فيما يتعلق بتجارب عمله الميدانى، ليس مثالاً منفرداً، إن له تقريباً طبيعة القاعدة. فنفى الخبرات المفزعة، أو كبت الأفكار المخيفة التى توحى بها الملاحظة، من الأمور التى نشهدها المرة بعد المرة. وأى واحد فينا يصيبه - بالمصادفة - حظ عاثر أقوى من أن يستطيع أن يحيا وهو فى ذاكرته الواعية، فهو أميل لإنكار الخبرة أو إساءة تفسيرها.

ومن بين الحالات الكثيرة التى يمكن أن أعرض لها، سأنتقى حالة لورين ايزيلى: انثروبولوچى ومؤرخ للعلوم، ووقت كتابته هذا الكتاب الذى أقتبس عنه، كان يشغل منصباً مهماً فى جامعة پنسلڤانيا.

فى ١٩٦٠ نشر كتابه "سماء العصر"، وفى الصفحة الأولى منه نقرأ:

"انقضت، بالكاد، مائتا سنة منذ بدأ بعض الرواد اليقظين فى التشكك بأن عمر الأرض قد يزيد عن ٤٠٠٤ سنة قبل الميلاد، وهو ما يحدده رجال اللاهوت. وعلى أية حال، فإن صدور كتاب فليكوفسكى "عوالم فى تصادم" قبل بضع سنوات، كان إعلاناً قوياً بأنه بعد مرور قرنين من البحث العلمى، فإن الإنسان بين الجماهير مازال يميل ميلاً قوياً نحو إغراء الأحداث الكارثية، حتى لو لم تكن مدعومة من وجهة النظر العلمية. لقد قدم إلى جيلنا الحديث، الذى ضجر طويلاً من التراكم الضئيل للحقيقة العلمية، العنف

والكارثية فى أحداث العالم التى أثرت فى آبائنا الأقدمين..".

كتاب ايزيلى قد كتب ليواجه إعادة انبعاث هذا التصور المستبعد عن الانقطاع الكارثى فى التاريخ، وهو ما كان يقول به مؤسسو علوم الچيولوچيا والحفريات أوائل القرن التاسع عشر، غير أن هؤلاء، مرشيسون، وسيدفيك وبكلاند، لم يكونوا من المؤمنين بفكرة أن الخلق قد حدث فى العام ٤٠٠٤ قبل التاريخ الحالى، كانوا بالفعل قد عرّفوا وأطلقوا الأسماء على الصخور السيلورية والديفونية والبرمانية، ومن ثم صنفوا العصور وفقاً لها؛ أى الأقسام الكبرى فى التتابع الچيولوچى السابق على نشوء الإنسان.

فى كتابى "الأرض فى اضطراب" اقتبست عن عديد من المؤلفين الذين وصفوا هذا الدمار الكارثى الغامض والذى لاشك فى حدوثه لعديد من الأنواع الحيوانية نهاية العصر البلوستسينى أو العصر الجليدى وبداية العصر الحجرى الحديث. وقد اقتبست عن بحث نشره ايزيلى فى ١٩٤٣ حين كان فى جامعة كنساس، اقتبست ما ذكره مراقباً للمشهد المثير للفزع والمنتشر فوق كل أرجاء ألاسكا:

".. فى مناطق معينة من ألاسكا تبدو عظام تلك الحيوانات المنقرضة متناثرة على نحو يقطع بأن يد الإنسان لم تتدخل على أى نحو، فرغم أن الإنسان كان موجوداً فى مشهد الهلاك الأخير، إلا أنه لم يكن من فعله، لم تكن لديه الرغبة ولا القدرة لارتكاب مثل هذه المجزرة الهائلة..".

ونظراً للانقراض السريع والشامل لأنواع الحيوان، فقد لاحظ ايزيلى: "يبدو من المستحيل أن ننسب هذه الظاهرة إلى جهود الإنسان وحده..". (٣١) فى هذه المذبحة الرهيبة تتناثر آلاف الحيوانات، ممزقة إلى أشلاء، عبر عشرات الأميال، مختلطة بشظايا الأشجار. لم يكن هذا سراباً ولا خيالاً، فقد وصفه علماء آخرون

كذلك. كانت أشلاء الحيوانات من كل الأنواع، من تلك التى انقرضت وهذه التى ما تزال موجودة على قدم سواء. الظاهرة نفسها تتكرر فى أماكن عديدة من قارتى أمريكا، الشمالية والجنوبية. كتب ايزيلى:

"إننا لا نتعامل مع ظاهرة مفردة ومعزولة تتعلق ببقايا هذه الأنواع، بل مع تنوع معتبر من الأشكال البليوستينية، لابد أن تتوافق جميعها، حسب الدليل الثقافى، فى تواريخ انقراضها..". (٣٢)

وفى "الأرض فى اضطراب" اقتبست عن عديد من المؤلفين من نفس المدرسة فى التفكير مثل ايزيلى، وتأكيدهم الواضح بحدوث أحداث كارثية على مستوى القارات، بل على مستوى العالم كله: "فى نفس الوقت تقريباً نشهد انقراضاً مماثلاً للحيوانات الثديية فى إفريقيا وآسيا..". (٣٣) هكذا وصفت هذا الاتفاق فى الرأى حول ذلك الانقراض الكبير:

"ويعتقد بأن هذه الأنواع قد دمرت تماماً، حتى آخرها، مع نهاية العصر الجليدى. حيوانات قوية ومفعمة بالحياة ماتت فجأة دون أن تترك منها أحداً. جاءت النهاية، لا فى سياق النضال من أجل البقاء، والذى يكون فيه البقاء للأصلح. الصالح وغير الصالح، والصالح هو الأغلب، العجوز والشاب، بأسنان حادة، وعضلات قوية، وأرجل سريعة الحركة، وكميات كبيرة من الطعام حولها، كلها قد فنيت..". (٣٤)

كتب ايزيلى فى هذا السياق إن تلك الحقائق:

".. تدفع عالم الأحياء إلى اليأس وهو يقوم بمسح تلك الأنواع والعناصر العديدة التى انقرضت مع نهاية العصر الجليدى..". (٣٥)

ومرة ثانية:

"يبدو أمراً غريباً أن تظل هذه الحيوانات على قيد الحياة أثناء

الحركة الجليدية العظمى، وأن تموت فى نهايتها، لكن ما حدث أنها ماتت..". (٣٦)

وقد اعترف بأنه لا يعرف سبب هذا الانقراض، لكنه وصفه بتعبيرات كارثية. كل ما استطاع أن يقوله هو أن ثمة تغيرات چيولوچية ومناخية قد حدثت فى ذات الوقت الذى دمرت فيه الحيوانات، فى بعض الأماكن فنيت كلها، وفى أماكن أخرى فنى القسم الأعظم منها.

وتحول "اليأس" عند العالم إلى إنكار الكوارث، وهى مسألة سيكولوچية شائقة تتوافر الأدلة على صحتها. الكسيس كاريل: عالم أحياء كان أكثر اهتماماً بعلم النفس، كتب فى كتابه "الإنسان.. ذلك المجهول" عن ظاهرة الإنكار أو النفى عند العلماء، والأسئلة التى لا يعرفون أجوبة لها:

"بعض المسائل تطرد خارج مجال البحث العلمى، ولا تمنح الحق فى أن تكون معروفة، وحقائق مهمة يمكن أن تتعرض للتجاهل التام. فى عقولنا ميل طبيعى لنبذ الأشياء التى لا تتلاءم مع إطار المعتقدات العلمية والفلسفية فى زماننا، وبعد كل شىء، فالعلماء ليسوا سوى بشر.. وهم يرحبون بأن يعتقدوا بأن الحقائق التى لا تستطيع النظريات السائدة أن تفسرها، لا وجود لها..".

وعودة إلى ايزيلى وكتابه "سماء العصر"، نقرأ:

"يمكن القول إن الكارثية، فى جوهرها، قد ماتت لدى الحس العام، وحسب تعليق مؤرخ حديث هو تشارلس جيليسبى: "إن تصور الصانع الألهى دائم العبث بمادته، دائماً ما لا يرضى عن أحد مخلوقاته من الصخور أو الحيوانات فيزيحه جانباً كى يحاول مرة أخرى، فهذا يعنى أننا نعزو له صفات إنسانية، بدل أن نسلك الطريق المعاكس..".

هذه الحجة ضد الكارثية لا تبدو مقنعة، وهى ليست علمية

كذلك، فالقائلون بالكارثية فى القرن التاسع عشر، كانوا يعملون على أدلة من علوم الچيولوچيا والحفريات، لا على حجة لاهوتية. وقد اتبع ايزيلى اقتباسه عن جيليسبى بهذه الجملة: "ببطء بدأ تراكم المعلومات الچيولوچية يعود مرة أخرى للخلف، للطريق الذى سبق أن أشار إليه چيمس هاتون.."، وتشارلس ليل، الذى ولد فى ذات السنة التى مات فيها هاتون: "لم ير دليلاً على كوارث تعم العالم كله.. لكنه لاحظ، بدل ذلك، صوراً من عدم استواء الأشكال المحلية فى الطبقة الأرضية، وقيام وانهيار خطوط الساحل، والاندفاع البطئ لنظم جبلية..".

ولكن إذا كان ليل (الذى اعتمد غالباً على ملاحظات سواه) لم ير هذا الدليل، فإن ايزيلى نفسه قد رآه فكيف، إذن، ضاعت هذه الرؤية، وهو ينكر وجود الدليل أصلاً؟

كان موجوداً أيضاً على أيام ليل، وكان على نفس الدرجة من الوضوح التى رآه عليها ايزيلى وقدم وصفاً له بعد مائة عام.

كمحلل نفسى فقد كنت أعود مراراً إلى مسألة إيقاظ العقل الإنسانى الواعى إزاء الميراث المنسى للعصور، والخبرات الصادمة التى دفنها بنو الإنسان فى غياهب النسيان، تمتلك قوى هائلة تتجاوز مصائر الأمم. "وإذا لم يصبح النوع الإنسانى قادراً على مواجهة ماضيه، فإن الخبرة الصادمة التى أدت إلى فقدان الذاكرة الثقافية، تتطلب التكرار. وحيث إن العصر الذرى قد بدأ، فقد عاش بنو الإنسان فى ظل سيف ديموقليس..".

هوامش الفصل الثانى

1- Freud, Moses and Monotheism, translated by K. Jones (New York, 1967), pp. 94-95.

2- Isaiah 24: 1, 6.

3- Isaiah 24: 17-19.

4- Worlds in Collision, Part II "Mars"; Section "The Year-687".

5- E. Biot, Catalogue général des étoiles filantes et des autres météores observés en Chine après le VIIe siècle avant J.C. (Paris, 1846).

6- Worlds in Collision, Section "Ignis e Coelo".

7- Ibid., Section "Sword Time, Wolf Time".

8- A. D. Godley, note to Book II. 141 (Loeb Classical Library, 1921).

9- II Kings 19: 35; II Chronicles 32: 21.

10- Worlds in Collision, Section "The Subjective Interpretation of Events and their Authenticity."

11- Shakespeare, Troilus and Cressida, Act I.

12- F. M. Cornford, Plato's Cosmology (The Bobbs-Merrill Co., 1937), pp. 15, 16, 18.

13- Poetics 1449b; the Butcher-Nahm translation.

14- Velikovsky, Earth in Upheaval, Page 228: "Fit and unfit, and

mostly fit..".

15- Cicero, DE Natura Deorum, translated by H. Rackham (Loeb Classical Library, 1933), II. 1.

16- Natural History, translated by H. Rackham (Loeb Classical Library, 1938), II. 18.

17- Seneca, Quaestiones Naturales, translated by J. Clarke (London, 1910), pp. 298 ff.

18- Velikovsky, Worlds in Collision, section "Maimonides and Spinoza, the Exegetes".

19- Antoinette Mann Paterson, The Infinite Worlds of Giordano Bruno (C. C. Thomas, 1970).

20- First in the paper by Livio Stecchini, "The Inconstant Heavens," in American Behavioral Scientist, September 1963, p. 30.

21- G. Hampton, Nicolas-Antoine Boulanger et al science de son temps (Geneva-Lille, 1955).

22- Nicolas-Antoine Boulanger, L'antiquité dévoilée par ses usages (Am-sterdam, 1766), BK. 6, ch. 2.

23- Frank E. Manuel, The Eighteenth Century Confronts the Gods (Cam-bridge, Mass., Harvard University Press, 1959), p. 223.

24- Oeuvres complètes de Laplace, 6th edition (Paris, 1835), pp. 234-35.

25- Charles Darwin, Journal of Researches into the Natural History and Geology of the Countries Visited During the Voyage of H.M.S. Beagle Round the World, under date of January 9, 1834 (New York, London: Appleton & Co.), pp. 169-70.

26- Charles Darwin, On the Origin of Species, sixth edition (New

York, London: Appleton & Co.), vol. Ii, pp. 95-96, 99.

27- Jacques Barzun, Darwin, Marx, Wagner: Critique of a Heritage (Boston, 1941), p. 10.

28- Moses Hess, Briefwechsel, edited by E. Silberner (Mouton, 1959), p. 253.

29- I refer the reader to an aricle by Livio Stecchini, "The Inconstant Heavens," written for the American Behavioral Scientist, September 1963, reprinted in The Velikovsky Affair, A. de Grazia, ed. (New York, 1966), pp. 80-126. It sheds some light on the motives behind the concerted cam-paign to suppress my book even before its publication.

30- H. Margolis, "Velikovsky Rides Again," in Bulletin of the Atomic Sci-entists (April 1964).

31- Quoted by Eiseley, American Antiquity, 8, No. 3 (1943), p. 217.

32- Ibid., p. 215.

33- G. E. Pilgrim, Geological Magazine (London), 81, No. 1.

34- Velikovsky, Earth in Upheaval, p. 228.

35- Eiseley, American Anthropologist, 48 (1946), p. 54.

36- Eiseley, American Antiquity, 8, Bo. 3 (1943), p. 211.

الفصل الثالث

عن الخوف والقشعريرة

آلهة الكوكب

الاضطراب والذعر اللذان يسبقان الانقلابات الكونية، والدمار واليأس اللذان يصحبانها، والرعب من احتمال تكرارها، كل هذا يؤدى إلى استجابات مختلفة، فى الأساس منها الرغبة فى النسيان، ولكن أيضاً الدافع للمحاكاة. إن الفلكيين والمنجمين، وكذلك الكهان والعرافين والمتنبئين والفاتحين، اندفعوا جميعاً إلى الإسراف فى اللهو والتدمير القاسى، باعثين ومقلدين نماذج كوكبية. الأنبياء والمتنبئون يعظون والكهنة يقدمون الكفارة. وأصبح الفلك هو الانشغال الدائم لحكماء الماضى فى المكسيك وفى بابل وآشور وفى كل مكان، وذلك - على التحديد - بسبب الأحداث الكارثية التى حدثت. وكان علم الفلك يهتم أساساً بالمواقع النسبية للكواكب واقترانها. فى القرن الأول قبل الحقبة الراهنة ذكر المؤرخ الإغريقى ديودورس الصقلى، بعد أن قال بأن الكلدانيين أكدوا أن الكواكب تغير من سرعتها ومن فتراتها الزمنية "هذه النجوم تمارس أقوى تأثير بالخير والشر معاً على أهل أرض البشر، وهذا صادر - أساساً - عن طبيعة هذه الكواكب، وبدراسة هذه الكواكب نستطيع أن نعرف ما هو مخبأ للإنسان..". (١)

عبارة ديودورس هذه صحيحة إلى حد ما. بالنظر إلى التغييرات الكبيرة التى يحدثها تقارب هذه الكواكب على حياة الإنسان وكل شىء آخر يعيش على هذه الكواكب. لكن عقيدة

الكلدانيين ما أسهل أن تؤدى لاستنتاجات خاطئة. فحيث إن المقاربات المختلفة بين الكواكب هى التى تسبب الفيضانات والأعاصير والحرائق وتدمر الحيوان وقد تؤدى لظهور نباتات جديدة، فمن السهل على الإنسان أن يستنتج أن هذا "التأثير" نتيجة طبيعة خاصة لهذا الكوكب أو ذاك، فلابد، إذن، من العمل على استرضائه. هكذا نشأ الدين مع عبادة الكائنات النجمية، ونشأت العمارة مع بناء المعابد الكبيرة، والبارثينون الذى بنى لتمجيد أثينا، ومعبد زيوس الذى ماتزال بعض أعمدته قائمة فى أثينا، ومعبد چوبيتر فى بعلبك، ولآمون - الذى كان چوبيتر - ولسواهم من آلهة الماضى، الذين كانوا جميعاً كائنات نجمية. الهندسة أيضاً تطورت نتيجة هذه الكوارث، لأن الأهرامات العظيمة فى مصر (أعظم إنجاز هندسى فى الماضى) كانت - حسب فهمى الخاص - ملاجئ آلهية ضد احتمال تكرار أحداث الكارثة.

كذلك كان للحروب المنظمة تأثيرها فى إثارة الخوف نفسه، فحين كان الملوك الأشوريون القدامى يخرجون للحرب كانوا يقارنون الدمار الذى يحدثونه بالدمار الذى أحدثته آلهة النجوم أثناء فترات الانقلاب.

ونظراً لأن أجيالاً كثيرة قد شهدت جحيم حروب الآلهة، ما يبدو معركة بين آلهة الكواكب، فكان طبيعياً بالنسبة للبشر على الأرض أن يحددوا مواقفهم، ولما كانت عبادة جميع الآلهة فى ذات الوقت أمراً غير منطقى، وعبادة إله واحد منتقى، أو مجموعة من الآلهة المنتقاه، لابد أن يثير غضب الآلهة المعاكسة، فقد أصبحت هذه المعضلة سبباً آخر لفقدان التوازن العقلى عند الإنسان وبين الشعوب.

عيد النور

معظم الطقوس والشعائر الدينية فى كل العقائد صادرة عن أساطير قديمة تعود لأحداث الماضى التى لعبت فيها الآلهة السماوية - مثل زحل والمشترى وسواهما من الكائنات الكوكبية - أدواراً هامة وتركت آثاراً لا تمحى. وكمثال لهذه الفكرة سأحاول فى هذا القسم الصغير أن أنقل شيئاً فهمته وكتبت عنه - وإن كان هذا بشكل غير كامل - قبل أكثر من ثلاثة عقود. وقد تعمدت ألا أشير إلى هذه الأحداث هنا لأن القصة لو رويت بمثل هذا الإيجاز لبدت خيالية. وحيث إننى لن أهمل تقديم حكاية زحل والمشترى فى كتب (المشترى والفيضان، وزحل وعواصف النار)[x]، فسوف أضيف هنا نقاطاً دالة فقط.

إن كل دارس للطقوس والأساطير القديمة التى تدور حول أوزيريس وديونيسيس وأرفيوس وسواهم، سوف يجد أنها قد خرجت إلى الوجود كى ترمز وتعيد وتحاكى أحداث الماضى ومصائر آلهة الكواكب، لكننى لن أدخل هذه الأرض الشاسعة، تاركاً هذا الموضوع لهؤلاء الذين لديهم الرغبة والقدرة على امتلاكه. لكننى سأقول شيئاً صغيراً عن أحد هذه الطقوس، تلك المتعلقة بأوزيريس. هذا الطقس والأساطير المرتبطة به سيطرت على الدين المصرى أكثر من أى شىء آخر. وأسطورة أوزيريس "على درجة كبيرة من التميز، وهى تحدث بصور مختلفة، وتنطوى على عنصر معتبر من الحقيقة التاريخية.."، كما يقول ألن جاردنر، (٢) ولكن.. ما هى الحقيقة التاريخية فيها؟ هل يمكن أن تكون هى الخاصة "بملك قديم تعلقت الأسطورة كلها بموته الفاجع؟"، ولكن مثل هذا الملك "لم يترك وراءه أى أثر موجود قبل عصر نصوص الأهرام"، وفى هذه النصوص يدور الحديث عن أوزوريس بغير

نهاية. وفيها يبدو كإله ميت، أو ملكا وحاكما للموتى، وبالتناوب "يقدم لنا من حيث هو النماء الذى يفنى فى فيضان الماء الذى ينبع منه على نحو غامض.."، (٣) كما أنه مرتبط كذلك بالضوء الساطع، وقد مُزق جسده إلى أعضاء، وقامت قرينته إيزيس بجمع أعضائه المتناثرة، وولدت إيزيس حوريس الذى كانت تعتبره ابن أوزوريس.

وكان چيمس فريزر، جامع الفولكلور، يعتبر أوزوريس إله النماء، مثلما كان تموز، أوزوريس البابلى، إلها للنماء. محمولاً بهذا المفهوم كتب فريزر "الغصن الذهبى "حول فكرة إله النماء الذى يموت، ثم يبعث فى العام التالى.

وعن تموز أيضاً يروى أنه كان مرتبطاً بالضوء الساطع، وبالفيضان، وبالهبوط إلى العالم السفلى، حيث تزوره هناك قرينته عشتار. وموت أوزوريس - أو تموز - ثم بعثه، أو كونه موجوداً فى المراحل الأخيرة من الرحلة وإن لم يعد ساطعاً، كان موضوعاً لا لأسطورة من الأساطير، بل أهم الطقوس وأعظمها؛ كان موت تموز موضوع نحيب وعويل، كذلك كان موت أوزوريس. وفى وقت متأخر، مع نهاية مملكة يهودا، زمن هرميا وحزقيال، وفى شهر تموز العبرى كانت نساء يهودا يخرجن نائحات على الآله تموز (حزقيال ٨: ١٤)، ثم يكون الصيام، وكان هذا يحدث فى كل مساحة الشرق القديم.

وبعد أن قضى عمراً طويلاً فى دراسة التاريخ المصرى والديانة المصرية، اعترف جاردنر - الباحث الرائد فى تلك الميادين - بأنه ظل غير واع لما يمثله أوزوريس أو إحياء ذكراه.

وحسب فهمى، فإن أوزوريس لم يكن ملكاً، بل كوكب زحل، كرونوس عند الإغريق، تموز عند البابليين. كان عصر كرونوس هو العصر الذهبى، وقد انتهى بالطوفان الشامل. وكان اليوم السابع

عشر من تموز (يونيو - يوليو) أول أيام النواح الذى كان يستمر عدة أسابيع، وكان اليوم السابع عشر من الشهر يلعب أيضاً دوراً مهما فى حكاية الطوفان.

و"نور الأيام السبعة" الذى يشير إليه إشعيا (إشعيا ٣٠: ٢٦) هو، حسب فهمى، الأيام السبعة السابقة تواً على الطوفان (التكوين ٧: ٤) كانت الدنيا كلها مضاءة إضاءة ساطعة، وكان زحل يتوهج بضوء قوى لا يمكن احتماله (مثل مائة شمس، حسب لغة الأحبار). زحل أو كرونوس، تموز، أوزوريس، كانت كلها آلهة مضيئة قبل انطفائها، ثم جاء طوفان شامل، لم يغرق الأرض وحدها، بل أغرق المجموعة الشمسية كلها، وبلغت الماء على الأرض عدة طيات، ويبدو أن المحيط الأطلنطى، أكثر المحيطات شباباً، ظهر للوجود آنذاك، وقد كان يسمى بحر كرونوس، وعلى الأرض فنيت أشكال عديدة من أشكال الحياة فى الطوفان، كما ظهرت للوجود أنواع أخرى وفيرة من الحيوان والنبات، فى لون من التبادل غير المسبوق فى ذاكرة الإنسان. وهذا ما جعل أوزوريس أو تموز أو كرونوس يبدو آله النماء.

وقد جمع المشترى هذه المادة المتناثرة وأصبح دورانه أكثر سرعة قبل أن يعانى الانشطار.

أما زحل الذى يبرز فى السماء، وربما يكون النجم الذى تدور حوله الأرض، أصبح غير مرئى حتى ظهر مرة أخرى، لكنه كان محاطاً بهالات من حوله. وقد جعلت الأسطورة الإغريقية چوپيتر ابناً لزحل، وبهذا المعنى تولى چوپيتر السيادة على السماء، وكان چوپيتر نفسه هو الذى وضع زحل فى القيود. أما طريقة المصريين فى تصوير الدراما السماوية، فقد كانت إيزيس (چوپيتر) رفيقة أوزوريس (زحل) هى التى لفته بسنابل القمح، وهى لباس الموتى

فى رحلتهم إلى عالم الموت، الذى يحكمه أوزوريس.

عيد النور احتفالاً بزحل هو ما التزم به الرومان فى احتفالهم بعيد "ساتورن" فى نهاية ديسمبر، والالتزام بهذا الاحتفال أيضاً هو ما فعله اليهود فى عيد "الهانوكا"، ثم الاحتفال بعيد الميلاد. إن الالتزام بأعياد النور كان عاماً وشاملاً، لأن الطوفان كان خبرة عامة وشاملة.

القرن الأول: أطياف الرؤية

فى منتصف القرن الخامس عشر قبل الحقبة الحالية، اجتاحت كوكب الأرض كارثة لم تحدث من قبل، أحدثتها النار اللافحة التى حملتها الأعاصير والمد والجزر، بعدها بسبعمائة سنة، أيام عاموس وچويل وهوسيا وإشعيا، بدأت سلاسل جديدة من الانقلابات الكونية، كارثة بعد الأخرى فى فترات متقاربة، وترنحت شعوب الأرض نتيجة الاقتراب المتكرر "لنجم" آخر، هاتان الفترتان تم تناولهما بالتفصيل فى "عوالم فى تصادم"، فى سلسلة الكوارث ما بين ٧٧٦ و٦٨٧ ق.م. كانت الأرض - رغم أن محورها ومدارها قد تغيرا - فى حال أفضل مما كانت عليه قبل سبعمائة سنة.

وحين انقضت فترة زمنية أخرى من سبعمائة سنة؛ أى فى القرن الأول قبل الحقبة الحالية، استيقظ الرعب من جديد فى وعى الشعوب وأفصح عن نفسه فى تصورات وتوقعات كاشفة عن مصدرها. كان ثمة خوف من نهاية العالم، وفى القرن الأول، زاد هذا الاستباق لنهاية العالم، كانت التعاليم حول الأيام الأخيرة للعالم، أو حول العالم الجديد الذى سيأتى، تعبيراً عن أفكار أثارتها خبرات الماضى. من لفائف البحر الميت والمذنب الساطع الذى ظهر فى ضوء النهار لعدة شهور تالية على الموت العنيف الذى لقيه قيصر،

وأثناء أيام يسوع الناصرة، والإمبراطور نيرون، وكتابات وأقوال الكهان، وسفر الرؤيا، وسقوط أورشليم، كان النوع الإنسانى فى قبضة الرعب.

فى القرن الأول قبل الحقبة الحالية، كتب لوكريتوس - الذى يعتبر، تقليدياً، نبى الدمار - عن الكوارث والرعب الناتج عنها: "إن النظام القوى المعقد للكون، والذى تدعم عبر سنوات طويلة، سوف يتحطم إلى شظايا.."، ثم تنبأ.. "على أننى لا أنسى كم سيكون غريباً وعجيباً أن تضرب العقل فكرة أن الدمار بانتظار السموات والأرض.. وربما أكدت الحقائق الواضحة هذه الكلمات.. وخلال زمن قصير سوف ترى العوالم فى فوضى، والكون قد انقلب نتيجة الصدمات.. قد ينهار الكون ويسقط ويكون لهذا التحطيم صوت مثير للرعب.."، ثم استعاد أشكال الانهيارات السابقة التى شهدها الإنسان، وحداثة التكوين القائم، وحيث إنه من المعروف "أن أجيالاً من الناس قد فنيت بفعل الحرارة اللاهبة، أو أن مدنهم قد خسفت بفعل اضطراب هائل فى الكون، أو لأنه بعد أمطار غزيرة متواصلة خرجت الأنهار عن مجاريها لتجتاح الأرض وتغرق المدن.."، فمن الواضح كذلك أن الدمار "سوف يأتى للأرض والسماء.."؛ ذلك لأنه "ليست هناك أجسام يمكن لها أن تجمع - بالمصادفة - هذا القدر الطاغى وغير المحدود من الأشياء التى يحملها إعصار عنيف، أو تؤدى إلى كارثة أخرى أو خطر آخر.."، ثم وصف بحيوية هذا الوضع المقلقل للتوازن الراهن: "باب الموت، إذن، ليس موصداً أمام السموات، ولا أمام الشمس والأرض، ولا أمام مياه البحار العميقة، بل يبقى مفتوحاً بانتظارهم، مثل فم خفى وشاسع"، فلم يحدث من قبل أن تغلبت النار على بقية العناصر الأخرى ووقفت بالكون على حافة الدمار.. "حين اندفعت الخيول القوية بعربة الابن فاثيون وجنحت به عبر السماء وفوق

الأرض كلها، لكن الأب القادر (زيوس) مدفوعاً بغضبه القوى، طوح بابنه الطموح من عربته إلى الأرض مصحوباً بعاصفة رعدية مفاجئة، الشمس التى قابلته أثناء سقوطه أخذت منه المصباح الذى يضئ العالم دائماً، وجمعت خيوله المتناثرة وقيدتها وهى ترتجف وأعادتها إلى المسار الصحيح، وأعادت كل شىء لوضعه السابق..". (٤)

وفى بداية الحقبة الحالية كتب سينيكا عن مصير الإنسان: "سوف يأتى يوم يضع نهاية حياة الإنسان واهتماماته، سوف تتحلل كل عناصر الأرض أو يصيبها الدمار الشامل.. سوف تتصدع الصخور فى كل مكان.. والإمدادات الجديدة من الماء سوف تثب إلى الخلجان، ثم تتجمع لتشكل بحراً عظيماً.. إن يوماً واحداً سوف يشهد دفن كل النوع الإنسانى، كل ما أنتجه وأبدعه أسلافنا، كل ما هو شهير، كل ما هو جميل، العروش العظيمة، الشعوب العظيمة، كل هذا سيلقى به إلى الهاوية، سيطوح به فى ساعة واحدة".

وحين يأتى اليوم الموعود، فسوف تتعاون أسباب عديدة من أجل دمار النظام القائم "ولا يمكن أن يحدث مثل هذا الاضطراب دون أن يهتز له العالم كله..". (٥)

وكانت "نبوءات العرافين" التى ظهرت فى نفس الفترة، مهتمة، أساساً، بالكارثة المتوقعة، وسوف يأتى يوم "يقوم فيه الإله الذى يقطن فى السماء، يطَىّ السماء كما يطوى الكتاب، وقبة السماء كلها، بكل أشكالها المتنوعة، سوف تسقط على الأرض المقدسة وعلى البحر، بعدها سوف يندفع شلال لا ينتهى من النار المتأججة يحرق الأرض والبحر لتتحول قبة السماء والنجوم والخلق كله إلى كتلة واحدة منصهرة، ثم تتلاشى. لن تكون هناك أجسام سماوية مضيئة ولا كواكب ملتمعة، لا ليل ولا فجر ولا ربيع ولا صيف ولا شتاء ولا خريف..". ويأتى مذنب نذيراً بالنهاية: "وسوف تشرق نجمة فى

الغرب، يقولون إنها مذنب، وهى تحمل رسالة لرجال السيف وللمجاعة والموت.."، سوف تختفى مدن كاملة فى شقوق تنفتح فى الأرض أو تلتهمها النيران الساقطة من السماء..". (٦)

فى "كتاب اينوك" من "الأبوكريفا" يقال إنه فى الأيام الأخيرة "ستكون السنين أقصر، وسيغير القمر نظامه، فلن يظهر فى موعده.. وفى هذه الأيام ستشرق الشمس فى المساء، وسوف ترحل عربتها العظيمة نحو الغرب، مسببة الأسى والضيق، وستكون أكثر سطوعاً مما يتفق ونظام الضوء.. وسيتخطى كثير من النجوم النظام (المفترض) فتتغير مداراتها ومهماتها، ولن تظهر فى الفصول المقررة لها.."، ثم قدم اينوك رؤيا: "رأيت السماء وقد انهارت وسقطت على الأرض، وحين سقطت على الأرض رأيت الأرض وقد ابتلعتها هوة عظيمة، والجبال تعلقت فوق الجبال، والتلال غرقت فوق التلال، والأشجار العالية انتزعت من سوقها واندفعت كى تغرق فى الهوة..". (٧)

على نحو مشابه كتب بطرس الرسول: "لكن السموات والأرض، المصونة الآن، سوف تكون للنار يوم الحساب والهلاك.. لكن يوم الرب سوف يأتى مثل اللص فى الليل.. ستعبر السماء بسرعة محدثة ضجة عظمى، وستنصهر العناصر بفعل الحرارة الرهيبة، وكذلك الأرض، وكل الأعمال التى عليها سوف تحترق..".

وتنبأ يسوع بنهاية العالم فى أيامه، وحين لم يأت هذا اليوم ومات يسوع على الصليب، كان متوقعاً أن يعود فى أيام الحواريين، ولماذا كانوا "يتطلعون ويتلهفون لقدوم يوم الرب، وفيه سوف تتفكك السماء التى دبت فيها النار، والعناصر سوف تنصهر بفعل الحرارة الرهيبة؟ على ذلك فإننا نتطلع، حسب وعده، إلى سماوات جديدة وأرض جديدة". (٨) "السموات الجديدة" تعنى سماء تغيرت فيها مواقع الأفلاك، والشمس والقمر يتخذان مسارات مختلفة،

و"أرض جديدة" انقلبت محاورها وتغير مناخها، وخطوط جديدة لليابسة وانتشار البحار، الجبال القديمة هبطت وجبال جديدة نشأت، حيث كانت السهول. لكن ابن الإنسان الذى وعد بالحضور كى يحكم الأرض قد تلكأ فى المجئ.

وانقضت بضعة عقود. "سفر الرؤية" أو "كتاب الرؤى" آخر أسفار العهد الجديد، هو رؤية صوفى اسمه يوحنا حين كان فى جزيرة باتموس فى بحر ايجه: "وهناك.. هوى نجم عظيم من السماء.. وضرب الجزء الثالث من الشمس، والجزء الثالث من القمر، والجزء الثالث من النجوم..

"الويل الويل لأهل الأرض.." (٩)

ويمضى تدافع الخيالات المرعبة، كل رؤية مرعبة تتبعها أخرى أشد رعباً: تنين يظهر فى السماء، ويهوى نجم آخر، وتنفغر هوة بلا قرار، وتسير الوحوش الضارية فى مواكب الرعب.

إن صور المعاناة المخيفة لقرن كامل قبل أن تصبح أورشليم "فريسة" فى مخالب النسر الرومانى، والقرن التالى بآماله المحطمة وانكشاف الأوهام، قد حقنت أرواح الكثيرين بالتوقع المخيف لنهاية العالم، حين يمكن القضاء على الشر كما تم - بالفعل - القضاء على الخير والصدق.

كان زماناً بلغت فيه التعاسة حداً فوق احتمال البشر، وأفرز قلق العقول المضطربة صوراً مرعبة للاضطهاد، ورؤى لحيوانات غريبة بشعة وتشوهات تشبه سفر الرؤيا. فى هذه الرؤى ميراث انطباع بدائى أخذ شكل الكشف.

ومنذ حلول المسيحية الأولى، أزيحت المشاهد المرعبة فى الماضى إلى المستقبل، إلى أيام "المجئ الثانى" وتحدد نصيب الخطاة. لكن المضمون الغارق القادم من الماضى والذى لم يجد له حلاً هو ما ظل - فى الحقيقة - يثقل روح الإنسان.

القرن السابع وعصور الظلام..

فى القرن السابع - العصر الوسيط المظلم فى أوروبا - اشتعلت جمرات النار التى ظلت خامدة زمناً طويلاً، فى جزيرة العَرب. هناك ظهر راعى إبل أمى، حتى ذلك الحين - يعبد كوكب الزهرة، (١٠) استشعر فى ذاته روح رسول الله، وأقواله - التى هى سور القرآن - حملها سيف الفتح فى الجيل التالى إلى المغرب والهند. عن العصور القديمة لم يكن محمد (٥٧٠؟ - ٦٣٢) يعرف سوى ما سمعه - بصورة عشوائية - على بوابات مدارس أحبار اليهود فى المدينة، وكان هذا مختلطاً فى عقله: "ميريام" أخت موسى كانت عنده هى ذاتها "مريم" أم يسوع، (١١) ويسوع هو ذاته "يشوع" بن نون الذى فتح أرض كنعان، و"هامان" - الوزير الفارسى أصبح وزير فرعون "الخروج"، (١٢) لكن رسالته كانت عن جبال تتحرك وطبيعة تنقلب وحياة منطفئة لغير المؤمنين حين تتحطم القوانين الأخلاقية:

"إنهم (الكافرون) يرونه بعيداً، ونراه قريباً..

فهل ينظرون إلا الساعة أن تأتيهم بغتة فقد جاء أشراطها..

إذا السماء انفطرت، وإذا الكواكب انتثرت، وإذا البحار فجرت، وإذا القبور بعثرت..

فاذا نفخ فى الصور نفخة واحدة، وحملت الأرض والجبال فدكتًا دكة واحدة.. وانشقت السماء فهى يومئذ واهية..

أو كظلمات فى بحر لجى يغشاه موج من فوقه موج من فوقه سحاب ظلمات بعضها فوق بعض..

إذا الشمس كورت، وإذا النجوم انكدرت، وإذا الجبال سيرت.." (١٣)

إن تغير مواقع النجوم، وحركتها معاً مع قبة السماء،

واضطرابات حركة الشمس، والتغير فى التكوين الچيولوچى للأرض، وغليان البحار واختفاءها - كل هذه صور من الماضى.

منتصف القرن الرابع عشر: دورية الجنون

وانقضت سبعمائة سنة أخرى، وفى القرن الرابع عشر راح النوع الإنسانى يتوقع يوم الحساب. وسوف أعيد هنا وصف الكوارث التى حدثت والرعب الذى بعثته: (١٤)

"كان منتصف القرن الرابع عشر فترة من الكوارث والفزع، غير عادية فى أوروبا. نذر عديدة أفزعت الناس على نحو محزن تبعها طاعون هدد بأن يجعل القارة قفراً غير مأهول. سنة بعد الأخرى، كانت ثمة شواهد فى السماء وعلى الأرض وفى الهواء، كلها كانت تشير - كما ظن الناس - إلى حدث مرعب وشيك. وفى سنة ١٣٣٧ ظهر مذنب فى السماء، وأثار الذنب الطويل الرعب فى نفوس الجماهير الجاهلة. وخلال السنوات الثلاثة التالية هبطت على الأرض جحافل جرارة من جيوش الجراد، اجتاحت الحقول، ناشرة شبح المجاعة فى طريقها. وفى ١٣٤٨ حدث زلزال بلغ من عنفه أن ظن الكثيرون أن نهاية العالم قد بدأت بالفعل، وقد انتشرت آثاره التدميرية على نطاق واسع: فى قبرص واليونان وايطاليا، ووصلت (هزاته الزلزالية) إلى أودية الألب.. غاصت الجبال فى الأرض.. وأصبح الهواء ثقيلاً خانقاً، والضباب كثيفاً مخيفاً، وتخمر النبيذ فى البراميل، وظهرت شهب ملتهبة فى السماء، وشاهد المئات عموداً هائلاً من اللهب يسقط على سقف قصر البابا فى أفنيون، وفى ١٣٥٦ حدث زلزال آخر دمر مدينة بازل كلها تقريباً. مع المجاعة والفيضان والضباب وجحافل الجراد والزلازل وما أشبه، ليس مدهشاً أن يظن الكثيرون أن الكأس قد

امتلأ بخطايا العالم، وأن نهاية مملكة الإنسان باتت وشيكة.

"وتبع هذا حدث بدا أنه يؤكد هذه العقيدة. انفجر طاعون رهيب، حتى خُيل للكثيرين أن الإنسان سيزاح تماماً عن الأرض. كان البشر يموتون بالمئات، ثم بالآلاف، ثم بأعداد تتجاوز الحصر، حتى أن بعض الأماكن لم يكن يوجد فيها من يكفى لدفن الموتى، وتمكن جنون الرعب من الناس حتى أن المساكن والقرى والمدن قد هجرها كل من استطاع الفرار، وأصبح الموتى والمحتضرون هم فقط الباقون فيها. كان هذا الطاعون الذى سُمِّىَ "الموت الأسود" أقسى ما عرفته أوروبا من هذا المرض حتى ذلك الحين.

"جاء هذا الوباء القاتل من آسيا. ويقال إنه بدأ فى الصين، وانتشر منها فى القارة الكبرى نحو الغرب، ثم هبط بكل قوته على أوروبا، فاجتاح القارة بسمومه المدمرة. ويبدو أن هذا المرض كان نوعاً بالغ الضراوة من النمط الذى عرف من قبل بالطاعون، والذى رجع إلى القارة أكثر من مرة، لكنه لم يكن أبداً بضراوة هذه المرة.. كانت المدن والقرى تبدو مهجورة تماماً.. لا شىء فيها على قيد الحياة..".

"فقدت لندن مائة ألف من تعداد قاطنيها، وفى انجلترا كلها عدد يتراوح ما بين ثلث ونصف التعداد كله (وكان يتراوح فى ذلك الحين من ثلاثة ملايين إلى خمسة) ضمتهم القبور. وإذا أخذنا أوروبا كلها فمن المعتقد أن ربع قاطنيعها قد ذهبوا مع هذا الوباء المخيف. ظل الطاعون منتشراً عامين كاملين ١٣٤٨ و١٣٤٩، وانفجر مرة ثانية فى ١٣٦١ - ١٣٦٢، وثالثة فى ١٣٦٩".

"ولم تكن الوفيات التى أحدثها الطاعون غير واحدة فقط من نتائجه المدمرة، فقد تفككت روابط المجتمع، وبدا أن المشاعر الطبيعية قد تلاشت، هجر الأصدقاء أصدقاءهم، بل فرت الأمهات من أطفالهن، وكشفت مظاهر انهيار الأخلاق عن نفسها فى اندفاع

طائش إلى الفسق، وبقى مثال مثير للاهتمام فى عمل بوكاشيو "الديكاميرون" الذى كانت تروى حكاياته جماعة من عشاق اللذة الفارين من فلورنسة التى ضربها الطاعون".

"وفى مواقع عديدة أدت كراهية الناس لليهود إلى تجاوزات مخيفة فى اضطهادهم، فقد كان اليهود متهمين من جانب أعدائهم بتسميم الآبار. من برن، حيث أصدر مجلس المدينة قراره ببدء المذبحة، انتشرت لتعم كل سويسرا وألمانيا، ولقى ألوف عديدة مصارعهم".

وأدت الإثارة الدينية إلى نشأة وحيوية فرقة "المتسوطين": الذين يجلدون أنفسهم بالسياط تقرباً إلى الله:

"أعضاء هذه الفرقة الذين لم يعودوا يجدون أملاً فى الخلاص عن طريق الفعل الإنسانى، تحولوا نحو الله باعتباره ملاذهم الوحيد، ورأوا أن من الضرورى استعطاف الرب عن طريق التضحية غير العادية وتعذيب الذات، وحين بدأ لهيب التعصب انتشر سريعاً وعلى نطاق واسع، مئات الرجال، وأحياناً الصبيان، يسيرون فى جماعات عبر الطرق والشوارع، يحملون مشاعل ثقيلة، يسوطون أكتافهم العارية بسياط معقودة، غالباً ما تكون مثقلة بالرصاص أو الحديد، ينشدون تراتيل التوبة والندم، يرفعون رايات ويتعصبون بأعصبة، وقد تميزوا بالقبعات البيض ذوات الصلبان الحمر..".

والنساء بدورهن كن يشاركن فى هذه التدريبات المتعصبة.. كن يمشين نصف عاريات، يَسُطْنَ بعضهن البعض خائفات، ويطرحن أنفسهن على الأرض فى الأماكن العامة من المدن... وإذا دخلن إلى الكنائس فقد يسجدن على الأرض وأذرعهن ممتدة على شكل الصليب..

كانوا يعلنون أن يوم الحساب أصبح فى متناول اليد.. كانوا يبشرون ويعترفون ويغفرون الخطايا، ويقولون إن دماءهم التى

سفحت فى عملية الجلد هذه تشارك دم المسيح فى التكفير عن الخطيئة، وأن الآلام التى أوقعوها بأنفسهم هى بديل عن قربان الكنيسة، وأن الغفران الذى يمنحه الكهنة لا فائدة له، ويقولون إن كل الناس أخوة ومتساوون فى عين الرب، ويوجهون الانتقاد إلى القساوسة لتعاليهم وترفهم..

"بل ادعى بعضهم أنه المسيح، وقد أحرق أحدهم باعتباره هرطيقاً فى ارفورت.."

النذر فى السماء، والطاعون الذى تلاها كانت كافية لإحداث هذا الترقب المسعور ليوم القيامة، وليست هناك حاجة لسبب خفى لمثل هذه الاستجابة، رغم ذلك فإن التكرار - وهو الآن للمرة الرابعة، ودائماً بفاصل يقارب السبعمائة سنة - لأحداث طبيعية يعيد إلى الذاكرة - على نحو مفزع - أحداثاً فى منتصف القرن الخامس عشر قبل الحقبة الحالية، أيام "الخروج" وانهيار "المملكة الوسطى" فى مصر، ولابد من أن يُضاف هذا كله إلى الفزع الإنسانى. مثل هذه النذر يمكن ببساطة أن تتضخم فى عيون ناس العالم لأن اتجاههم النفسى محدد سلفاً، فى مثل هذه الحالة العقلية كان الإنسان أكثر استعداداً كفريسة لمرضٍ معدٍ.

بل قد يبدو أن الطبيعة نفسها عمدت إلى إحداث دورية الجنون كأنما لتضيف إلى الخائف مزيداً من الخوف. على أية حال، فإن الذاكرة النوعية للانفجارين الأولين للعناصر المسعورة قد هيأت العقل لأن يرى فى ظاهرة طبيعية، تحدث مرة فى كل قرن على وجه التقريب، نذراً بالكارثة النهائية.

فى مكان آخر وصفت ظاهرة أطلقت عليها تعبير "العوار النفسى"، و"العوار anaphylaxis" مصطلح طبى يقصد به الاستجابة الزائدة لمثير ما حين يستخدم للمرة الثانية. أما العوار النفسى فهو:

".. ظاهرة فى الحياة النفسية للإنسان، تتميز - مثل سميتها البيولوچية - بحساسية خاصة إزاء عامل معين حدث من قبل أن مارس تأثيره عليه، وحين يخبره مرة ثانية تأتى استجابته متجاوزة - من حيث القوة - الاستجابة الأولى بكثير، ومن الواضح أن التغيرات (فى الجسم أو العقل) لابد من أنها كانت بالغة العمق حين أحدث العامل الأصلى تأثيره. وعلى أية حال فإن الحساسية "الكامنة" التى أحدثها هى التى تؤدى لأحداث انفجارية لاحقة بفعل عامل مماثل..". (١٥)

ثمة عملية مناظرة، تؤثر على النوع الإنسانى ككل، على مستوى الزمن الذى يُعد بالقرون، قد تقوى الفزع الذى ميز القرن الأول قبل الحقبة الحالية، والقرن السابع، والقرن الرابع عشر من هذه الحقبة. إذا نحن أسقطنا دورية الجنون هذه - التى تحدث على فترات تقارب سبعمائة سنة -- على المستقبل، فهل سيصبح القرن الحادى والعشرون فترة رعب وجنون أخرى؟ ليس فقط ستتزامن دورة السبعمائة سنة مع ألفية جديدة للمرة الأولى (ألفيتان فى الحقيقة)، بل إن النوع الإنسانى يملك بين يديه الآن، وسائل مرعبة للدمار بحيث إنه ما لم يتفهم رغبته اللاشعورية فى إعادة بعث أكثر خبرات الماضى رعباً، فقد يندفع بتهور حتى يصبح أقرب ما يكون لشفا الهاوية، مغامراً بما يقارب تدمير الذات، واحتمال الفناء البيولوچى على السواء.

"لا مكان للاختباء.. أسفل منى..".

فى صيف ١٩٧١ قضيت بعض الوقت فى منطقة الألب السويسرية وتعرفت إلى سان كلير دريك، أستاذ الاجتماع والأنثروبولوچى فى جامعة ستانفورد. كان قد استمع إلى محاضرة

لى، وجاء - وهو أسود من جزر الهند الغربية - يشاركنى بما يعرف من "الإيمان بالغيبيات" لدى جماعات اثنية ودينية مختلفة. وبعد أن استمعت إلى رواياته المفعمة بالحياة، طلبت إليه أن يكتب شيئاً مما روى. وقد فعل. وبإذن منه أثبت هنا مقتطفات مما كتبه، هو، بإيجاز.

"إننى مندهش للمدى الذى يبلغه الاهتمام الشعورى بالكوارث - فى الماضى والحاضر، وهو ما يميز أنصار جماعات دينية معينة، وثمة حقيقتان مرتبطتان معاً:

(أ) إن الكارثة يتم استثمارها لحساب "الأمل" من حيث إنها - ديالكتيكياً - "مقدمة ضرورية" لزمن أفضل من الحاضر الذى يعيشه الإنسان.

(ب) إن أنماط الشخصية عند المؤمنين بهذا، فى جماعات معينة، ليسوا ساديين (من حيث أفعالهم، على الأقل)، أو مساهمين نشطين فى إحداث كارثة إنسانية، لكنهم يميلون، بالأحرى، لأن يكونوا متوجهين نحو السلام.

"كانت لى خبرة شخصية، ثم قمت بدراسة ثلاث من هذه الجماعات: (أ) جماعة الأمريكيين الأفارقة ("الزنوج" الأمريكيين) وهى الأكثر بساطة، (ب) شهود يهوا، (ج) أدفنتست "اليوم السابع".

وقد ميزت بين الأفارقة، والأمريكيين الأفارقة، ممن هم خارج التراث اليهودى - المسيحى أو رافضين لهذا التراث، وهى الظاهرة التى أسميتها "عقدة شمشون"، بمعنى الرغبة الحارقة فى "خلق" كارثة تودى بهم وبقاهريهم معاً.

و"للطقس" الدينى المسيحى بين الأمريكيين الأفارقة الأكثر بساطة تأثير قوى على الاعتقاد بأن الرب يدمر حضارات معينة أو شعوباً معينة، أحياناً عن طريق كارثة طبيعية (والمثال هو سدوم وعمورة)، أوباستخدام الصراعات الإنسانية، وأنه سوف تكون

هناك كوارث فى المستقبل، وكارثة عظمى تتراكم فى "نهاية العالم". ويصف كتاب الرؤية كيفية حدوثها، والنبوءات التى قال بها يسوع إلى مَتَّى بعد دخوله أورشليم يوم "أحد السعف" (اليوم الأول من أسبوع عيد الفصح) أشارت لها كذلك. وحين تأتى، فإن "الطيبين" سوف يتم "إنقاذهم" إما بمعجزة أو ببعثهم بعد موتهم. وسوف يبدأ "ألف عام من السلام والرخاء على الأرض الجديدة"؛ أى "الألفية". هذه "الرؤية" القائمة على الغيبيات يشارك فى الإيمان بها أصوليون من البيض.

وتزامن مع التبشير بمثل هذه الأفكار من جانب "الوعاظ" تطور موسيقى دينية شعبية جميلة هى "أغانى الزنوج الدينية" التى سُمِّيتْ "الروحانيات"، فيما يلى أمثلة قليلة من تلك التى تتعلق بموضوع الكارثة:

(أ) جريتُ نحو الصخورِ
كى أُخبِّئَ وجهى..
صاحت الصخرةُ:
"لا مكانَ للاختباءِ"
لا مكانَ للاختباءِ
أسفلَ منى..

(ب) يا إلهى.. يا له من صياحٍ!
يا إلهى.. يا له من صباحٍ!
يا إلهى.. يا له من صباحٍ!
حين تبدأ النجومُ فى التهاوى.

(جـ) سمعت صوتَ الآتى..
صوتَ المخلِّصِ! (نداء)
وداعاً لك.. وداعاً لك (إجابة)
فى هذا الصباحِ العظيمِ..

وداعاً لك.. وداعاً لك..
النجومُ سوف تهوى من السماءِ
وداعاً لك.. وداعاً لك..
كالشمعِ سوف تذوبُ الجبالُ
وداعاً لك.. إلخ.
والبحَارُ سوف يغلى ماؤها
وداعاً لك.. إلخ.
والقمر سوف تسقط منه قطراتُ الدماءِ
وداعاً لك...

"ويغنى القائد أشعاراً عديدة يرتجل فيها كل تفاصيل الكارثة، الملتقطة من العهد القديم والعهد الجديد".

"وكل هذه "الروحانيات" التى تتناول موضوعات كارثية مغرقة فى الغيبيات، تشير إلى الكارثة الأخيرة، حين تلتقى قوات "يأجوج ومأجوج" فى سهول "مجيدو" (معركة "هرمجدون")، وفى نهايتها سيظهر المسيح (للمرة "الثانية" حسب العقيدة المسيحية) وستهبط "أورشليم الجديدة" من السماء "مزينة مثل عروس لعريسها". و"كتاب الرؤية" هو المصدر الرئيسى لهذه التفاصيل، وكما سمعتها تغنى فى طقوس العبادة، فإن هذه "الروحانيات" تؤدى بتوهج وجمال، وتعبر عن هذه الانفعالات:

(أ) الرعب والعجب إزاء الحدث غير العادى الذى يستطيعه يهوه وسوف يفعله ليفرض الحكم الألهى على التاريخ الإنسانى.

(ب) الانبهار بتعدد التفاصيل، الاستمتاع تقريباً، مثل مشاهدة الألعاب النارية، أو فى أيامنا الحديثة، فيلم من الخيال العلمى.

(جـ) اليقين بأن "الناجى" سوف يحيا إلى الأبد، وإحساس بارتياح لهذه الحقيقة.

(د) ترقب الفرح للاستمتاع "بالعصر الألفى". والمثير للاهتمام

أن هذه ليست "روحانيات" لكنها تراتيل "بيضاء" أدمجت فى الطقوس "الزنجية"، وتغنى بإيقاعات ودقات زنجية مميزة.

"شهود يهوه أو حركة برج المراقبة" (١٦)

"أسسها تشارلس تاز راسل فى النصف الثانى من القرن التاسع عشر، كواحدة من الحركات "الألفية" العديدة فى الولايات المتحدة، وقد تنبأ بأن "نهاية العصر" ستكون فى عام ١٩١٤. أما خلفه القاضى روتر فورد (وهو الآن ميت) فقد أعاد الشغل على نفس الأسطورة الغيبية لكنه لم يحدد تاريخاً. ومجلتهم "انهض - أويك Awake" ومنشوراتهم الأخرى تسعى دائماً لتفسير ما يسمونه "علامات العصور" كى يثبتوا أن "النهاية قريبة". ودورهم هو "الشهادة"، لا المشاركة، على الأحداث التى تعبر عن غضب الرب. على سبيل المثال: الحروب ضرورية ولا يمكن تجنبها، لكنهم "هم" سلاميون على نحو مطلق، وقد سجنوا فى ألمانيا هتلر، وفى الاتحاد السوفيتى وفى الولايات المتحدة.. إلخ؛ لرفضهم أداء الخدمة العسكرية.

وتشير منشوراتهم إلى البحث الدائم فى علوم الأحياء والچيولوچيا والفلك والطبيعيات والآثار.. الخ، التماساً للمعطيات عن الكوارث فى الماضى والحاضر، وما يشير إلى نهاية عصر وبداية آخر، وما يشير إلى أننا نعيش "عصر النهاية". وهى - عادة - أبحاث حسنة الصياغة، لا تحرف المادة المتعلقة بالحقائق، لكنهم يفسرونها حسب أطرهم المرجعية.

"أدفنتست اليوم السابع"

الجماعة الألفية الأمريكية من القرن التاسع عشر التى أصبحت مؤسسة، وهى اليوم تعتبر الطائفة البروتستانتية التقليدية (الأرثوذكسية).. يعتقد الأدفنتست أننا نعيش "زمن النهاية" لكنهم لا يحددون تاريخاً، على نحو ما فعل مؤسسهم، وهم يراقبون "علامات الأزمنة" بدقة، ويصدرون مجلة شهرية جيدة التحرير، اسمها "علامات الأزمنة"..

والأدفنتست الذين عرفتهم "لم" يكونوا ينظرون إلى احتمال الهلاك الذرى للنوع الإنسانى بخوف وفزع، بل بتطلع مؤمل، فهم يعتقدون أن هذه هى الآلية التى يمكن عن طريقها أن تظهر للوجود "الأرض الجديدة" التى تقول النبوءة إنها تأتى مع العصر الألفى. والانطلاق الكبير للإشعاع الذى يشمل الأرض كلها سوف يغير التكوين الوراثى للنبات والحيوان (بما فيه الإنسان)، وبالتالى يمكن للحملان والأسود أن تتعايش فى سعادة، ويتم إنتاج بشر جدد لا يحمل أحدهم السلاح ضد أخيه. كذلك فالنباتات ستكون مثل تلك الموجودة فى جنة عدن، وأشار إليها كتاب الرؤية "أوراقها من أجل شفاء الناس"، والأدفنتست لأنهم من "الناجين" فسوف يبقون على قيد الحياة بعد الكارثة، وأجسادهم التى ستتحول ستبقى للأبد.

والأدفنتست، مثل شهود يهوه، "يشعرون بأن الرب، لا هم، الذى يأخذ الحياة الإنسانية، وهم لا يؤدون الخدمة العسكرية فى أى جيش إلا فى قوات المستشفيات، وهم يقدرون التحمل والصبر والرقة والسلام.

"تساؤلات":

(١) كيف نفسر حقيقة أن هذه الجماعات لا يبدو أنها تكبت ذكريات كوارث الماضى؟

(٢) كيف نفسر قبولهم، بل حتى حماستهم وترحيبهم، للمصائب التى يمكن أن تدمر الملايين، فى حين أنهم، فى حيواتهم "الخاصة" يؤكدون قيم السلام؟

"سان كلير دريك"

هوامش الفصل الثالث

1- Diodorus, The Library by C. H. Oldfather (Loeb Classical Library, 1933), II. 31. 1.

* Velikovsky's writings on these subjects are being prepared for future publication.

2- Alan Gardiner, Egypt of the Pharaohs (Oxford University Press, 1961), p. 424.

3- Ibid., p. 426.

4- Lucretius, De Rerum Natura, translated by. W. Rouse (London, 1924), Bk. V., 95 f., 338f., 395f.

5- Seneca, Naturales Quaestiones, translated by J. Clarke (London, 1910), III. 28, 29.

6- The Sibylline Oracles, translated by Lanchester in R. H. Charles, ed., Apocrypha and Pseudepigrapha of the Old Testament (London, 1913), III, pp. 80 f., 334, 341.

7- Book of Enoch (Ethiopian) 80:2 - 6.

8- II Peter 3:7-12. Cf. I. Chaine, "Cosmogonie aquatique et conflagration finale d'après la secunda Petri," Revue Biblique, 46 (1937), p. 207 f.

9- Revelation 8: 10-13.

10- Al Kalbi. See Philip Hitti, History of the Arabs (Princeton, 1937), p. 99.

11- The Koran, Chapter 19, translated by N. J. Dawood (London, 1956).

12- Ibid., Chapters 29, 40.

13- Ibid., Chapters 70, 47, 57, 50, 44, 69, 81, respectively.

14- Charles Morris, Historical Tales: The Romance of Reality (Lippincott, 1893), p. 162 f.

15- Velikovsky, "Psychic Anaphylaxis and Somatic Determination of the Affects," The British Journal of Medical Psychology, 17, Part 1 (1937), p. 98.

16- Cf. St. Clair Drake, "Who Are Jehovah's Witnesses?" in Christian Cen-tury (1936), and the careful sociological study by Herbert H. Stroup, The Jehovah's Witnesses (Columbia Uinversity press, 1945).

الفصل الرابع

شعراء وأصحاب رؤى

فى عصور متأخرة، فى أماكن وثقافات مختلفة، يظهر شاعر أو صاحب رؤية، وفجأة يبدو الأمر كما لو أن باباً قد فتح أمامه، يلتمع الضوء من خلاله، فيرى الماضى.

شكسبير: بعد كوبرنيكوس بأجيال ثلاثة

فى ١٧ فبراير ١٦٠٠ احترق جيوردانو برونو فى محرقة روما. وقبل أن يموت من أجل هرطقاته اللاهوتية والفلكية كان قد قضى سبع سنوات فى سجن محكمة التفتيش المقدسة فى ڤينيسيا وروما. قبلها كان قد قضى زمناً فى انجلترا، يحاول إقناع كبار المملكة الاليزابيثية بحقيقة مفهوم كوبرنيكوس بأن الشمس، لا الأرض، هى مركز النظام الكوكبى، وكان هذا سابقاً على تبنى جاليليو لعقيدة كوبرنيكوس. ورغم أن برونو كان فيلسوفاً وليس فلكيا، إلا أنه كان سابقاً لعصره، ورأى أن النجوم الثابتة هى شموس أخرى، وحولها تدور الكواكب، وجعلته وجهةالنظر هذه معادياً وكارهاً لكل من كبلر وجاليليو. وفى انجلترا، لم ينجح فى نشر نظام كوبرنيكوس البسيط، ولم تفلح جهوده فى حمل أى من شكسبير أو بيكون على تغيير آرائه، فبقى كلاهما على إيمانه الثابت بنظام أرسطو، وفيه أن الشمس واحدة من الكواكب تدور، مثل بقيتها، حول الأرض. ويليم جيلبرت وحده، وهو طبيب وعالم فى الطبيعة، أصبح مقتنعاً - سواء عن طريق جهود برونو، أو

جهوده الخاصة - بحقيقة النظام الكوبرنيكى؛ ومن خلال التجارب، أيقن أن الأرض قوة مغناطيسية كبرى، واستنبط نظاماً شمسياً تحكم المغناطيسية حركة أجزائه. الفيلسوف بيكون، وله فضل القول بمبدأ التجربة والملاحظة فى الأمور العلمية، بدل الاستناد إلى أقوال المراجع، وهى قديمة فى الغالب، فقد تسلى بتجارب جيلبرت وهاجمها بقوة.

إن الخوف من الحياة فوق كوكب متحرك لابد أنه كان الأساس وراء رفض فكرة دوران الأرض من جانب شكسبير وبيكون وسواهما من أعظم عقول العصر. إن الأرض المتحركة يمكن أن تتعرض لحادث عارض ومؤسف، أما الأرض الثابتة فهى أكثر أمناً. وفى كثير من أعماله كان شكسبير أميل إلى تقبل النظام السابق على كوبرنيكوس، أما فى دخيلته فلابد أن الشاعر كان يعرف السبب الذى يجعل هذا أمراً واضح الخطأ، فلو أن الأرض لا تتحرك حول الشمس، ولا تدور على محاورها، فلابد، إذن، من أن تدور الكواكب حول الأرض بسرعة الضوء كل يوم، ولا شىء يمكن مقارنته بهذا نعرفه على الأرض.

السموات ذاتها، والكواكب، وهذا المركز
يلتزم الدرجة والترتيب والموقع..
ولكن حين تدخل الكواكب..
فى مزيج الشر، والفوضى تطوف
يالها من طواعين، يالها من نذر، من تمرد..
ياله من هياج فى البحر، واهتزاز فى الأرض
وانطلاق للريح، والرعب، والتغير، والمخاوف
الصدوع والشقوق، الإبادة والاستئصال..

(ترويلوس وكريسيدا، الفصل الأول)

هذه الفوضى فى الطبيعة يعقبها "هجوم وشجب" مماثلان بين

الكائنات الإنسانية.

المياه المقيدة
سوف ترفع صدروها أعلى من الشواطئ
وتجعل كل هذه الأرض الصلبة نقيعاً
والقوة ستصبح سيدة البلاهة
والابن الغليظ يضرب أباه حتى الموت..

(ترويليوس وكريسيدا، الفصل الأول)

وتنهض الذاكرة النوعية من سجنها الغارق:

(الملك لير): ازفرى يا رياح، وشققى خديك، ثورى واعصفى، وأنت يا شآبيب ودوافق انهمرى، حتى تغرقى الشواهق.. (ثم يطلب) اقصفى يا رعود، واسطحى كروية الدنيا الكثيفة..

(الملك لير، الفصل الثالث)

ويسأل الشاعر على لسان إحدى شخصياته:

وأنت.. ألا تتأثر حين يترنح كل ما على الأرض
ويهتز مثل شيء غير راسخ؟
... ولكن لم يحدث أبداً قبل الليلة.. قبل الآن
أن اجتزت عاصفة تسقط اللهب..
إما أن فى السماء نضالاً مدنيا دائراً..
أو أن العالم قد أصبح وقحاً مع الآلهة..
ويداهنها حتى ترسل الدمار.

(يوليوس قيصر، الفصل الأول)

وسلسلة من الخيالات فى عقل هوراشيو (هاملت) تعيد إيقاظ رؤية قديمة، إنه هذا الفزع الذى لا يخمد أبداً، والذى أثاره ظهور مذنب متوهج وغير عادى فور موت قيصر، وانتظر العالم يوم القيامة:

فى دولة روما، فائقة السمو والازدهار

قبل أن يسقط يوليوس العظيم بلحظة واحدة
وقفت القبور غير مأهولة، والموتى فى أكفانهم
يُصِّرون ويبربرون فى شوارع روما
فى حين أن النجوم تتبعها ذيول من اللهب، ومنداة بالدم
كارثة فى الشمس، وكارثة فى النجم المخضل (القمر)
وعلى نفوذهما تقوم مملكة نبتون
كانت تقريباً تنتظر يوم القيامة والخوف

(هاملت، الفصل الأول)

ولتأجيل يوم القيامة لابد من أن تكون الأرض ثابتة، هكذا عبر الشاعر عن إيمانه "بالكوكب والمركز.. والدرجة والترتيب والموقع..". ظلت هذه الترنيمة الشعرية مسموعة بعد شكسبير بثلاثة قرون ونصف القرن.

ظل الموت

إن رؤية العالم كما لو كان يسير نحو الاصطدام بجسم ملتهب تظل تتضخم ويتزايد خطرها، أو سلاسل الخيال حول معركة بين الكواكب، كلها تعيد إلى الذاكرة - إلى حد ما - الأحداث التى شهدتها الإنسانية المذعورة وهددتها بالفناء. مثل هذه الرؤى عادت إلى الظهور لدى أشخاص تتملكهم النشوة، وفى الشعر ذى الغنائية المسرفة، وفى أحلام وكوابيس البشر العاديين. إن الأمواج العالية التى تندفع عالية، ثم تهبط، والزلازل على كل مستويات الأرض، وأمطار النار المتساقطة من الفضاء، والجبال الملتهبة، التى تتفجر حين يكتسحها المد الذى يغزو القارات، والأمواج تحمل بقايا من حواجز الجبال الأخرى، وهذه الأخيرة خارجة لتوها من السهول -

تلك الرؤى وشبيهاتها هى من مخزون العقل اللاشعورى عند الإنسان، ترتفع أحياناً إلى مستوى ما قبل الشعور، ومنه إلى عالم الاستبصار الشعرى، أو - حسبما تكون الحالة - فى كوابيس البشر لتوقظهم غارقين فى العرق البارد.

تعرفت فى لحظات كثيرة على انعكاس - بلا قناع - لأحداث شهدها الأسلاف المرتعبون؛ أحداث يرجع معظمها إلى انقلاب الطبيعة قبل أربعة وثلاثين قرناً، وكنت أتطلع أيضاً إلى انعكاس مماثل لخبرة الأجداد الذين بقوا على قيد الحياة بعد انقضاض الأحداث الكارثية، التى تضعف فى شبه الظلام الذى يغلف العالم. فى "عوالم فى تصادم" أوضحت كيف أن "ظل الموت" هو الاسم الذى يطلق على الشروط التى أعقبت زيارة جسم سماوى سيار، فى القرون التالية أصبح هو كوكب الزهرة - واقتبست سطوراً يتم تجاهلها عند إرميا (٢: ٦) عن جيل الصحراء الذى كان يتلمس طريقه فى "ظل الموت"، ويُصر التراث العبرى على أن هذا الجيل كله كان مقضياً عليه بالفناء فى الصحراء، وتشير إليه الميثولوچيا الچرمانية بكلمة Gotterdaemmerung.

فى التراث المكسيكى القديم، المحفوظ فى الطقوس المقدسة، حديث عن الظلمة العميقة التى أحاطت بالقارة الغربية لمدة ربع القرن، وأعيد هنا نصاً موجزاً عن تشارلس ايتيين براسير، المكتشف وعالم الآثار من القرن التاسع عشر: "هبط ليل شامل على كل الأرض الأمريكية، يتحدث عنه التراث بالإجماع، بمعنى من المعانى لم تعد الشمس موجودة فوق هذا العالم المخرب، أحياناً، وعلى فترات متباعدة، كانت تضيئه الحرائق المخيفة، كاشفة عن الرعب الكامل لدى تلك الحفنة القليلة من البشر، الذين نجوا من تلك الكوارث.."، (١) وفى القسم الذى يحمل عنوان "ظل الموت" (عوالم فى تصادم، ص ١٢٦ - ١٣٤) اقتبست تقاليد مكتوبة فى

لغات قديمة أخرى تتحدث عن الزمن الذى بعثرت فيه السماء، النهار أصبح معتماً، وظلت هذه العتمة لعقود، والأرض احتشدت بمخلوقات كريهة ومؤذية.

وقد فنى جيل "ظل الموت" كله تقريباً، وظهر نسله فى الخبرة الصادمة الممتدة لعالم يموت - فى أيسلندا يقول التراث إن من بقى على قيد الحياة من البشر بعد "شتاء فمبول" المعتم لا يتجاوز رجلاً وامرأة واحدة. ولابد من أن هذا كله قد تم اختزانه فى هذا المخزن بالغ الثراء، وإن كان محكوماً عليه بالنسيان، فيما قبل الشعور من العقل الإنسانى.

أحد أصدقائى العارفين بطبيعة بحثى أرسل إلىَّ هذه القصيدة من شعر اللورد بايرون، وعنوانها "الظلام":

رأيت حلماً، لكنه لم يكن كلُّهُ حلماً
الشمسُ الساطعةُ انطفأت، والنجومُ
تترنح، منطفئةً، فى الفضاء اللانهائى
دون أشعةٍ، فى سبل غير مطروقة، والأرض الجليدية
تتخبط، عمياء، معتمة، فى هواء لا قمر فيه
الضحى جاء وذهب، وجاء ولم يأت بالنهار
ونسى الناس عواطفهم فى غمرة الخوف
من الفناء، والقلوب
ترتجف بضراعة أنانية من أجل الضوء
عاشوا بالفعل فى نيران الحراسة - العروش
وقصور الملوك المتوجين - الأكواخ
ساكنو كل ما يصلح للسكنى
احترقوا وأصبحوا ناراً مخدرة، المدن استهلكت
وتجمع الناس حول بيوتهم المضطرمة بالنار
كى ينظر كل فى وجه الآخر من جديد.

سعداء كانوا أولئك الساكنين في فوهات
البراكين، بمشاعلهم الجبلية
كان العالم لا يحتوى إلا على أمل خائف
الغابات اشتعلت فيها الحرائق، وساعة بعد ساعة
كانت تسقط وتنطفئ، والجذوع المتأججة بالنار
تنطفئ في صخب - وكان كل شيء أسود
هيئات الناس في الضوء المتلاشى
تكتسى ملامح غير إنسانية، كأنما نوبات مرض
تسقط عليهم الأشعة، بعضهم راقد
يخفي عينيه ويبكي، وبعضهم يريح ذقنه
على قبضتيه المضمومتين، ويبتسم
وبعضهم يسرع جيئة وذهاباً، يطعم
محرقته الجنائزية بمزيد من الوقود، ويتطلعون
إلى فوق، بترقب مخبول، إلى سماء غبية جهمة
نعش عالم في الماضى، ثم مرة أخرى
تسقطهم اللعنات فوق التراب
يصرون بأسنانهم، وينبحون، والطيور المتوحشة تزعق
ثم، مذعورة، تحط بارتباك على الأرض
تخفق بأجنحتها التي لا جدوى منها، وأكثر البهائم ضراوة
تأتي أليفة، مذعورة، والأفاعي تزحف
وتزاوج نفسها وسط الحشد
وهي تفح وتهس..

... لم يعد ثمة حب
لم تكن على الأرض سوى فكرة واحدة، تلك هي الموت
مباشرة، وبلا مجد، ولذعة

المجاعة تقتات على الأحشاء كلها
مات البشر، ولم تجد عظامهم قبوراً، ولا لحومهم
وشيئاً ضئيلاً فشيئاً ضئيلاً.. تبددت

.. العالم كان خواء..
لا فصول فيه، لا أعشاب فيه، لا شجر فيه، لا إنسان فيه، لا حياة فيه
كومة من الموت، أوحال لا شكل لها..

لم يولد خيال بايرون بأمرٍ من الشاعر، ولم يستمد جوهره الإبداعى من فراغ، خالقاً صوراً ومواقف من ذاته هو، ليست مألوفة لسواه من الناس.

تفاصيل القصيدة، مثل إشارته إلى البراكين التى تتوهج فى الظلام، أو المخلوقات التى تستولى على عالم أقفر فجأة وخلا من سكانه، أو أسراب الطيور المتوحشة التى تحط مذعورة على الأرض، والعالم يعانى وخز الجوع واليأس، كل هذه تبدو أصداء لانطباعات قديمة. ولم يبد بايرون وعياً يتشابه وقصيدته مع الشروط التى سادت زمن "الخروج" والتيه فى الصحراء حين نشر على قرائه صورة عالم يتجه نحو النهاية. ولكن هذه هى الكيفية التى لابد أن الذين بقوا على قيد الحياة من الصدمة الأساسية - التى كانت مدمرة بلاشك - صوروا بها وجودهم فى عالم يلفظ أنفاسه الأخيرة دون بعث أو نشور. ألم تكن هذه بعض أحداث حقيقية دفنت فى روح الإنسان أكثر من ثلاثين قرناً الصورة الكئيبة لأسراب الطيور التى تحط بلا أمل على أرض بين تائهين جوعى فوق أرض تدوِّم فى الرماد؟

فى "الأرض فى اضطراب" حاولت أن أعود لألقى الضوء على أثر

البيئة المتغيرة على المملكة الحيوانية حتى لو لم يكن الإنسان موجوداً ليستوعب هذه الانطباعات. ورسمت المشهد كما رأيته من خلال الشواهد التى قدمتها الأحجار والعظام:

"... فى محيط متغير، وسط تقلبات مناخية، ومراع ذاوية، ونباتات خدمت طويلاً كطعام، أو حيوانات خدمت طويلاً كفرائس، فإن هذه القلة سوف تتبع البقية فى خسران المعركة من أجل الوجود، وتستسلم فى النهاية فى الصراع لبقاء الأنواع.

الغابات المحترقة والبحور الخارجة عن شطآنها والبراكين الثائرة والأرض الغارقة تتقاضى ضرائبها، الحقول التى أفقرت والغابات التى احترقت لا تقدم الشروط المرغوبة للناجين المذعورين المتوحدين.. وتطالبهم بأداء دورهم فى فعل الانقراض..".

إن لورد بايرون لم يكتب فى قصيدته صورة عالم يموت "فى المستقبل"، كما ظن أنه فعل، لكنه استقى من نبع موجود لدى البشر كلهم، بل لدى المملكة الحيوانية كذلك.

"بعد اليوم.. أبداً.."

كتب "إدجار آلان بو" قصة قصيرة "حديث إيروس وشارميون". حين انتهت حياة إيروس على الأرض وصل إلى الآخرة، وهناك تلقى التحية من شارميون. كانا يعرفان أحدهما الآخر منذ كانا على الأرض. كان شارميون قد قضى بضع سنوات قاطناً فى "أرض النعيم" (عدن)، قال:

"إننى أحترق من القلق لأسمع تفاصيل ذلك الحدث المذهل الذى قذف بك إلينا. حدثنى عنه.. عن العالم الذى فنى على هذا النحو المرعب.. حين كنت قادماً من بين الناس عبرت فى الليل عن طريق القبر.. فى هذه الفترة - إن صدقت الذاكرة - فإن الكارثة التى

قضت عليك لم تكن مرتقبة على الإطلاق، لكننى، فى الحقيقة، أعرف القليل عن الفلسفة التأملية اليوم.."

أجابه إيروس:

"الكارثة الفردية لم تكن، كما قلت، مرتقبة على الإطلاق، لكن أحداثاً سيئة مماثلة كانت موضوعاً دائماً للجدل والنقاش مع الفلكيين، ولست بحاجة لأن أقول لك، يا صديقى، إنه حتى حين غادرتنا كان الناس متفقين حول فهم تلك المقاطع التى جاءت فى أكثر الكتابات قداسة، تتحدث عن الدمار النهائى لكل الأشياء بواسطة النار، مع إشارة خاصة لمدار الأرض وحدها. أما فيما يتعلق بالعامل المباشر لهذا الدمار، فإن التأمل قد أخطأ بسبب المعارف الفلكية فى تلك الحقبة، والتى كانت المذنبات فيها مجردة من رعب اللهب، والكثافة المعتدلة لتلك الأجسام كانت أمراً معروفاً، وقد لوحظ عبورها بين أقمار المشترى دون أن تحدث أى تغير محسوس فى هذه الكواكب الثانوية من حيث كتلتها أو مساراتها. وكنا، لزمن طويل، نعتبر تلك الطوافات كمخلوقات ضبابية نتيجة ضعف لا ندركه، وأنها جميعاً عاجزة عن إحداث أى جرح فى كرتنا الراسخة، حتى لو حدث احتكاك أو تلامس، فالتلامس، على أى درجة من الدرجات، لم يكن مصدر خوف، لأن عناصر جميع المذنبات كانت معروفة على وجه الدقة، وظلت فكرة أن نبحث "بينها" عن عامل هذا التهديد بالنار غير مقبولة لسنوات طويلة، غير أن الطوافات والأفكار الضارية أصبحت شائعة بين الناس على نحو غريب فى هذه الأيام الأخيرة، ورغم أن قلة من الجهال فقط هم الذين كان ينتشر بينهم هذا الفهم، إلا أن الإعلان من جانب الفلكيين عن مذنب "جديد"، يقابل بما لا أعرف من الإثارة وعدم الثقة.

وعلى الفور، يتم حساب عناصر هذا الجسم السماوى الغريب، وعلى الفور أيضاً يتفق جميع المراقبين على أن مساره، فى

الحضيض الشمسى، سوف يجعله قريباً جداً من التماس بالأرض. وكان ثمة فلكيان أو ثلاثة، من ذوى الأهمية الثانوية، هم الذين أصروا على أن هذا التماس لا يمكن تجنبه، ولا أستطيع أن أعبر لك بدقة عن أثر هذا النبأ على الناس. ولعدة أيام قليلة وقصيرة لن يكونوا قادرين على تصديق الحقيقة التى لا تستطيع عقولهم - التى طالما استخدموها فى شؤون الدنيا - أن تتقبلها، لكن الصدق فى حقيقة بالغة الأهمية سرعان ما تجد طريقها حتى إلى عقول أكثرهم بلادة. وأخيراً يرى الناس جميعاً أن المعرفة الفلكية لم تكذب، وهم ينتظرون المذنب، إن اقترابه، فى البداية، يبدو سريعاً، ولا كان ظهوره ذا طبيعة غير عادية، كان أحمر باهتاً، له ذيل لا يكاد يدرك، ولسبعة أيام أو ثمانية، لم نشهد أى زيادة مادية فى قطره الظاهر، وليس ثمة سوى تغير طفيف فى لونه، فى الوقت ذاته نُبذت الاهتمامات العادية للناس وانصرفت اهتماماتهم كلها إلى مناقشة طويلة، تبدأ بالنقاش الفلسفى، حول طبيعة المذنبات، حتى أكثر الناس جهلاً سوف يوردون أقوالهم البليدة حول الموضوع. إن المتعلمين "اليوم" لا يعطون عقولهم، أرواحهم، لأمور مثل تهدئة المخاوف، أو دعم نظرية الحب، لقد بحثوا وتعبوا من أجل وجهات نظر صحيحة، ويتأوهون من أجل اكتمال المعرفة. وتنهض "الحقيقة" فى نقاء قوتها وجلالها، وعلى العاقل أن ينحنى لها احتراماً..

"هذا الجرح المادى لكوكبنا أو لأهله الذى يمكن أن ينتج عن هذا التماس القريب، كان فكرة تفقد أرضاً كل ساعة بين العقلاء" وأصبح هؤلاء العقلاء أحراراً فى الحكم على عقل الجماهير وخيالها، وقد أصبح واضحاً أن كثافة "النويات" فى المذنب كانت أقل بكثير من أندر الغازات لدينا، وكان هذا العبور غير الضار لزائر مماثل بين الأقمار التابعة "للمشترى" نقطة تم تأكيدها بقوة مما خفف من

الفزع إلى حد كبير. أما رجال اللاهوت فقد اعتمدوا - بجدية يشعلها الخوف - على نبوءات الكتاب المقدس، وتوسعوا فى تطبيقها على الناس فى مباشرة وبساطة لم يعرف لها مثيل من قبل. وكون الدمار النهائى للأرض لابد أن يحدث نتيجة عامل النار، كان يحاجج به دائماً بروح تدعم الاقتناع به فى كل مكان، ثم إن المذنبات ليست ذوات طبيعة نارية، (وهو ما أصبح معروفاً للجميع) وهذه حقيقة أراحت الجميع - وعلى نطاق واسع - من تفهم الكارثة الكبرى المنتظرة. ومن الملاحظ أن التحيزات الشائعة بين الجماهير، وكذلك أخطاءهم المبتذلة فيما يتعلق بالطواعين والحروب - وهى أخطاء تعود للظهور كلما لاح مذنب - قد اختفت تماماً، وكأنما فى انقلاب مفاجئ، قام العقل بإزاحة الخرافة عن عرشها، واستمد أضعف العقول القوة من هذا الاهتمام الجارف.

"أما الشرور الصغرى التى يمكن أن تنتج عن هذا التماس فكانت موضوع تساؤلات جادة. تحدث العارفون عن اضطرابات چيولوچية طفيفة، وتغيرات مناخية محتملة تؤدى إلى تغيير فى النباتات، وتأثيرات مغناطيسية وكهربية محتملة. وقال كثيرون إنه لن ينتج أى تأثير مرئى أو مدرك، وبينما كانت هذه المناقشات دائرة، كان الموضوع الذى تدور حوله يقترب تدريجياً، وقد أصبح قطره المرئى أكبر ولمعانه أكثر بريقاً، وصار الإنسان أكثر شحوباً لدى ظهوره، وأوقفت كل الأنشطة الإنسانية.

وجاءت حقبة فى مسار الحس العام حين أصبح المذنب، من حيث الطول، يتجاوز أياً من الزيارات السابقة المسجلة. وأصبح الناس، وقد صرفوا النظر عن ذلك الأمل المتلكئ بأن الفلكيين مخطئون، يعانون يقين قدوم الشر، ومضى الجانب الوهمى من فزعهم، وخفقت قلوب أكثر الناس شجاعة فى صدورهم بعنف، وكانت أيام قليلة كافية لأن تمزج حتى مثل هذه المشاعر بعاطفة لا يمكن تحملها،

ولم نعد قادرين على أن نطبق على هذا الجسم السماوى الغريب أية أفكار "معتادة"، فقد اختفت خصائصه التاريخية. لقد أثقلت علينا "بجدّة" خفية فى الانفعال، لم نعد نراها ظاهرة فلكية فى السموات، بل كابوساً يحط على قلوبنا، وظلاً يسقط على عقولنا. لقد اتخذ - بسرعة لا تصدق - طابع عباءة ضخمة من اللهب النادر، تمتد من الأفق للأفق.

"حتى جاء يوم استطاع الإنسان فيه أن يتنفس بحرية أعظم، فقد بدا واضحاً أننا - بالفعل - داخل تأثير المذنب لكننا رغم ذلك مازلنا نعيش، بل إننا حتى شعرنا بمرونة غير عادية فى إطار العقل وحيويته. وبدا واضحاً الشحوب المتزايد لموضوع خوفنا، لأن كل الموضوعات السماوية كانت مرئية بوضوح من خلالها، فى الوقت نفسه فإن نباتاتنا قد تغيرت على نحو ملحوظ، وازددنا يقينا - نتيجة الشروط التى تنبأوا بها - ببعد نظر الحكماء، وظهرت نباتات ذات أوراق بالغة النماء والازدهار - غير معروفة من قبل - على كل شىء ذى خضرة.

ثم جاء يوم آخر، وفيه انزاح الشر عنا تماماً. فقد بدا واضحاً أن النواة لابد أن تصل إلينا أولاً، واجتاح تغيير عنيف كل بنى الإنسان، وكان أول احساس "بالألم" هو الإشارة الضارية لنواح عام وفزع عام. كان أول إحساس بالألم هو تقلصات عنيفة فى الصدر والرئتين، وجفاف لا يحتمل يصيب الجلد. ولم يعد ممكناً إنكار أن الغلاف الجوى قد تأثر تأثراً جذرياً وأنه وراء هذا الإحساس، وأصبحت هذه هى موضوعات الجدل والنقاش، وبعثت نتيجة الفحص رعشة كهربية بأقصى درجات الفزع إلى القلب العالمى لبنى الإنسان.

"هل أنا بحاجة، يا شارميون، كى أصور لك سعار الإنسان الذى

انطلق غير مقيد؟ تلك الرقة التى كانت للمذنب، والتى أمدتنا بالأمل، أصبحت الآن مصدراً ليأس مرير. أدركنا بوضوح من طابعه الغازى غير المحسوس تحقق المصير. فى الوقت نفسه، انقضى يوم حاملاً معه آخر ظل من ظلال الأمل، ولهثنا فى التغير السريع للهواء، والدم الأحمر يتدفق بصخب فى القنوات المحددة له، واستولى هياج عنيف على البشر كلهم، وبأذرع متصلبة مرفوعة إلى السماء المهددة، كانوا يرتجفون ويصيحون بأصوات عالية، غير أن نواة المدمر كانت فوق رءوسنا، حتى فى عدن. إننى أرتجف وأنا أحكى لك. سأختصر، سأكون مختصرا مثل الخراب الذى حل، للحظة كان ثمة ضوء وحشى متوهج، وحده، يحط على كل الأشياء ويتخللها، ثم - دعنا ننحن يا شارميون أمام الجلال الطاغى للإله العظيم - جاء صوت صارخ وشامل، كأنه من فمه، سبحانه، فى الوقت ذاته، فإن الغلاف الأثيرى الحاضن لنا قد انفجر ألواناً من اللهب القوى؛ هذا التوهج الفائق، وتلك الحرارة المتوهجة، حتى الملائكة فى السموات العليا أصحاب المعرفة الخالصة لم يعرفوا لهما اسماء. هكذا انتهى كل شىء..".

إن وصف اصطدام الأرض بمذنب جوال، الموجود عند لابلاس، لا يمكن أن يكون قد ساعد "بو" كنموذج وحيد. ذلك أن لابلاس قصر وصفه على الظواهر الفيزيقية ونتائجها، فى حين تناول بو الأحاسيس البصرية والسمعية، ولكن - بشكل أساسى - على القلق العقلى للإنسانية فى وجه الحدث النهائى الوشيك. وثمة حقائق معينة وردت الإشارة إليها، والتى لا يمكن أن تكون مستمدة من جماع المعرفة العلمية المتاحة فى زمن بو، قبل ثلاث عشرينات من السنوات تقريباً قبل ملاحظات عالم النبات الهولندى هوجودى فريس (١٩٠٠) عن زهرة الربيع، والتغيرات الاحيائية - التلقائية

والبدائية - التى تحدث لها.

والحجج الفلكية التى يسوقها بو لابد أن تصدم القارئ الذى يعرف شيئاً عن الجدل الذى ثار فى خمسينيات القرن الماضى، (لم يثر بسبب ظهور مذنب، ولكن بسبب صدور كتاب)، كالمعتاد: المذنبات أجسام دون جواهر، ولم يحدث أن أثار أى منها اضطراباً لأى من أقمار جوبيتر وهى تجتاز هذا النظام، وما إلى ذلك. إذن فثمة إغراء بأن يرى المرء الشاعر سابقاً على العلم، رغم أن دراسة الأدب ستكشف أن الفلكيين - فى عصرهم - كانوا يستخدمون ذات الحجج لإثارة التوقع الخائف من اقتراب مذنبات مرئية. إن هذا قد يفسر - عقلياً - بعض العناصر فى قصة بو، ولكن ليس كلها.

إن القلق الذى يثيره بو مؤثر من حيث إنه تراث جيل منقرض، الأفضل أن نقول: أجيال منقرضة، وديعة لا يتم الاعتراف بها، لكنها حقيقية، وتثير اضطرابات عميقة، تحت الحجاب الذى يمثله العقل الواعى، عند العالم ورجل الشارع على السواء. بالاستبصار الشعرى، أزاح بو هذا الحجاب الحاجز، وكان الكرب كله هناك بكل خوفه وفزعه، ينبع، ثم يمضى فى حركة مد وجزر، تصاعد وتنازل، حتى تفجر أخيراً على نحو لم يعرفه إلا الإنسان المعاصر، حين حدث أول انفجار ذرى فى صحراء لاس ألاموس.

لقد استشعر بو القلق الخبئ عند نوعنا كله، حين نظر إلى تحلل الحياة على الأرض كما حدث بالفعل. إن "أرض الظلال"، وجودنا الأرضى، أصبح وراءنا. "انتهى كل شىء". وليس ثمة تقارير مسجلة عما يكون قد حدث لقاطنى كواكب أخرى من تلك التى تقوم بدورها فى الدوران حول الشمس حسب مسارات منتظمة وإن تكن متغيرة، ولا شىء يكشف أن هذه الكواكب قامت فى أى منها حياة متقدمة قبل أن تتحلل إلى عناصر، قالت بوضوح: "بعد اليوم.. أبداً".

چول ڤيرن (١٨٢٨ - ١٩٠٥) نمط جديد من الأنبياء. لا شىء فيه من مواطنه نوستراداموس الذى سبقه بثلاثمائة سنة، ولا شىء فيه من الصوفية. كل ما لديه خيال جامح للقصص العلمية. فقد وصف بعض المؤسسات المغامرة فى زماننا. وفيما يتعلق بسفر الإنسان إلى القمر، فقد استطاع - على نحو خارق، وقبل مائة عام من "أبوللو"، ابتكار عدد من التفاصيل التى أصبحت حقيقة مع بعثة ١٩٦٠. لكنه حين بلغ الستين جف نبعه، وانتزع وديعته هـ. ج. ويلز.

فى "آلة الزمن" و"الحرب من أجل العوالم" و"أيام على المذنب"، مزج ڤيرن رواية الخيال العلمى بالرواية الاجتماعية، وحمله تفاؤله الغامر، وحمل قراءه معه، على الإيمان بأن الإنسان لا حدود له، حتى السماء. كما ألف أيضا "تاريخ العالم" الموجز والشهير، وتميز بين أولئك الذين كانوا ملحدين أو معادين لرجال الكهنوت، لكنهم رغم ذلك يرون أن مستقبل الإنسان مستقبل مشرق، وأنه يستحق أن يكون أفضل، وأن الحياة هى وقت للمتعة. وعلى أية حال، فإننى لا أعرف ويلز المعرفة التى تؤهلنى لأن أناقشه كفيلسوف، وكنبى من أنبياء التقدم العلمى، فرغم أنه كان دائماً مترعاً بالتفاؤل، إلا أنه لم يكن على مستوى التقدم الخيالى الذى كان مختزناً، ففى مقال له نشر فى ١٩٠٧ عن "وسائل النقل فى القرن العشرين" أكد أن الطيران لن يصبح أبداً من وسائل النقل الجماهيرية؛ فالتقدم الخطر فى الاكتشافات والاختراعات التى جعلت هذا القرن - لدى مقارنته بالسابق عليه - يبدو كما لو كان من حقبة أخرى من تاريخ العالم، قد جاوز خيال كتاب رواية الخيال العلمى. ولكن فى الأسبوع الأول من أغسطس ١٩٤٥، انتشرت سحب مثل الفطر على

مدينتين فى جزر بعيدة، كتبت - بخط اليد - على صفحة السماء معلنة أن تفاحة شجرة المعرفة قد أصبحت من ثمار سادوم.

قبل أن يوجد هذا الحدث، قضى العالم ست سنوات مسعوراً بالدمار، يصارع من أجل الألفية الجرمانية (التيوتانية)، وكان ويلز يجلس فى لندن، يلقى اهتماماً ضئيلاً إلى القنابل المتساقطة من حوله، يتأمل أمراضه التى أصبحت عديدة، ويكتب "العقل فى أقصى طاقته". لم يكن العصر الذرى قد حلَّ بعد، لابد أنه كان الفزع الموروث عن الأسلاف، لم يسبق له أن طفا على السطح عنده، أو لعلها كانت رؤية حبلى بالمستقبل، رجم بالغيب يتركز على المستقبل القريب، تلك التى حولت رجلاً قضى عمره الطويل مبشراً بمبدأ اللذة والمتعة إلى عراف يقول بالنهاية الوشيكة.

إنه يبدأ هكذا: "يجد الكاتب أسباباً معتبرة للاعتقاد بأنه - خلال فترة تقدر بالأسابيع والشهور، لا بالدهور - قد حدث تغير أساسى فى شروط الحياة، لا الحياة الإنسانية وحدها، بل كل الوجود الواعى بذاته. إنه اقتناع مروع يجده الإنسان قائماً فى عقله، يدفع به إلى استخلاص نتائج لن تكون مقبولة، على الإطلاق، لعقل الإنسان العادى..".

ويواصل، متحدثاً عن نفسه فى صيغة الضمير الثالث: "إذا كان تفكيره سليماً فسوف يرى أن هذا العالم فى أقصى طاقته، ونهاية كل شىء ندعوه الحياة هى فى متناول اليد ولا يمكن اجتنابها. إنه سيقول لك النتائج التى فرضها الواقع على عقله، وهو يظن أنك مهتم بما يكفى كى تضعها فى اعتبارك، لكنه لا يحاول أن يفرضها عليك. وسوف يبذل ما فى وسعه كى يوضح لماذا خضع لمثل هذا الافتراض المذهل.. وهو يكتب تحت إلحاح التوجه العلمى الذى يلزمه بأن يوضح أفكاره وكلماته إلى أقصى حدود الطاقة.."

ولا يمكننا القول بأن ويلز قدم فى الصفحات التالية أى شىء

يمكن اعتباره حجة علمية، أو دليلاً من الطبيعة أو التاريخ، أو سراً من أسرار الحرب. إنه ليس ما زعم أنه هو، إنه رؤية خيال، يرى المستقبل أو يعرف الماضى الخبئ.

إن الأمر يقتضى جهداً كبيراً ومركزاً من أجل التيقن، ويتطلب إعادة التذكير وإنعاش الذاكرة على نحو دائم، من جانب العقل العادى كى يدرك أن الحركة الكونية للأحداث تميل - على نحو متزايد - نحو البناء العقلى لحياتنا اليومية. وهذا يقين يجد الكاتب من الصعب عليه أن يدعمه، لكنه حين يتمسك به يجد دلالة العقل تشحب، وتفقد العملية العلمانية ما كانت تبدو عليه دائماً من حيث هى نظام عقلى..".

وبعد أن يشرح ما يعنيه بوصف "العلمانية" كإشارة للأبدية، يواصل ويلز مشيراً لنفسه دائماً بضمير الغائب:

"العملية العلمانية - كما يراها الآن - منسجمة تمام الانسجام مع إيقاعات غير عقلية، مثل تجمع المادة ذات الطابع البللورى فى عروق معدن، أو تحليق المطر فى ظاهرة جوية. تمضى العمليتان موازيتين لما ندعوه الأبدية، والآن تنفصلان قسراً إحداهما عن الآخرى، تماماً مثل المذنب فى الحضيض الشمسى يتعلق بسطوع فى السماء مدة فصل كامل، ثم يندفع ليغيب عصوراً أو للأبد. وقد تقبل العقل الإنسانى العملية العلمانية باعتبارها عقلية، ولا يمكن أن تحدث على نحو آخر، لأنه كان يتطور كجزء أو قسم منها.."

ولكن كيف يجمع ويلز - فى استعارة واحدة - المطر فى ظاهرة جوية، والمذنب الساطع فى السماء. أليس التشبيه هنا أكثر من تشبيه؟

فى كل ما قاله عن اليوم الآخر لم يتوجه ويلز - ولا مرة واحدة - بالشك نحو الإنسان وفعل الإنسان، بل إن الطبيعة قد غيرت تدفقها، والحياة محكوم عليها بالفناء.

"إن الحقيقة تسطع ببرود وقسوة فوق أى من هؤلاء الذين يصرفون عقولهم عن أوهام السواء أو العادية المريحة، ويواجهون المسؤال القاسى الذى أرهق الكاتب؛ إنهم يكتشفون أن شذوذا مخيفاً قد جاء الحياة. حتى أولئك غير المنتبهين من البشر اليوم يكشفون، فى الدورات والبدايات، دهشة معينة، إحساساً هائماً شارداً بأن ثمة شيئاً يحدث، لن تصبح الحياة بعده، هى ذاتها "تماماً" مرة أخرى..".

ثم يتوجه ويلز نحو القارئ ناصحاً: "انتشر وتفحص نمط الأحداث وسوف تجد نفسك وجهاً لوجه أمام مخطط جديد للوجود، لا يتخيله العقل الإنسانى حتى اليوم؛ هذا السطوع الجديد البارد يعشى العقل الإنسانى ويتحداه، رغم ذلك فمثل تلك الحيوية العنيدة للنزعة الفلسفية عند العقول ذات الطبيعة النهمة تجعلهم ما يزالون - تحت وطأة إلحاحها البارد - يلتمسون طريقهم خارج المأزق أو حوله أو خلاله.. ويعتقد الكاتب أنه ليس ثمة طريق خارجه أو حوله أو خلاله. إنها النهاية". ويعود ويلز مرة أخرى إلى التشبيهات التى تلقى ظلال الشك على الدلالة الحقيقية:

"حتى هنا فإن الأحداث قد ترابطت معاً حسب اتساق منطقى معين، مثل الأجسام السماوية التى نعرف أنها تترابط معاً عن طريق الجذب، أو الحبل الذهبى، للجاذبية. الآن يبدو الأمر كما لو أن هذا الحبل قد تلاشى وأصبح كل شىء يندفع كيف يشاء وإلى أين يشاء بسرعة متزايدة..

"وحد التطور العلمانى المنظم للحياة قد أصبح ثابتاً لدرجة أننا نستطيع أن نضع تخطيطاً للأشياء التالية. لكن هذا الحد تم بلوغه وتجاوزه وتحول الآن إلى فوضى لا تصدق..

"الأحداث يتبع واحدها الآخر، الآن، حسب تتابع غير موثوق به، ولا أحد يعلم ما سيأتى به الغد، ولكن لا أحد - سوى فيلسوف من

فلاسفة العلم المحدثين، يمكنه أن يتقبل حقيقة عدم الوثوق هذه كاملة.. إنه يعرف، لكن الكثرة لا تعرف، وليس لديها الميل لأن تعرف، وبالتالى فهى لن تعرف أبداً..".

أبداً؟ إذا كان الكون يقترب من الفوضى، وقوانين الطبيعة سرعان ما سيتوقف عملها، فلن تكون هناك أسرار فيما يتعلق بطول الزمن، ولكن فى ذات الوقت:

"فى هذا الجهل الذى لا يقهر من جانب الجماهير الغبية تكمن حصانتها ضد كل التساؤلات التى تثير سخط العقل..

"إنها بحاجة لألاّ تعرف أبداً"؛ فسلوك القطيع الذى تحيا وتتحرك وتمارس وجودها خلاله سيظل لفترة قصيرة يقدم المادة الملائمة لذلك التعليق المتفهم أو المبتهج أو المأساوى أو المثير للسخرية والذى يشكل الفن والأدب، قد يكون العقل قارب أقصى طاقته، لكن دراما الحياة اليومية هذه ستظل على حالها، لأن هذا هو التكوين العادى للحياة وليس ثمة شىء آخر ليحل محله..".

وبالنسبة لمراقب من كون بعيد وغريب تماماً، إذا افترضنا هذه الاستحالة، فقد يبدو له أن الفناء قادم للإنسان مثل هزيم رعد قاتل

".. وأننا قد نكون منزلقين أكثر وأكثر بنعومة نحو دوامة الفناء.. لكننا لا نتفهم عن الأمر شيئاً كثيراً.."

إن قناعاً من الكآبة العميقة يهبط على أكثر الكتابات ثورية عند كتاب هذا الجيل، لم تكن قضية مؤمن بالدين يفقد إيمانه، فقد كان هـ. ج. ويلز ملحداً منذ شبابه، إنه لم ير النهاية على طريقة جدارية مايكل أنجلو فى سيستين ولا رأى فناء الإنسان، ومعه كل أشكال الحياة، باعتباره أعظم كوارث "النوع الإنسانى" لمحاولته بلوغ الذروة الممنوعة. فقد كان المظنون أن الطبيعة، وكل قوانينها، إنما هى أبدية، وهى تحل نفسها بنفسها.

"إن ثمة انحرافاً خشنا يطغى على الأشياء، ويدفع إلى الماضى ما

كنا نود أن نعتبره، حتى الآن، الحدود التى تعين الحقيقة الصلبة.. إن الحقيقة الصلبة تجرى بعيداً عن التحليل، ثم لا تعود. وحد الحجم والمكان يتقلص ويتقلص بعناد. تلك العودة اليومية لبندول لا يتوقف، المعيار الجديد للمرجعية، تضع فى عقولنا أن الحقيقة الصلبة تتجاوز أى معيار مقبول حتى الآن. إننا نجتاز السطوع القاسى لحداثة لا تصدق حتى الآن..".

إن ثلاثة ملايين سنة من التطور العضوى (يكتب ويلز هذه الكلمات بحروف كبيرة) تنحدر نحو النهاية التى أصبحت الآن فى مرمى النظر.. إن شقة الخلاف تتسع بين ما كان آباؤنا يميلون لأن يسموه "نظام الطبيعة"، وبين تلك العداوة القاسية غير القابلة للتغيير الموجهة لكوننا، لنا "كلنا".. ".

ولكن.. من العدو إذا لم يكن هناك "إله" ولا "شيطان"؟ كان ويلز يبحث عن تعريف "عملية كونية"، "الماوراء"، "غير المعروف"، "غير القابل للمعرفة"، رفضها جميعاً لأنها تحمل "تضمينات غير ملائمة"، ولأنه عجز عن صوغ ما هو أفضل استقر ويلز على "عامل مضاد" (antagonist)، فهو سيضع النهاية للتطور و"عربات قمامة الزمن المتأرجحة تحمل النفايات إلى المحرقة..".

ألا يتسمع المرء فى كلمات ويلز الغاضبة صدى نبوءات الكهان والعرافين؟.. "حينها.. سوف يتدفق شلال لا يتوقف من النار المتأججة، وسوف تحرق الأرض والبحر، وستنتهى قبة السماء والنجوم والخلق ذاته إلى كتلة واحدة مصهورة وتحلل واضح.. بعدها لن تكون هناك كواكب تومض وتلتمع، لا ليل، لا فجر، لا أيام دائمة من العناية، لا ربيع، لا صيف، لا شتاء، لا خريف..".

وكأنه يستكمل نبوءة العرافين، ينهض ويلز عن مقعده فى لندن التى داهمها الليل، ويوقد منارات النار. يقول:

حتى الآن، يبدو التكرار قانوناً من القوانين الأساسية للحياة.

الليل يتبع النهار، والنهار يتبع الليل، أما فى هذه المرحلة الغريبة الجديدة التى يمر بها عالمنا اليوم، أصبح واضحاً أن الأحداث "لم تعد تتكرر"، إنها تمضى وتمضى نحو غموض مستغلق، نحو ظلام لا صوت له ولا حدود، ضد هذا الظلام يجب على عقولنا غير القانعة - بما لديها من ضرورة عنيدة - أن تقاوم، ولكن أن تقاوم حتى تتم هزيمتها النهائية.

إن عالمنا، عالم الوهم الذاتى، لا يتيح أياً من هذا، سيفنى وسط حماقاته ومراوغاته..

"إن الباب ينغلق أمامنا للأبد. ليس ثمة طريق خارجه أو حوله أو خلاله..".

هل هذا عقل أمرضته الحرب يتحدث إلينا؟ لكن ويلز لم يشر أبداً إلى الحرب المشتعلة، إلى دنكرك أو كوفنترى، أو الكائنات الإنسانية التى تجمع كالقطعان فى معسكرات الموت، إنه يلفظ كلماته كما لو أنه ليس إنساناً، بل طبيعة لا حياة فيها ولا رحمة لديها:

"إن عالمنا ليس مفلساً فقط، بل هو ببساطة لا يتحول إلى السيولة، إنه، بوضوح، خارج من الوجود، دون أن يخلف وراءه أى حطام، ومحاولة تقصى أى نمط من أى نوع مقضى عليها بالإخفاق المطلق..".

"إن هذا مقبول فقط لدى العقل الفلسفى حين يكون فى أقصى درجات التفلسف، أما أولئك الذين يفتقدون الأساس العقلى الراسخ، فإن الآفاق التى تفتحها مثل تلك الأفكار، هى متنافرة ومزعجة لدرجة أنهم لا يفعلون سوى أن يكرهوا ويدينوا ويسخروا ويضطهدوا أولئك الذين يطرحونها، ويعمدون إلى إراحة أنفسهم والسيطرة على تلك الأفكار اللائذة بالإيمان والطمأنينة، وهو ما ابتكره العقل الخانع الذى يسيطر عليه الخوف، لنفسه وللآخرين

عبر العصور..".

وإننى أفسر تلك الاقتباسات من تأملات ويلز التى طرحها بغير اهتمام بأن الخوف العظيم الذى تملكه قديم لدى الإنسان قدم الدين. والأمر الوحيد الذى يمكن توقعه هو أن يظهر إلى السطح ذلك الخوف المستمد من الأسلاف من عامل تدمير، قادم من مواقع كونية، كان يبحث له عن اسم مناسب.

"إن بيت النمل المحكوم عليه والذى نعيش فيه بلا حيلة فى مواجهة هذا الخصم العنيد الذى يطأ عالمنا ويمزقه أشلاء، احتمله أو تجنبه.. فالنهاية سوف تكون نفس النهاية..".

فى جحيم لندن التى تتساقط عليها القنابل، والذى كان ويلز لا يبدى اهتماماً به فى ظاهر الأمر، فقد كان تحت السطح فزع قديم، بل بدائى.

بعدها بعام واحد، كان الكوكب المصاب بالطاعون قد دار على محوره دورة كاملة، كان ثمة وهج يُعشى العيون وينتشر كالفطر "مثل دخان الجنازات"، يثير "عصر الرعب".

هوامش الفصل الرابع

1- Charles Étienne Brasseur, Sources de l'histoire primitive du Mexique (Maisonneuve et Cie., Paris, 1864), p. 47.

الفصل الخامس

عصـر الـرعــب

«لماذا الحرب؟»

بعد الحرب العالمية الأولى، وقبل استيلاء هتلر على الرايخ الألمانى بسنة واحدة، تبادل ألبرت اينشتين وسيجموند فرويد الرسائل حول موضوع «لماذا الحرب؟». رجلان من عظماء الجيل، ممن صبغت أفكارهم التفكير فى النصف الأول من هذا القرن، ومازالت تفعل، انهمكا فى هذا البحث. اينشتين: عالم الفيزياء وداعية السلام، سأل فرويد - الذى يسبقه بثلاثة وعشرين عاماً - عما إذا كان مجال الطب العقلى والتحليل النفسى يعرف دواءاً شاملاً ضد ذبح الكائنات الإنسانية المنتظمة فى دول، ضد تدمير الحياة الإنسانية تدميرا يلقى التصديق والإقرار.

«سوف تكون خدمة عظمى لنا جميعا لو أنك استطعت أن تعرض مشكلة سلام العالم فى ضوء كشوفك الحديثة؛ لأن هذا العرض قد ينير السبيل أمام أنماط جديدة ومثمرة من العمل..».

قدم فرويد فى رده تكهناً سوداوياً؛ فقد رأى أنه «ليس من المحتمل أن نقدر على كبت الميول العدوانية عند الإنسان»، (١) وبقية رده لم تكن إلا إيضاحاً لهذا الحكم.

كتب بريانت ودج فى كتابه «الطب العقلى والشؤون الدولية» بعد خمسة وثلاثين عاماً، هى الأعوام التى شهدت الحرب العالمية الثانية، بما اشتملت عليه من محارق وقنبلة ذرية وحروب فى كوريا والهند الصينية، كتب:

«إن هذا الرد (من جانب فرويد) أخفق فى أن يضعف أمل اينشتين فى أن يستطيع الطب العقلى، المهنة المعنية أكثر من غيرها، وبشكل عملى، بالاضطراب والصراع فى دواخل وفيما بين الكائنات الإنسانية، أن يقدم العون لقضية الصراع بين الدول، وما يزال هذا الأمل معنا، لكنه مايزال يُحْبَط. لقد أخفق الطب العقلى فى تقديم عون عملى لإدارة الصراع الدولى، رغم أن هذا الصراع قد أصبح أكثر خطورة على الإنسان بكثير مما كان عليه أيام سؤال اينشتين..» لكن هذا لا يعنى أن أطباء العقل لم يبذلوا الجهد: «فى ١٩٣٥، وقع ٣٣٩ طبيبا عقليا من ثلاثين دولة بيانا حول منع الحروب»، وفيه قرر الموقعون: «نحن الأطباء العقليين نعلن أن علمنا قد تطور بما يكفى كى يجعلنا قادرين على التمييز بين الدوافع الحقيقية والمدعاة، واللاشعورية، حتى بين رجال الدول...». (٢)

بعدها بعامين، فى صيف ١٩٣٧ عقد فى باريس مؤتمر كبير لعلماء النفس، (٣) وفيه قرأ الأستاذ كلاپاريد من چنيف الخطاب الرئيس عن «الكراهية بين الأمم» والذى حوى آمالاً كبيرة، وتعبيرات عن الإيمان بالتقدم الإنسانى. وكان البحث الذى قرأتُه المناقشة الوحيدة الأخرى لنفس الموضوع (٤).. وكانت وجهة نظرى، الصادرة عن فكر التحليل النفسى آنذاك، ترى أن الجنسية المثلية المكبوتة لدى أمم كاملة هى مصدر الكراهية، والتوق إلى إحداث أذى جسدى على نطاق الجماهير، المجازر والانتصارات فى هذا السباق دافعها جنسية مثلية ذكرية، ضد وعلى أمة يتم تأنيثها. أليست رغبة الأتراك فى ارتكاب مذبحة فى قرية أرمنية تزيدها تلك الاختلافات فى التكوين القومى القبْشعورى؟ أليست ألمانيا، بشعارها القومى المتمثل فى نسر يشهر مخالبه لتمزيق لحم الضحية، عدواً طبيعياً لفرنسا: الفتاة العذراء ذات القبعة

الفريجية، أو، بالتبادل، الديك الذى يصدر الضجيج لكنه لا يخيف إلا قليلاً، المسلى فى العادة، بديلا عن الذكر ؟.

ومازلت أعتقد أن للجنسية المثلية المكبوتة علاقة قوية بالعدوان. وفى سلاسل الصراعات بين إسرائيل والدول العربية، جُلدت هذه الأخيرة بقسوة وأكثر من مرة على أيدى اليهود الذين كانت صورتهم - طوال قرون الشتات - صورة أمة مضطهدة ومعتدى عليها، ومن ثم فإن تقدير الذات الذى طال البحث عنه لدى العرب كجنس ذكورى، قد عانى معاناة كبيرة، لأنه لا تنازل من جانب إسرائيل يمكن أن يهدئهم.

فى مشروع كتابى «أقنعة الجنسية المثلية» نشرت بحثى الذى كان عنوانه «سوناتا كرويزر لتولستوى، والجنسية المثلية اللاشعورية» فى مجلة فرويد «ايماجو»، (٥) وظلت بقية الكتاب هاجعة بسبب الانشغال الذى تملكنى -الذى تطور إلى موضوعات «عوالم فى تصادم» و «عصور فى فوضى» و «الأرض فى اضطراب».

ولم تقعد الحرب العالمية الثانية - بطبيعة الحال - تنتظر علماء النفس لكى يكتشفوا ويوضحوا جذور ذلك البلاء الذى يسمى الحرب. وفكرة أن «الحروب تبدأ فى عقول البشر...» وأنه «فى عقول البشر يجب أن تقام الدفاعات من أجل السلام» قديمة قِدم العلاقات بين مجتمعات منظمة..»

وواصل دكتور ودج اقتباسه عن مراسلات اينشتين-فرويد فى ١٩٣٢، فلاحظ عدم جدوى تلك الجهود، ثم تساءل: «لماذا أخفقت المهنة العلمية المعنية أكثر من سواها بمساعدة الفرد فى مواجهة مشاكل عقله، فى الإسهام فى حل أكثر المشاكل أهمية فى السلوك الإنسانى كله؟ ماذا يستطيع الطب العقلى أن يقدم؟..

وأكد ودج عجز علوم الطب العقلى عن الارتفاع إلى مستوى هذه

المسألة، لكنه، هو نفسه، لم يأت بشئ أكثر مدعاة للأمل من «دراسات السمات الشخصية لدى القادة الأجانب، والعوامل السيكو-سياسية فى صراعات دولية محددة، وتفسير السلوك القائم على النفى، وتحسين فاعلية التواصل بين الأمم...إلخ. وهذه كلها ليست سوى تعميمات فى بعض الأحيان، ومسكنات فى بعضها الآخر. لكنه قبل أن يثبتها ذكر ملاحظة صحيحة:

«الطب العقلى معنى، فى المقام الأول، بالكائنات الإنسانية الفردية. حديثا فقط قاد هذا المفهوم الثورى للاعتماد الاجتماعى المتبادل الطب العقلى نحو اهتمامات أرحب بالجماعة والأمة من حيث تأثيراتها على تاريخ الأفراد. إن الحدود التقليدية للطب العقلى لا تقدم سوى القليل فى تهيئة المهنة للاعتبارات العلمية المتعلقة بالشؤون الدولية.

«والأطباء العقليون الذين أصبحوا معنيين بالعالم الدولى يدركون -بدقة وصواب- أن العوامل السيكولوچية الدينامية فاعلة فى هذا العالم على نحو من الأنحاء. هنا على أية حال يصبح مدى هذه المسألة مربكاً ومحيراً..»

البلاء العائد

ثمة جراد يعود بعد سبعة عشر عاما. أما سبب عودة هذه الحشرة للاحتشاد بعد هذه الفترة الطويلة فغير معروف ولا يتضح لنا سبب أرضى أو غير أرضى لهذه العودة.

وثمة ظاهرة مشابهة لدى الإنسان. فإذا نحن تفحصنا الحروب الكبرى التى اندلعت خلال القرون القليلة الأخيرة، ربما أمكننا ملاحظة لون معين من الانتظام الدورى فى عودة هذه النوبات الكبرى (وإننى أترك للآخرين تحديد ما إذا كانت مثل هذه الأنماط

موجودة أيضا فى الفترات السابقة على القرون القليلة الأخيرة).

من ۱۷۰۰ إلى ۱۷۰۹ اجتاحت جيوش شارل الثانى عشر من السويد القسم الأكبر من أوروبا فى حروب الفتح. أخضع شارل الدانمرك ومعظم ألمانيا وبولندا ودول البلطيق وغزا أوكرانيا، وهناك فى قلب هذه البلاد بالقرب من بولتافا، بعيدا عن أرضه، لقى هزيمته على يدى بطرس الأكبر.

وقت أن كان شارل الثانى عشر يحارب فى أوروبا الشرقية، كانت أوروبا الغربية تشهد حربا أخرى (۱۷۰۱-۱۷۱٤) وفيها كانت فرنسا تحت حكم لويس الرابع عشر وأسبانيا وبافاريا ضد انجلترا وهولندا والنمسا وولايات ألمانية عديدة، والبرتغال وسافوى تغير مواقفها من هنا لهناك. دارت هذه الحرب التى أسميت «حرب التتابع الأسبانى» على طول الراين والدانوب، فى الفلاندرز وإيطاليا وأسبانيا وفى البحار. وقد نتج عنها - وسط أشياء أخرى - أن تخلت فرنسا عن نيوفوندلاند ونوفاسكونيا لانجلترا، وتخلت أسبانيا عن جبل طارق ومنيوركا، وأكدت البرتغال وجودها فى البرازيل.

بعد أكثر من قرن، ١٠٤ سنة على وجه التحديد، من انفجار هذه الصراعات، شن نابليون هجومه على القوات المشتركة من بروسيا والنمسا وروسيا فى أوسترلتز (۱۸۰٥) وأخضع معظم أوروبا، وحارب فى عمق روسيا فى ۱۸۱۲، حيث هُزم، وخسر مرة أخرى معركة الأمم (۱۸۱۳) وحارب معركته الأخيرة فى ووترلو (۱۸۱٥).

مرة ثانية، بعد أكثر من قرن، أصبح العالم كله وسط اللهب، قادت ألمانيا، تحت حكم ولهلم الثاني، دولة النمسا والمجر وتركيا، ضد انجلترا وفرنسا وروسيا، وابتلعت الحرب العالمية الأولى أمماً كثيرة فى أوروبا، وفى أماكن نائية من العالم، على نحو غير مسبوق، ودامت من ١٩١٤ إلى ١٩١٨. ثمة نمط لا يمكن أن يخطئه

أحد فى تواتر هذه الأحداث وتكرار وقوعها بعد ما يقارب ١٠٤ سنة.

ولكن أيضا فى منتصف المسافة بين تلك الحروب، كانت ثمة حروب أخرى ذات أبعاد قارية، بحيث تصبح النمط الحقيقى هو انقضاء أثنين وخمسين عاما ما بين بداية انفجار كبير إلى بداية الذى يليه. فى القرن الثامن عشر كانت حرب السنوات السبع (١٧٥٦-١٧٦٣)، وهى الصراع الواسع بين النمسا وروسيا وفرنسا وحلفائهم، ضد بروسيا وانجلترا، وهو ما أعطى انجلترا امتيازاً حاسماً على فرنسا فى أمريكا الشمالية والهند وجزر الهند الغربية، وما جعل بروسيا العدو الأكبر للنمسا. وفى القرن التاسع عشر كانت الحرب الأهلية فى أمريكا (١٨٦١-١٨٦٥)، وفيها قتل مئات الألوف من الناس فى واحدة من أكبر المجازر فى التاريخ العسكرى.

آخر الكوارث الكبرى حدثت عند نقطة المنتصف من فترة الاثنين والخمسين عاما، فعلى حين نشبت الحرب العالمية الأولى فى أغسطس ١٩١٤، نشبت الثانية فى سبتمبر ١٩٣٩ لكنها بلغت أقصى اتساعها فى ١٩٤٠، وقد دامت ست سنوات، كما غطت، مرةأخرى، القارات الخمس. فى الماضى كان المنحنى يحقق موجة عالية كل اثنتين وخمسين سنة، أما فى هذا القرن، فإن الموجة العالية ظهرت أيضا عند منتصف المدة أو تقدمت بنصف المدة.

وتفحص الرسم البيانى للصراعات المسلحة الكبرى قد يكشف ارتفاعا قصيرا قبل وبعد كل ذروة، هذه التلال عند السفوح تشير إلى صراعات أخرى ذات حجم أقل أو طابع أكثر محدودية. وهكذا نجد الحرب الأهلية قد سبقتها الحرب الكريمانية (Crimean) وتبعها اندفاع بروسيا ضد النمسا والدانيمرك وفرنسا، والحرب العالمية الأولى سبقتها حروب البلقان وتبعتها الحرب الأهلية فى روسيا، والحرب العالمية الثانية سبقها اندفاع موسولينى نحو الحبشة

(كذلك الحرب الأهلية فى أسبانيا والحرب بين اليابان والصين) كما تبعتها الحرب فى كوريا.

وحسب هذا النمط، فإن انفجاراً كبيراً للعداوات بين الدول كان ليحدث حوالى ١٩٦٦، دخل العالم فى حالة من التوتر وسباق التسلح وأيضاً قامت الحروب المحلية، فى ڤيتنام والشرق الأوسط، وقد عمل تطور السلاح الذرى منذ نهاية الحرب العالمية الثانية بمثابة مانع أو حائل.

إذا كان ثمة دافع لدى النوع الإنسانى نحو التدمير وإفناء الذات يتقدم نحو الواجهة على فترات من اثنتين وخمسين سنة، ومن الممكن أيضا من ست وعشرين (الفترة بين منتصف الحرب العالمية الأولى ومنتصف الثانية) إذن، فبدل العوامل السياسية والاقتصادية يمكن التفكير فى العوامل السيكولوچية، وحتى البيولوچية، كفتائل تلهب اندفاع الجماهير الإنسانية. وثمة حالة من التهيج تعد شرطاً سابقاً للتصلب «الوطنى» الذى يؤدى لصراعات كبرى خارج نطاق السيطرة بما يصحبها من انتهاك وتشويه وقتل. ومع كون النوع الإنسانى مندمجا فى جماعات كبرى منقسمة إلى «معسكرات» فإن فترات الصراع المحلى «القبلى» هى ذاتها تندمج فى الانفجارات العامة المفاجئة على المستوى القارى، واليوم، فى هذا القرن على المستوى العالمى.

إن تكرار الصراعات الكبرى، تفصل بين الواحد والآخر فترة اثنتين وخمسين سنة، وتهدد بأن تحدث أيضا عند منتصف الفترة، يجب اعتبارها ظاهرة طبيعية أخرى، مثل انتشار الجراد كل سبع عشرة سنة (يمكن أن نلاحظ، على نحو عابر- أن هذه الفترة الأخيرة تقارب ثلث الاثنتين والخمسين، ورغم احتمال عدم وجود علاقة بين الفترتين) إن ظاهرة هيستيريا الجماهير على نطاق العالم يجب أن تفهم، وأن يتم البحث عن جذورها، واستخراجها.

ويجب استرجاع حقيقة أن كارثتين طبيعيتين هائلتين قد حدثتا قبل أربعة وثلاثين قرنا بفاصل يبلغ اثنتين وخمسين عاماً. وإذا لم يتأكد السبب البيولوچى المفجر لمثل هذه الهيستيريا الجماهيرية الدورية، فيجب العمل على مواصلة التشكك والبحث،، وقد يكون للتشكك والبحث نفسيهما دور علاجى.

الشعب المختار فى هيروشيما

فى ٦ أغسطس ١٩٤٥، قام قس عسكرى فى الولايات المتحدة بمباركة طاقم طائرة، وتمنى لهم النجاح فى تحقيق مهمتهم: حمل وإسقاط قنبلة ذرية فوق هيروشيما.

كان ثمة وهج يعمى الأبصار، وعاصفة حارة وزلزال، وسحابة كثيفة صاعدة نحو السماء، وأجساد تتفحم، عشرات الآلاف من الأجساد، وفجر العصر الذرى.

بعدها بعقدين تقريباً (١٩٦٧) نشر روبرت لاى ليفتون أستاذ بحوث الطب العقلى فى جامعة ييل كتاباً قوياً بعنوان «الموت فى الحياة -الناجون من هيروشيما» وفيه أجرى مقابلات مع سبعين من الناجين من كل دروب الحياة، وقد وجد اختلافا أساسياً ضئيلا فى التكوين العقلى بين المتعلمين وغير المتعلمين، الأطباء والكتاب والمبشرين وأصحاب الدكاكين وربات البيوت والفلاحين والمنبوذين والمتمردين. وإننى أقتبس فيما يلى انطباع پول جودمان عن كتاب ليفتون، نظراً للاستبصار الذى توصل إليه جودمان: (٦)

«لقد أكدوا -نحن فى العام السابع عشر بعد الحدث- على الحضور الدائم لهذا الحدث. ولقد رفضوا خيانة الحرفية المقدسة لتفاصيله، كان الحدث عظيماً، بل حتى البعض يستطع الحديث عن

«سـعادة لاذعـة» بمعنى الإفـاقـة من أوهام هذا العـالم. إنهم «شعب مختـار»، وكثيرون منهم يحملون ندوباً مثل العلامات التى على جسد الرب يسوع، إنهم يشكلون جماعة رفاقية لها رسالة، إنهم الضحية والفداء. إنهم محررو المتمردين ورسل السلام، إنهم موضع الاستخفاف والزراية لكنهم الحجر الذى نبذه البناؤون.

«إن المرء يجب أن يكون على اكتمال أخلاقى، ولايجب أن يبيع تجربته للصيارفة، وفى الحقيقة، طبقا لبعضهم، فإن أى حديث له توجه فردى أو اجتماعى فإنما هو تجديف وانتهاك للمحارم، وعلى الفرد أن يحمى طهارته بالالتزام بتابوهات معدلة، فلا يجب عليه، على سبيل المثال، أن يرتدى جوارب مصنوعة من النايلون لأنها من إنتاج ديبون. على أنه مادام هناك انقلاب للقيم، فمن الملزم للناس ألا «ينهبوا المصريين»؛ أى أن لا يعملوا فى السوق السوداء، ومادام منشأ الوجود الإنسانى قد تحطم، فقد كان ثمة جرح فى نظام الوجود، فإن الإنسان لا يستطيع أن يحيا دون أن تكون هناك سماء جديدة وأرض جديدة. "لقد رأيت الجحيم على الأرض فعلاً" والأديان التقليدية، البوذية أو الكاثولوكية، ليس بوسعها الارتفاع لمستوى هذه الحقيقة الجديدة، إن الحل الجديد ينتمى للبشرية كلها.

«لكن يوماً سيأتى يرقد فيه الأسد بجوار الحمل.. «إنهم يحلمون.. بأن الطاقة التى تبلغ عشرة ملايين حصان فى الجرام الواحد والتى يمكن استخلاصها من الذرة سوف توضع فى أيدى الناس، وأن الحصاد الغنى للعلم يمكن أن ينتقل، بسلام، إلى أيدى الناس، مثل عناقيد العنب الغضة المنداة بالعسل التى قطفت فى الفجر..» هذه الرؤية التى تشبه رؤية أشعيا هى رؤية سانشيكى توجى. وسوف يشرق قوس قزح عقب المطر الأسود، حتى قبل القنبلة، فى الماضى الأليف، لم نكن نحيا، لقد كان وهماً، لكن الإنسان الذى يظل يرى ما لا يمكن محوه؛ صورة طفولته البريئة،

فهو مثبت، حتى يأتى العالم الجديد الذى يمكن أن يحيا فيه..»

«إن القديسين المختارين، بمشاركة الموتى الذين هم أيضا حاضرون لأنهم أسهموا فى الحدث الحقيقى، هم - فى ذات الوقت - واقعون فى شراك المَطهر، فى تلك الفترة الفاصلة التى تخلو من المعنى فى التاريخ المعاصر. يفترض أنهم فى انتظار نبى جديد يتيح لهم حياة ذات مظهر مختلف.. فى فترة الانتظار هذه يبقى البعض صامتاً يتذكر ذلك التجلى الغاضب، ويتحدث البعض الآخر إلى الموتى..»

ما ثبت اهتمامى على مقالة پول جودمان هو استبصاره فى مقارنته خبرة الاستجابة الثابتة للناجين من هيروشيما، بخبرة الإسرائيلين واتجاههم التالى أيام «الخروج» وهو حدث جرى فى التاريخ منذ زمن طويل، وهو يبدأ مقاله بالإشارة إلى كتاب مارتن بوبر عن موسى.. «إننا لا نستطيع أن نأخذ رواية الإنجيل حرفياً، رغم ذلك لا نستطيع القول بأنها ليست تاريخية، حدث «شئ ما» كان بالنسبة لأولئك الناس فوق الطبيعة أو شيئاً مخبولاً، والتقرير الذى وصل إلينا كان محاولاتهم لأن يرتفعوا لمستوى التجربة، بأن يستعيدوا دهاءهم، وأن يعيدوا بناء أنفسهم فى هذا العالم الذى تغير..»

هذه الموازاة لم يقم بها الأستاذ ليفتون، لكنه، على أية حال، قام بموازاة أخرى مع التطور العقلى، أو بالأخرى، التغيرات لدى الناجين من معسكر النازيين. إن قسما أساسياً من «الموت فى الحياة» يتناول «الآليات الدفاعية ضد الصدمة: الكبت والنفى، وتكوين ردة الفعل، والمحو.. والذاكرة الانتقائية، وظاهرة كبش الفداء وانتحال الأعذار وكراهية الذات.. وذلك لتفادى القلق الناجم عن الترك، والتماهى مع القوة التى أوقعت الأذى بالإنسان لتفادى القلق الناجم عن العنة، وتحويل الغضب نحو الذات والتحول إلى

مذنب..»

ويعيد الكتاب خلق «بيئة تلفها الصدمة على نحو ملحوظ..» لكن القائم بعرض الكتاب يتخذ موقفاً نقدياً من المسار الباثولوچى الذى يتخذه الأستاذ ليفتون، وعندى، فإن البناء العقلى -لأنه ليس مجرد اتجاه، لكنه وضع دائم- «للهيباكوشا (وهو الاسم الذى عُرف به الناجون من هيروشيما وناجازاكى) إنما هو ظاهرة كاشفة وحافلة بالمعنى فى ضوء أحداث حدثت منذ زمن بعيد، فى المواجهة بين «شظية من العقل وسط عاصفة هوجاء من الجنون» و«شعب العالم ضد قوى العالم».

كتب ليفتون: «إن الدفاع الرئيسى للناجين ضد قلق الموت وإثم الموت هو التوقف التام عن الشعور، وفى ملاحظاتنا عن هيروشيما تحدثنا عن هذه العملية، هى فى شكلها الحاد انغلاق سيكولوچى، وفى شكلها المزمن خدر سيكولوچى، وقد أقول الآن إن هذا الخدر السيكولوچى هو السمة المميزة لأسلوب حياة الناجين.. (٧) هذا الخدر السيكولوچى بين الناجين من الكارثة هو من وجهة نظرى – المرحلة الأولى بإتجاه إغراق أجزاء كبيرة من الحدث المدرك فى نسيان جزئى. والتباين الأساسى بين الحدثين – ظاهرة أيام «الخروج» وظاهرة ١٩٤٥ هو حقيقة أن الحدث الأول لم يكن من فعل الإنسان، وكان على مستوى العالم، أما أحداث عصرنا فهى من فعل الإنسان، وفى حين أنها كانت أيضا على مستوى العالم بمعنى أن الحرب قد شملت كل القارات والبحار، إلا أنها كانت ملخصة فى إحراق مدينتين بإطلاق «طاقة تعادل عشرة ملايين حصان من الجرام الواحد..» وبالنسبة لأهل هاتين المدينتين لم تكن الكارثة أقل من عالمية، فيما بعد فقط عرف الناجون أنهم كانوا من المختارين من بين جميع المدن الأخرى لهذه التجربة فى القتل الجماعى، لكنهم قبل أن يعرفوا لم يكن ثمة فرق عندهم فى أن

تكون كل مدن العالم قد انقلبت رأساً على عقب. إن تجارب هيروشيما ونجازاكى قد عكست فى المرآة على نحو مرعب «فى الصباح نظر الرب الحارس إلى جيش المصريين فى عمود النار والسحب.. (الخروج ١٤:٢٤).

عن جذور العداء للسامية

فى «عصور من الفوضى» عرضت لعدم صحة مايقول به مانيتون من التوحيد بين الإسرائيلين والهكسوس. كان مانيتون مؤرخا مصريا عاش فى القرن الثالث قبل المسيح، يكتب باليونانية. إن الكراهية التى كانت موجهة حتى ذلك الحين نحو الهكسوس، الأسطوريين تقريبا، غزاة مصر ومستغليها الباكرين، أصبحت، من الآن فصاعداً، موجهة نحو الشعب اليهودى.. وأوضحت أيضاً أن الهكسوس، ويعرفهم المصريون باسم آمو، كانوا تماما مثل العماليق، والذين وردوا فى الكتاب المقدس والذين سيطروا على الشرق الأدنى، وكذلك فلسطين، خلال الفترة الطويلة التى انقضت فى التيه فى الصحراء وحكم «القضاة». وقد اقتبست عن كثير من المؤلفين العرب القدامى الذين وصفوا فتح العماليق لسوريا - فلسطن ومصر وحكمهم مصر لأربعة قرون أو خمسة، عن طريق الأسر الملكية من العماليق. إن طريقة استغلال مصر من جانب الآمو، كما تصفها المصادر المصرية، واستغلال فلسطين من جانب العماليق، كما تصفها الكتب المقدسة، كانتا متطابقتين، وما هو أكثر أهمية أنه قد وضح أن الملك شاول، أول ملوك بنى إسرائيل، الذى نجح فى إنهاء حكم العماليق بالاستيلاء على قاعدتهم الحصينة فى «العريش» التى ليست سوى «أقاريس» القديمة - وملكهم الأخير يأجوج.

إن أبناء الشعب اليهودى كانوا يضمرون كراهية عميقة للعماليق من أيام تيههم فى الصحراء، فحين كان هؤلاء مرهقين وعطاشا، سلبهم العماليق دون رحمة، وأثناء حكم العماليق والمدائنيين الذين اعتادوا أن يغزوا البلاد بشكل منتظم مع قطعان مواشيهم الكثيفة قبل الحصاد. ظلت هذه الكراهية حية، ليس فقط أثناء قرون حياة إسرائيل ويهوذا على أرضهم، ولكن أيضاً خلال الفترة الطويلة لحياتهم فى الشتات، أو المنفى العالمى، وحتى أيامنا هذه.

المؤرخ اليهودى الذى عاش فى القرن الأول من الحقبة الحالية، يوسيفوس فلافيوس، قبل توحيد مانيتون للإسرائيلين بالهكسوس، وفى ذلك الوقت فإن العداء للسامية - والذى كان مانيتون صاحب أول مصدر أدبى معروف له- كان قد انتشر فعلاً فى الشرق القديم. ومن أجل تصحيح هذا الخطأ قمت فى «عصور من الفوضى» بتقديم التوحيد الصحيح، وأعقبته بخطاب قصير حول بداية العداء للسامية.

وثمة جانب آخر، إضافة لهذا التوحيد القديم الخاطئ:

منذ القدم، يزعم الشعب اليهودى أن الكوارث العظمى فى المحن والدمار وانقلابات الطبيعة، كما تتمثل فى الطواعين وانشقاق البحر وتلاشى جيش الفرعون، إنما حدثت لصالح بنى إسرائيل. لقد عوقبت مصر لقسوتها عليهم، وقد نجا بنو إسرائيل من الزيارات المتكررة للطواعين، وقد دعا قائدهم على مصر بالطاعون وعلى جيشها بالغرق فى بحر المجاز، وكان بنو إسرائيل هم المستفيدون من هذه الأحداث الكارثية. وأقل من هذا أهمية، ربما بلا أهمية على الإطلاق، أن الحقيقة التاريخية هى أنهم لم ينجوا من العناصر الغاضبة كما تزعم الكتب المقدسة، وتشير المصادر الميدراشية إلى الأثر المضاد على نحو ما أشرت فى «عصور فى

فـوضـى »، فـى طاعــون الـظلام نجــا فـقـط اثـنان من كل مــائـة من الإسـرائيليين، وفـى بحـر المجاز فـإن الكـثـيـرين من الـفـاريـن أغـرقـتـهـم الأمـواج المـتـدافـعـة. لكن الحكـايـة كـمـا هـى مـذكـورة فـى الـكـتـاب المقدس، وكمـا يـؤمن بهـا الـيـهـود وشـعـوب أخـرى فـى الأزمـنـة الـقـديمة والحـديـثـة، كـانت مـهـمـة وسـتـبـقى مـهـمـة، فـحـين عـانت مـصـر، اسـتُثـنـى بـنـو إسـرائـيل، وقـد ربـحـوا حـريـتـهم من عـبوديـة أجـيـال كثـيـرة.

الكـارثـة الـطـبـيـعـيـة الـتـى أصـابـت مـصـر أصـابت أيـضـاً الـكـرة الأرضـيـة، بل وانـدثـرت بـعض مـواقـعـهـا انـدثـاراً تـامـاً، وقـد بـقـيـت خبـرات تـلك الأيـام فـى الـعـقـل الجمعى اللاشـعـورى لـلجـنـس الـبـشـرى.

تلك المفـهـومـات، والـتـى يُظـن حـسـبـهـا، أن بـنـى إسـرائـيـل كـانـوا وحـدهـم الـنـاجـين من كـوارث الـطـبـيـعـة أيام « الخـروج » وتـوحـيـد مـانـيـتـون الخـاطـئ بين بـنـى اسـرائـيل والـهـكـسـوس كـانت فـى أصـل الـعـداء لـلسـامـيـة الـذى اسـتـمـر عـبـر الـقـرون.

تجار العبيد والعبيد

تـنـقـسـم قـارة أفـريـقـيـا إلـى مـايـسـمـى بـالـقـارة الـسـوداء، والحـافـة الـشـمـالـيـة؛ شـمـالـى الـصـحـراء، والـتـى تـشـغـلهـا دول الـبـربـر أو الـعـرب. ويمضـى الـسـاحل الـشـرقـى لأفـريـقـيـا مـوازيـاً لـلـسـاحل الـغـربـى لجـزيـرة الـعـرب، وعـلى شـاطـئ المحيـط الـهـنـدى تـقـع زنـجـبـار، المحط الـقـديم لـتـجـار الـعـبـيـد من الـعـرب، مـتـمـمـة لـقـوس واسـع، وقـد انـقضَّ الـعـرب عـلى الإفـريـقـيين الـسـود وبـاعـوهـم كـعـبـيـد حـيـثـمـا تـوفـر الـطـلب عـلـيـهـم، كـمـا فـرض الـرق أيـضـاً عـلى أسـرى الحـروب من الأجـنـاس الأخـرى، وقـد اسـتـرق كـولـومـبـوس أسـرى الـكـاريـبـى، لكن قـارة أفـريـقـيـا كـانـت، خـاصـة فـى الـعـصـور الحـديـثـة، هـى أرض صـيـد الـعـبـيـد، ومـنـذ بـدايـة الـقـرن الـسـادس عـشـر ظل اسـتـيـراد الـعـبـيـد إلـى « هـامـبـشـيـر » الـغـربـيـة

لا ينقطع حتى قبل عدة أجيال فقط، رغم أن التشريع قد منعه فى الولايات المتحدة حوالى سنة ١٨٠٠، إلا أن التجارة بقيت مستمرة حتى الحرب الأهلية، وبقيت بعدها فى البلاد المجاورة. فى ١٨٧٣ فقط؛ أى قبل أربعة أجيال تقريبا، كان ثلث التعداد فى كوبا، خمسمائة ألف من بين مليون ونصف المليون، من العبيد.

تحت عنوان «الرق الإسلامى» جاء فى الطبعة الرابعة عشر من «الانسيكلوبيديا بريتانيكا» (رغم أن دوائر المعارف ليست من المصادر التى أحب الاقتباس عنها، إلا أننى استثنى هذه الحالة):

«يبدو أن السودان الأوسط كان واحداً من أراضى الصيد الشاسعة، ومن هناك كان الأسرى يجلبون إلى سوق العبيد فى «كوكا» فى «بورنو» وبعد أن يشتريهم النخاسون، كان عددهم يبلغ حوالى العشرة آلاف فى كل سنة، كانوا يسيرون، عبر الصحراء، إلى «مرزوق» فى «فزان»، ومن هذا المكان يتوزعون على سواحل المتوسط الشمالية والشرقية. وكان عناؤهم على هذا الطريق رهيباً، كثيرون منهم كانوا يموتون ويُتركون على الطريق (وقد ذكر أنه): «إذا كان أحد لا يعرف الطريق الذى اجتازته القافلة، فما عليه إلا أن يتبع العظام المرمية على يمين الطريق ويساره.» وكان الزنوج يُجلبون أيضاً إلى «المغرب» من السودان الغربى ومن «تمبوكتو». وكان مركز التجارة فى المغرب يقع فى «سيدى حامد بن موسى» على مسيرة سبعة أيام جنوبى «أغادير» حيث كان يقام معرض سنوى كبير، ومنها ينتقلون فى جماعات إلى المدن، خاصة مراكش وفاس ومكناس.»

كان السلطان يتقاضى ضريبة «حسب السعر» على تجارة العبيد، وكانت سفن مغربية وفرنسية وبرتغالية وبريطانية وسواها تحمل صفقات العبيد إلى مصائرها.

وكان عرب زنجبار، على ساحل أفريقيا الشرقى، هم أكبر التجار على الإطلاق. كانت قرى السود تهاجم ويُشعل فيها النار حين يكون أهلها نياماً، ويتم هذا أحيانا، بالتواطؤ مع رؤساء القرية، ويؤسر أولئك الهاربون ويصبحون بضاعة إنسانية، كثيرون منهم ينتقلون، مقيدين بالسلاسل على سفن عربية هى غالباً غير صالحة للإبحار، فيموتون من سوء المعاملة والعطش والتعرض للشمس، بعض الشحنات التى عبرت الأطلنطى لم يبق منها أكثر من خمسين من كل مائة.

كان البريطانيون والفرنسيون والبرتغاليون وسواهم يشترون العبيد من الأسواق الأفريقية وينقلونهم إلى أوروبا، ولكن إلى الأمريكتين بوجه خاص. تذكر الإحصاءات البريطانية أنه عدا العبيد الذين كانوا يموتون قبل أن يبحروا من إفريقيا، فإن نسبة ١٢,٥٪ منهم كانوا يموتون خلال رحلة العبور إلى جزر الهند الغربية، وفى چامايكا يموت ٤,٥٪ أيضا فى الموانئ أو قبل بيعهم، ثم ثلث آخر «لعدم الملاءمة».

ولايستطيع تجار زنجبار أن يزعموا نسبة أفضل للباقين على قيد الحياة من الشحنة الإنسانية.

وظلت تجارة العبيد مع غربى هامبشير مستمرة بعد الحرب الأهلية، لكنها كانت تتناقص فبحثت عن أسواق أخرى، ومع تناقصها أكثر بعد ١٨٧٠ أصبحت أهم الأسواق التى تستوعبهم هى البلاد العربية ذاتها، خاصة شبه الجزيرة العربية، وكانت منطقة التسليم هى السواحل الشمالية والشرقية لقارة إفريقيا، كما كانت هناك أيضا تجارة داخلية فى الممالك السوداء فى أوغندا وبنين وداهومى، وهنا أيضاً كان التجار العرب هم الموردين، كما كانت تتم التضحية بكثير من العبيد فى طقوس وثنية، وقد وصف هذه الممارسات مستكشفو القرن التاسع عشر: د. ديڤيد ليڤنجستون

وسير صامويل بيكر ود. هنريش بارت.

وظل العبيد السود يُشترون ويباعون فى الأسواق العربية، خاصة أسواق شبه الجزيرة العربية حتى عهد قريب. ومع انتشار الدين الإسلامى بين السود على سواحل إفريقيا الشرقية، عمل التجار كمبشرين يدعون المؤمنين إلى الحج إلى مكة، ولدى وصولهم كانوا يباعون ولا يعودون أبداً إلى إفريقيا كى يحكوا حكاية رحلتهم. فى الممالك الساحلية، فى إمارات وسلطنات الجزيرة العربية كانت تجارة الرقيق تقرها التقاليد ويحميها القانون، فى خرق واضح لإعلان المبادئ من جانب الدول الأوروبية مرات عديدة، خاصة فى الجزء الأخير من القرن الماضى. مع ذلك ماتزال عدة دول أعضاء فى الأمم المتحدة تمارس تجارة الرقيق فى بلادها.

ثمة ظاهرة سوسيولوچية وسيكولوچية متميزة تحدث فى عملية اليقظة السوداء فى الولايات المتحدة. أن أبناء العبيد من الجيل الرابع حتى الجيل العاشر (وفى حالة جزر الهند الغربية فهو الجيل الثالث فقط) يشعرون بانبعاث الحنين إلى إفريقيا الذى صحب العبيد المُغللين فى رحلتهم القسرية إلى هذه البلاد، وتنتابهم أفكار الجيل الأول منهم الذين عملوا فى المزارع أو المناجم. ولكن إلى جانب هذا الإحساس «بالعودة إلى إفريقيا» ثمة ظاهرة غريبة، ربما مَرَضية، تحدث أحيانا هى أن أكثر الأمريكيين السود صلابة ينظرون إلى العرب باعتبارهم حلفاءهم ومعلميهم.

أخلاف العبيد يعودون إلى هؤلاء الذين أغاروا عليهم وأسروهم وقيدوهم وساقوهم بلا رحمة عبر الصحارى وتركوهم يموتون عطاشا مرهقين من العمل الشاق على ظهور السفن الشراعية. إن الرغبة فى الرجوع إلى المعذِّب أو أخلافه، يؤمنون بدينهم، ويعتبرون أنهم منقذوهم هى رغبة يعلم سببها علم النفس: إن أبناء الضحية يظلون مبهورين بمن ساط أباهم.

الانفجار السكانى

يزعم كثيرون أن انفجار السكان فى العالم هو أكبر الأخطار التى تهدد النوع الإنسانى فى المستقبل، وهو خطر لا يتهدد المستقبل البعيد، بل مستقبل الجيليْن التالييْن. وأننى أذكر أن تعداد العالم كان ١.٦ بليون نسمة، وهو الآن يتجاوز أربعة بلايين رغم الحربيْن العالميتين، وتجرى الحسابات لما سيكون عليه تعداد الناس فى العالم على أساس الزيادة الراهنة، ويقارب سبعة أو عشرة بلايين مع نهاية القرن. ليس انفجار القنبلة إذن لكنه انفجار السكان هو الخطر الأكبر، كما يزعم كثيرون من علماء الاجتماع وكل الخبراء فى الزيادة السكانية تقريباً. والسكان الذين يقفون على حافة المجاعة هم الذين يتضاعفون بوتيرة أسرع؛ فالناس المحتشدون على شواطئ أنهار الجانج يعيشون فى أكثر المستويات انخفاضاً: بلا مأوى، يقضون حاجاتهم فى الساحات العامة، فى العراء، وينامون فى شوارع كلكتا، ويتناسلون، فالمعاشرة واحدة من المتع القليلة التى تبقى للمفلسين غير المهرة. فى ذات الوقت تتجول الأبقار المقدسة - وكل الأبقار والثيران مقدسة لدى الهندوس - غير مقيدة، تلتهم المحاصيل، حتى حين تموت موتاً طبيعياً لا يُسمح بأكلها.

فى مصر، السكان من الفلاحين (المزارعين) فى الدلتا، وهى واحدة من أكثر المناطق المأهولة كثافة فى العالم، يعانون من الملاريا، ومن التراكوما (وهو مرض معدٍ يصيب العين ويؤدى للعمى)، ومن البلهارسيا (دودة معقوفة تدمى الكلى)، ومع أن القسم الأكبر من سكان هذه المناطق يعانون من واحد أو أكثر من هذه الأمراض المهلكة فإن السكان يتزايدون، فى مصر الذى يتجاوز الثلاثين مليوناً، بمعدل المليونيين فى كل سنة، القسم الأكبر منهم

فى الدلتا.

كوكبنا، بيتنا المشترك، لا ينمو، مصادر الغذاء فيه محدودة، وهى لا تكفى اليوم لإطعام سكان الكوكب، وتسمع الصرخة مرة أخرى، كما كان الأمر قبل قرن ونصف قرن، حين كتب مالتوس للمرة الأولى، بأن زيادة السكان تتجاوز الزيادة فى مصادر الحياة. وفيما يتعلق بالطعام، فإن المحيطات لم تقدم بعد نصيبها كاملاً، فما يؤخذ اليوم من المحيطات ليس سوى جزء صغير مما هو متاح. على أية حال فإن الإيواء والتعليم والنقل - وكل هذه مشاكل تتزايد صعوبة حلها إذا شئنا أن يرتفع المستوى المنحط للأرض، من التراب والوحل، إلى حيث يتطلب مثل هذه التسهيلات.

وثمة من يؤمنون بقدسية الحياة الإنسانية فى كل الظروف. وأكثر القتلة قسوة يطعمون من النفقات العامة مدى الحياة، أو مدى العقوبة المحكوم عليهم بها حسبما تكون الحالة، وقد أُلغيت عقوبة الإعدام فى دول كثيرة، والإجهاض حتى لجنين جاء نتيجة اغتصاب، كان، حتى وقت قريب، جريمة تستحق العقاب فى أماكن عديدة، وقد حدث بالفعل أن كان المغتصب وضحيته يقضيان فترة العقوبة فى ذات المؤسسة، ثم يطلق سراح المغتصب - لأنه متهم بتهمة طفيفة - إطلاقا مشروطاً - على حين تظل الضحية وراء القضبان لأنها قتلت الطفل الذى لم يولد.

ونحن لا نقدم هنا برنامجاً للخلاص من أخطار الانفجار السكانى، ولكن لعل دلالة التزايد السريع فى تعداد العالم تكمن فى موضع آخر سوى الانشغال بشؤون الغذاء. فلنضع الظاهرة حسب دلالتها السوسيولوچية.

فى المملكة الحيوانية، نجد أن أشكال الحياة المهددة بأخطار الفناء تنتج فى العادة أكبر قدر من الذرية، فالحشرات التى عليها أن تتحمل الشتاء قارس البرودة تتكاثر دون حصر حتى يظل بعضها،

على الأقل، على قيد الحياة، مبقياً على النوع كله.

إذا وضعنا هذه العملية فى الاعتبار، وهى ما نلاحظه فى عديد من الأشكال الحيوانية على الأرض وفى البحر، فإن الانفجار الكبير فى السكان فى السنوات التالية للحرب العالمية الثانية يصبح جديراً بمزيد من الاهتمام. ومن المحتمل تماماً وجود آلية منظمة. وقد لوحظ، منذ العصور القديمة، أنه أثناء الحروب وفى أعقابها يكون إنجاب الذكور أكثر على نحو قاطع من إنجاب الإناث؛ فالطبيعة تقوم بدور المنظم، وإذا كانت قادرة - بوسائل لا يعرفها الإنسان - على تحويل نسبة المواليد لصالح الذكور، ألا تستطيع الطبيعة ذاتها أن تنظم نفس الزيادة فى السكان لحماية الجنس كله من الفناء الوشيك؟

إذا كان الأمر كذلك إذن فإن زيادة السكان، التى تبدو خارج السيطرة، هى عُرُض لمرض خطير فى مرحلة الحضانة.

هرماجيدون على طاولات الرسم

جاءت افتتاحية النيويورك تيمس (١٨ ديسمبر ١٩٧٤) عن اتفاقية ڤلاديڤستك بين زعيم الحزب الشيوعى فى الاتحاد السوڤيتى ورئيس الولايات المتحدة. وقد جاء فيها:

«إن الاتفاقية الجديدة تتيح لكل طرف أن يبنى قوة "الضربة الأولى" من صورايخ "ميرڤ MIRV" الجديدة متعددة الرؤوس، جزء صغير منها يهدد بتدمير القسم الأعظم من صورايخ الطرف الآخر من طراز "ايسبم ICBM" فى حين يحتفظ الطرف المهاجم بالقسم الأعظم من قوته فى الاحتياط لتأخير الضربة المضادة، ولا يملك أى من الطرفين هذه القدرة الآن...

وسوف تتيح اتفاقية ڤلاديڤستك للاتحاد السوڤيتى الذى سيبدأ

فى العام القادم، أن يستبدل بصواريخ « ميرف » الأحدث والأكبر والأكثر دقة كل صواريخه من طراز «ايسبم» المسموح بها حسب اتفاقية «سولت ١ » لسنة ١٩٧٢. ١٣٢٠ من مجموع صورايخه الثابتة التى تبلغ ١٤١٠، وقبل ١٩٨٥ ستصل صورايخه الحالية ذات الرؤوس، وهى ١٤١٠، إلى الرقم المقرر لها وهو ٦٧٠٠. وهذه الأخيرة - بالنظر لحجمها الكبير - تعادل بأكثر من «ثلاث مرات» عدد الرؤوس الحربية المطلوبة للقيام بضربة «على درجة كبيرة من الثقة» للولايات المتحدة، وصواريخها الثابتة من «ايسبم» وقدرها ١٠٥٤.

والولايات المتحدة، يحق لها حسب اتفاقية ڤلاديڤستك، أن تستبدل بكل الجيل الأول من «منيوت مان ٣» و «بوسيدون ميرف» ٨٠٠ من ١٠٣٠ والمنتشرة فعلاً حسب البرنامج - صورايخ أكبر وأكثر دقة من «مينوت مان ٤ » و «تريدنت ١ ». وهى تخطط - بالإضافة لهذا - لأن تضيف ٢٨٨ صاروخاً من «تريدنت ٢» الأكبر على ظهور ١٢ غواصة عملاقة من طراز «تريدنت»، يستطيعون أن يوجهوا إلى الروس «ضربة أولى» خلال سنتين أو ثلاث سنوات.

إن بيرل هاربر» نووية، بكل عواقبها غير المرئية، لن يكون بمقدور أى من الطرفين القيام بها بطبيعة الحال، لكن وجود هذه القدرة لدى كل من الطرفين خلال أزمة عالمية فى المستقبل - والمزايا الساحقة التى توفرها للطرف الذى يبدأ الضرب - تثير احتمالات من المروِّع أن نفكر بها.

عدم الاستقرار فى الأزمة - الخطر قبل الأخير للعصر النووى، المستند فقط على الرعب الأقصى لتبادل الضرب النووى بالفعل - أصبح أقرب لفشل ڤلاديڤستك فى تقييد صورايخ « ميرڤ » إلى مستويات دنيا.

.. بدون « ميرڤ » على الطرف المهاجم أن يطلق صاروخين على

الأقل على كل واحد فى الطرف الآخر، وهكذا سينزع سلاحه بنفسه قبل الآخر، أما مع «ميرف» فإن المهاجم تكون له الأفضلية فصاروخ واحد يحمل ستة رؤوس يمكن أن يدمر ثلاثة من طراز «ايسبم» للعدو..»

وتمضى الافتتاحية لتقدم مزيداً من الأشكال التوضيحية والحسابات أو سوء الحسابات. إن هرماجيدون على طاولات الرسم. وعدم الاهتمام الأساسى بما سوف يتبع إذا - الأدق أن نقول: متى - تنطلق الأسلحة الحرارية النووية المتراكمة، من قواعد ثابتة أو من سفن غائصة أو من أقمار صناعية فى مداراتها. عدم الاهتمام هذا ظاهرة سيكولوچية لها دلالة لا تخطئ. إن الإذعان يتصاعد إلى الرغبة فى مجئ النهاية. ألا يتساءل المترددون على الكنائس عن «القدوم الثانى»؟ ألا يهتم رجال الأعمال بأن يوزعوا على حملة الأسهم الأرباح من الاتجار بالموت؟ ألا تحيا الدول «فائقة القوة» إلى جانب «الدول النامية» فى ترقب واستباق، فيختفى عدم الاهتمام ويبقى الابتهاج بهذا الترقب؟ إن اعتبار أن الآخرين سوف يبادون على مستوى رهيب فى ضخامته، هو اعتبار فاتن لدرجة تغرى بمغامرة من نفس النوع. أم أن الخاطئين فقط هم الذين ستجحظ عيونهم وتصطك أسنانهم وتسلخ جلودهم وتحترق لحومهم وتتحطم ظهورهم؟

إن اتفاقية «سولت» ليست إلا رخصة لملء الترسانات وتحسينها، وتنظيم العمل الفوضوى فى تحويل هذا الكوكب الأرضى، عبر ثمانية آلاف ميل، إلى وادٍ من أودية الملح فى سادوم.

هوامش الفصل الخامس

1- Freud, Collected Papers (1950), vol. 5.

2- Sciene, 157 (21 July 1967). Dr. Bryant Wedge was head of the Institute for the study of National Behaior, Princeton, N.J.

3- XIe Congrès International de Psychologie, Paris, 25-31 July 1937.

4- "Les Origines psychologiques de la haine des Nations".

5- Imago, Zeitschrift für psychoanalytische Psychologie, 23 (1937), pp. 363-70; reprinted in English, translated by Dr. J. . Coleman, The Psyho-analytical Review, 24 (January 1937).

6- Paul Goodman, "Stoicism and the Holocaust," The New York Review of Books, March 28, 2968, p. 15. f. exhange of letters between Lifton and Goodman in ibid., April 28, 1968, pp. 36-37.

7- Lifton, Death in Life, p. 500.

الفصل السادس

الأحلام والهلاوس

فتح الباب

إننى أطرح السؤال: هل يمكن أن تؤدى قراءة كتبى واستيعاب ما جاء فيها إلى تهدئة الضغط الذى تحدثه الذكريات النوعية الموجودة لدى كلٍ منا؟ إن عملية التحليل النفسى الصحيحة يتم اختراقها إذا جاء الكشف مرة واحدة بدل التقدم الصبور نحو الاستبصارات على نحو تدريجى . وليس هذا سوى شكل واحد من أشكال الاختراق. لكن ثمة ميزة عظيمة على العملية المتبعة، وهى تتمثل فى أنه بدل العمل على الافتراض القائل بأن الخبرة الصادمة الحاكمة لدى النوع الإنسانى هى الخبرة الأوديبية وخبرة الإخصاء، يتم وضع الصدمات الحقيقية عارية.

هل من الصحيح أن المعرفة بالأحداث المنسية - ولكن المصانة - فى العقل القبشعورى الجماعى لا يمكن إلا أن تثير اتجاهات عدائية؟ إذا كان صحيحاً فإن عملى يصبح مثقلاً فقط بالكراهية والتململ على السطح الظاهر، وتبقى المضامين المكبوتة حيث هى، ولدى الخوف المرضى (الفوبيا) من كشفها، سوف تقوم المادة المكبوتة بإغلاق نافذة هروب الذات الجماعية من الداخل.

لابد أن يكون ثمة عامل قوى لاضطراب الفعل عند إيقاظ فقدان الذاكرة الوراثى المكبوت، وهذا يحدث أيضا لدى الأفراد من مرضى التحليل النفسى، حيث يؤدى الكشف فى الوقت غير المناسب إلى انهيار ذى طابع فصامى، وعند المحلل غير المدرب فإن مثل هذه

النتائج أمر مألوف. وفى ممارستى للتحليل النفسى أقمت لنفسى عمليات تحول دون هذا، ولم أفشل أبداً فى التزامها، سوف أستطرد هنا وأشرح بإيجاز منهجى فى العمل.

يجب التعامل مع الميول النرجسية أولاً، طالما بقيت هذه الميول سائدة، فلا يجب أن تكون التعلقات الجنسية المثلية الكامنة أو الروابط الأوديبية هى موضوع العمل التحليلى. عن طريق التقدم المتتالى فى تلك المناطق الأقل إصابة فى الذات، تتاح للخاضع للتحليل الفرصة كى يحرر نفسه من الشهوانية الذاتية، وهى المرحلة التى تكون فيها الأنا أقرب ما يمكن إلى الاضطراب الفصامى. أما إذا تعامل المحلل النفسى مع الجنسية المثلية الخبيئة أولاً، فإنه - بإخراجه هذا العنصر من الشخصية العصابية إلى العقل الواعى، فإنه بذلك يجعل الهروب من التخييل الذاتى غير ممكن، وإذا أصبح المركب الأوديبى لدى مرضى التخييل الذاتى أو الجنسية المثلية، هو الهدف الأول للعمل التحليلى، فإنه بذلك يقطع الروابط بين الميول الذاتية، والجنسية المثلية من ناحية، وعملية الشفاء من الناحية الأخرى. إن أشد الأجزاء مرضا فى العصاب - أى الليبيدو الذاتية - هى التى يجب أن تعرض وأن تعالج أولاً، وبالتالى فإن عنصر الجنسية المثلية فى الشخصية سوف يتقدم إلى الواجهة بافتراض أن الميول الأوديبية لم تصبح، قبل فوات الأوان، هدف المحلل، وسوف يكون انبثاق عنصر الجنسية المثلية لدى مريض بالذاتية إشارة إلى تقدم التحليل. وأخيراً فإن المُكون أو العنصر الأوديبى هو هدف العلاج، ومع انبثاق هذا الميل (وهو السائد لدى كل المرضى على وجه التقريب) إلى العقل الواعى، نكون قد بلغنا المرحلة الأخيرة فى إرشاد المريض إلى السواء. وقد وجدت أن هذه العملية لا تخفق أبداً - خلال عدة شهور لا تبلغ السنوات إلا نادراً - فى إنجاز اكتمال ناجح لعملية التحليل. إن محللين كثيرين

- لعدم وعيهم بالعملية الصحيحة - يستدرجون التحليل لسنوات، وما هو أسوأ أنهم أحياناً يقودون مرضاهم إلى الفصام؛ فالتقدم فى الاتجاه الصحيح مغلق، وتناول انحرافات هيِّنة قبل موعد نضجها سوف يدفع بالمريض نحو انحرافات أخطر، وذلك بسبب إغلاق أبواب يجب أن تبقى مفتوحة.

فى العملية الصحيحة يبدو الأمر كما لو أن باباً لحماسة أكثر المرضى اضطراباً يفتح أمامهم، وتتاح الفرصة لأن يتحرك فى مساحة الأقل اضطراباً، ومرة ثانية، باستخدام نفس الحيلة فى مساحة الأقل من السابقة اضطراباً قبل مغادرة المستشفى، فى حين أن تناول المركب الأوديبى أولاً لدى مرضى الاضطراب الانفعالى فى مراحل التثبيت على الجنسية المثلية أو الذاتية، إنما يكافئ تماماً إغلاق الباب المفضى إلى الأقل اضطراباً والإبقاء على مخرج واحد فقط باتجاه الأكثر اضطرابا.

كان فرويد، بالحدس، يتبع العملية الصحيحة، لكنه لم يضع لها صياغة فى أى من كتاباته. وفن التحليل هو فن العلم، لا يتبع كل المحللين - حتى الآن ليس كلهم - القاعدة، ومن ثم يستمر التحليل بغير نهاية، أو إلى ما هو أسوأ، وقد لا يخلو الأمر من حالات انتحار.

لقد اتبعت قواعد هذا المنهج الحذر، وحققت فى عملية التحليل نتائج مرضية، ولكن منذ وضعت فهمى لماضى الإنسان فى إطار إعادة بناء الماضى التاريخى للكواكب، فقدت السيطرة على الآثار - وهى مقلقة ومشوشة فى الغالب - التى أحدثها هذا الكشف فى التكوين النفسى للأفراد الذين تعرضوا له.

كثيراً ما سمعت، وأحياناً قرأت، أنه فى حالات الهلوسة الناجمة عن تعاطى نبات «البيوت» أو سواه من المخدرات، ثمة إحساس عنيف بنهاية العالم الوشيكة، أو بصدامات كونية، أو بقيام عاصمة الجحيم، يستولى على المبتدئ فى التعاطى أو المعتاد عليه. وتؤدى حيوية التجربة والرعب الذى تثيره إلى ظواهر فيزيقية؛ مثل: تسارع ضربات القلب أو الارتعاش والتعرق الزائد. ولاشك فى أن هذه الحالة لا تنتج فقط عن التعاطى، فقد قال بعض من درسوا هذا الموضوع أنه فقط حين يتم الوصول - نتيجة تأثير المخدر - إلى طبقات بالغة العمق فيما قبل الشعور يظهر الرعب الذى يعيش فى كل واحد منا إلى العلن. من أحد أولئك المراقبين الذى أجرى التجربة على نفسه، ثم على مجموعات من الأفراد تتراوح أعمارهم بين الرابعة عشرة والرابعة والسبعين (ولكى يجرى بحثه دون الصراع ضد القانون ذهب إلى البرازيل)، تلقيت الوصف التالى:

من أكثر المستويات الدفينة عمقاً من الخبرة الإنسانية، تظهر - مرعبة ونابضة بالحياة - استدعاءات هى بالضرورة الآثار الأساسية المتخلفة عن الجنس الإنسانى؛ أى سلاسل الكوارث التى عانى منها هذا الكوكب. نتف وقطع من هذه الآثار الأساسية قد حدثت فى جلسات عديدة لكثيرين من المفحوصين، بل حتى فى الجلسة الأولى، لكننا بقينا زمناً طويلاً عاجزين عن فهم ما يحدث. ومع تحرر جزء من هذه الشحنة، لو صح الوصف، تبدأ الاستدعاءات فى أن تصبح أكثر وضوحاً وتماسكاً. وقد ظهرت ذكريات الكارثة بوضوح فى حوالى اثنتى عشرة جلسة أو أكثر ضمت أعداداً من مختلف المفحوصين، ما أحسوا به وما وصفوه يشكل نمطاً مختلفاً عن أى شئ آخر واجهناه من قبل.

"وكل هذه الذكريات مثقلة بالفزع، وثمة دائماً ارتجافات وارتعاشات غير عادية فى الجسد، وإحساسات مفاجئة بارتفاع الحرارة تعقبها قشعريرة باردة، وردات أفعال تشبه الصدمة المفاجئة فى نوبات تقلص، إلى جانب صور بصرية لتفريغ شحنات كهربائية، ورياح عالية، وسيول من المطر، وزلازل، وجحيم لا يمكن وصفه من الضجيج."

وقد قرأت محاضر واحدة من هذه الجلسات كاملة بكل كلمة قالها الشخص، بتحريض من القائم بالتجربة، مع الوصف المفصل للخبرة المشابهة للتعذيب وآهات وأنين الرعب الكامل من جانب الخاضع للتجربة، تساءلت: ولكن لماذا يسعى الفرد إلى تجربة مثل تلك؟ لم أتلق من مراسلى جواباً عن هذا السؤال. هل هى، إذن، مسألة الحاجة إلى إعادة زيارة الزمان والمشهد الذى كان فيه الإنسان والوحش يبذلان جهوداً خارقة، بنجاحات ضئيلة، للخروج أحياء من هذه الخشبة المتهاوية التى كانت أبعادها الأرض كلها والفضاء كذلك؟

مُعلم فى إحدى مدارس التعليم العام فى نيويورك أرسل لى رسالة يقص فيها أحلامه وتجاربه الهلوسية ويعبر عن فزعه لأن الإنسان لا يستطيع أو لا يريد النظر فى ميراثه، وقد عبَّر عن أفكاره بطريقة شاعرية تقريباً، كانت السطور على الصفحة تبدو كما لو كانت مكتوبة على الطريقة القديمة فى النصوص العبرانية، لكنها كانت إنجليزية حديثة. كتب:

«لقد بدأتَ ترفع للإنسانية الأوحال عن ماضٍ ملئ بالعنف الذى لا يمكن تخيله. قبل الهرماجيدون الذى سيعاد خلقه لنا عن طريق ذلك الوثن، بديل المذنب، الصاروخ الحامل للقنبلة الهيدروچينية، ورغم أن النوع على درجة من التقارب، إلا أننا يجب أن نفعل كل

ما بوسعنا كى نتذكر من نحن، ولماذا نحن على هذا القدر من العنف؟! لقد قدمت لنظرياتك عن الصدامات التى أدت إلى المحارق أدلة إثنية وتاريخية وأثرية وجيولوجية، لكنك لم تنزع السدادة عن أهم منابع الحقيقة، أعنى ذاكرة الكوارث ذاتها كما خبرها أسلافنا الذين بقوا على قيد الحياة ونقلوها لأحفادهم عن طريق الحلم والهلوسة. إن لدىَّ مئات الأحلام بعضها يتضمن رعب المذنب الذى يدنو، واللهب، والسهم ذا الريش يلتمع فى السماء، والخوف الداهم، ومحاولات بناء ملاجئ، وتخزين الطعام والماء، وفقدان الأمل، والأحجار المتساقطة كالمطر، والأجساد المحترقة المصهورة، والمياه السوداء بلا نهاية، والأبراج والأنقاض التى يتعلق بها الناجون، والمدن المحترقة، وقطرات الزيت المتساقطة، الإرغام على رؤية الأجساد المسلوخة، قرقعة الجثث المتصادمة فى الهواء، والمتاهات تحت الأرض يتوه فيها الناجون (جزء من الحوار. اللاشعورى حول اكتشاف الكهوف)، والمشانق الخيالية المنصوبة فوق الطوفان، الطيران، والتحليق بعد تغيير قوى الجاذبية،، جواز عبادة آلهة المذنب العنيفة واستعطافها، شرائم مأجورة تلتقط المحكوم عليهم وتقوم بتضحيات مرعبة، وهلاك قبائل أخرى باسم آلهة المذنب، والتعذيب القاسى يوقع بأولئك الخارجين على أعراف وتابوهات طقس المذنب.

كيف يمكن تجنب الأدلة غير القابلة للجدل على صحة كشوفك، وبالتحديد أننا جميعاً سلالة الناجين، وأننا جميعاً نعرف الحقيقة (رغم أننا ننكرها بضراوة فى وجه عمق الفزع والقلق، ونشوه سمعة أولئك الذين يوقظون الجمرات فى كوابيسنا التى نتمنى لها أن «ترقد فى سلام). اللهم إلا لو كنا جميعاً فى حالة الصدمة وفقدان الذاكرة العالمية ولا نجرؤ على تذكر الرعب الذى لام الإنسان نفسه من أجله، (مثل: الشهادة على سقوط الإنسان من جنان

الفردوس). وأنت مجدِّف لأن الأذى أكبر من أن يحتمله عقل واحد، والعقاقير المؤدية للهلاوس ليست سوى وسيلة لخبرة الماضى المرعب دون خطر إفناء الذات فناءً كاملاً، والبديل لكوننا عاجزين عن إعادة الخبرة وإعادة الخلق من الماضى المثقل بالفزع بديل كئيب: استخدام العنف لإرغامنا على التذكر، عنف الانشطار، والانتشار، أو ربما انفجار سلسلة بالغة الحداثة من الاستجابات، العلماء فى سعار من أجل اكتشافها وتجربتها.

هل يجب علينا أن نعيد خلق الكوارث والفناء؛ أى الاضطراب الكوكبى؟ أم يجب علينا أن نحشد قوانا من أجل التشجيع على استعادة أصلنا المشترك - وخسارتنا المشتركة أيضاً - عن طريق إعادة خلق الحقيقة التاريخية من مادة الأحلام من حيث إنها تسجيل لأحداث حقيقية منظوراً إليها من منظور جغرافى وانفعالى معين؟ وربما سنتذكر أيضاً الإنسان وما كان عليه قبل فكرة الخطيئة والعار التى جعلته يهبط من جنة عدن التى كانتها الأرض يوماً، والتى يستشعرها أصحاب الرؤى على نحو غائم، والتى يخبرها - على نحو خشن - متعاطو عقاقير الهلاوس؟ إن صور رعب الإنسانية تنبعث الآن، لكننا مازلنا نراها غير مؤذية، لأننا إذا استطعنا مواجهتها فلن نجدها مرعبة، بل مبهجة، ويعود مجرى الشعور إلى الوراء، إلى الأساس القاعدى للمجنون فى «الجحيم» الذى سيأتى به الاقتران والامتزاج الهائلين بين كوكبنا ومذنب نارى متوهج ذى ثراء هائل وجمال مرعب..»

وإذا كانت ثمة حقيقة فيما كتبه هذا المعلم لى فهى احتمال أن يكون أحد منابع الانتشار الواسع للعقاقير التى تحدث الهلاوس، الرغبة فى الحياة خلال تجربة الصدمة، المدفونة ذكراها عميقاً فى عقل الإنسان.

الكواكب فى الأحلام والقلق

«الحِمية» عمل يستمد أهميته من نسبته إلى «أبوقراط» الطبيب الإغريقى الكبير الذى عاش فى القسم الأخير من القرن الخامس والقسم الأول من القرن الرابع قبل الميلاد، وفيه فصل يحمل عنوان «عن الأحلام» يحوى الملاحظة التالية:

«حين يحدث أن تتجول الأجسام السماوية بعضها فى اتجاه والأخريات فى اتجاه آخر، فهى تحدث اضطراباً فى الروح، ناجماً عن القلق..»

مترجم «الحمية» و. هـ س. چونز أدخل تعديلاً على الجملة: «بعضها فى اتجاه والآخريات فى اتجاه آخر..» فأصبحت «الآن فى اتجاه، ثم فى اتجاه آخر..».

حركة الكواكب؛ خاصة الحركة غير المنتظمة، فى الأحلام ترتبط بفزع لاشعورى. ملاحظة أبو قراط وتفسيره يستندان إلى استبصار عميق. ولكن لماذا يجد القلق العظيم تعبيره فى الأحلام، وهى نتاج العقل القبشعورى، بجعل الكواكب تتجول فى السماء، إذا كانت الأجسام السماوية تتحرك حسب مسارات منتظمة، ولم يحدث أبداً أن هددت كوكبنا وقاطنيه؟

لكى أصور وصف "أبو قراط" للحلم المرعب المتمثل فى خروج الأجسام الكوكبية عن مساراتها، سأقدم هنا حلماً رواه لى أحد أساتذة التاريخ فى جامعة من جامعات وسط الغرب، كنت قد ألقيت محاضرة هناك قبل عدة سنوات، وتفضل عدد من أعضاء الجامعة بدعوتى إلى طعام وحديث:

«قبل زمن مضى، عبرت عن اهتمامك بأحد أحلامى كنت قد رويته فى حديث على مائدة عشاء، حدث الحلم - بقدر ما أتذكر - حين كنت فى السادسة والنصف أو السابعة من عمرى (أى فى

أواخر العشرينيات، أو فى خلال ١٩٢١).. فى الحلم كنت فى باحة بيتنا فى الليل المتأخر، برعب وخوف عظيم تطلعت إلى السما، لم يكن ثمة قمر، ولكن كانت الأجسام السماوية أكبر من المعتاد، تنظر «بغضب» أو رضا أحدها إلى الآخر. إننى أزن كلماتى بعناية كى أعبر عن الانطباع الذى حدث بالفعل.

«وقد ترك الحلم انطباعاً خاصاً لدىّ لأن الصحافة فى تلك الفترة كانت تنشر تقارير فى نبوءات «بنهاية العالم» بعدها (بسنة أو نحوها) حين حصلت على بطاقة للمكتبة، أنفقت قدراً كبيراً من الوقت فى قراءة ما جاء بكتب الأطفال عن الفلك، وقبل نهاية عملى قبل التخرج فى «هارفارد» كنت قد قررت، تقريباً، أن يكون الفلك هو مجال دراستى حين حصلت على الزمالة على أساس عملى مساعداً فى المرصد هناك. إننى أسوق هذا كله كتفسير جزئى لكوْن هذا الحلم ظل باقياً فى عقلى، وفى سنوات الثلاثينيات تم نسيان الحلم، وفى ربيع ١٩٤٤ تذكرته مرة أخرى، على ارتباط برؤية الغارات الجوية على لندن، ليس هذا فقط، بل على ارتباط أيضاً بقراءتى كتاب ج. و. ديون «تجربة مع الزمن» وكان يقول فيه أنه خلال النوم ينطلق العقل ليسافر فى الأبعاد الأربعة (كان ديون عالماً فى الرياضيات، وكانت له بعض الشهرة فى انجلترا آنذاك) وكان طبيعياً أن يوحى لى هذا الموضوع بأن حلم طفولتى كان زيارة سابقة للندن فى زمن الحرب. على أية حال، فإننى أقول بشكل محدد إن الحلم كان مختلفاً عن ليلة الغارة الجوية مع أنه فى الحلم كانت الأجسام السماوية محتشدة وتملأ السماء، ولم تكن لها أية علاقة بشئ يجرى على سطح الأرض، ولم يكن فيه شئ مثل الأضواء الكاشفة أو الصواريخ أو النيران المضادة للطائرات..»

فى الحالة التى قدمناها، فإن الحلم، بما أثاره من قلق وفضول، وجه دراسات الحالم فى سنواته الجامعية، ثم قرر تقريباً، اختياره

لمهنته فى المستقبل.

رأينا فى فقرة سابقة - أن يونج طوَّر نظرية العقل اللاشعورى الجماعى، فبالإضافة إلى القبشعور الخاص بكل فرد، فى كلٍ منا ذاكرة نوعية: إننا نحمل بعض الخصائص - أسماها يونج الأنماط البدائية - التى تتطابق عند البشرية كلها. ولم يعرف يونج كيف جاءت هذه الأنماط إلى الوجود، كان يعتقد فقط أنه وجد هذه الأنماط البدائية المرة بعد المرة، من حيث هى أنماط للفكر والخيال، وقد عزاها إلى النشوء البدائى للإنسان من حيث هو كائن عضوى (هومو - سابينس). ولم يخطر له أن الخبرات المفزعة والمشتركة التى شارك فيها الجميع ونجا منها القليلون فقط، قد حفرت نفسها فى جوهر الإنسان المتوارث. وبعد موت يونج بدأت قلة قليلة من تلامذته فى النظر إلى جواب للأحداث التى وصفتها فى «عوالم فى تصادم».

قبل موته بقليل، وصف يونج حلماً رُوى له:

«.. كانت الكرة السماوية تقترب بسرعة من الأرض، ظننت فى البداية أنه المشترى الذى خرج عن مداره، لكنه حين اقترب أكثر، رأيت أنه، على حجمه الكبير، أصغر من أن يكون كوكباً مثل المشترى... وحين أيقنا بأنه لابد سيصطدم بالأرض اصطداماً مروعاً، أحسسنا كلنا بفزع مفهوم، لكنه كان فزعاً يحكمه الرعب، كان حدثاً كونياً يدعو إلى الرعب والعجب.. ثم جاءت كرة أخرى وثالثة ثم المزيد وكلها فى سرعة هائلة، ثم ارتطم كل منها بالأرض...» (١)

شئ خارج من الذاكرة النوعية يتكشف فى هذا الحلم. حتى الانطباع الأول بأن الجرم السماوى المقترب كان المشترى العملاق، والذى تم تصحيحه فيما بعد، يمثل الوهم العظيم الذى خبره أجدادنا لدى اقتراب كوكب الزهرة، الذى ظُن خطأ أنه المشترى، على

نحو ما وصفت فى «عوالم فى تصادم» (زيوس وأثينا)، وضجيج التحطم يستدعى خبرة من ذات الزمن حين صحبت «الرعود الهائلة» (الخروج ٩ :٢٨) تحطم الشهب، ولم تكن هذه الضجة أقل مدعاة للرعب من أشكال الدمار التى أحدثتها الشهب.

إن الخوف المقترب من الذاكرة النوعية الغارقة والمرعبة ستؤدى -بصورة طبيعية- إلى توقع يوم القيامة. فى الكتاب الذى سبق الاقتباس منه، قدم يونج مناقشة لظاهرة الأطباق الطائرة بالكلمات الغريبة التالية:

«إنه ليس الكبرياء الذى يدفعنى، لكنه ضميرى الطبى ينصحنى بأن أتم واجبى وأهيئ القلة من الناس الذين أستطيع إبلاغهم لحقيقة أن أحداثاً قادمة للنوع الإنسانى تعنى نهاية الدهر...»

فى كلمات الوداع هذه، وبعد نصف قرن أنفقه فى دراسة العقل الإنسانى، كشف يونج عن رؤيته لما سيأتى.

إعصار

فى ١٩٦٦ ضرب إعصار عنيف مدينة توبيكا فى كنساس وأحدث بها دماراً. وفى أكتوبر ١٩٧٣ كتب لى أحد قاطنى هذه المدينة، ويبلغون حوالى المائة ألف، رسالة عن ردات الفعل السيكولوچية لهذه الخبرة من جانب قاطنى المدينة ومن جانبه كذلك. إن الأعاصير غالباً ما تهدد المدينة، وثمة إشارات تحذيرية لها، ورغم أنه كان غائباً عن المدينة حين ضربها الإعصار، إلا أن استجابات قاطنيها لإشارات التحذير التى لاحظها هى ما جعلت كاتب الرسالة يتعجب. وبعد عام من كتابته الأولى، عاد لها مرة أخرى عن الاستجابات السيكولوچية غير العقلية كما بدت له،

وقارنها باستجاباته هو، المفرطة ولكن فى الاتجاه المعاكس، لهذه الإشارات. وحيث إن هذا المراسل كان، كما قال، يتلقى علاجاً بالتحليل النفسى، فقد كان شيئاً مضيئاً أن تقرأ، حتى فى خطابه الأول، أن الأمر لم يكن أمر مخاوف وانطباعات طفولية، ولا كان أمر المحيط الاجتماعى والتفاعلات الحادثة فيه، بل كان لوناً من الخبرة النوعية بقى دون حل عن طريق تحليل الخبرات الشخصية -وهو نفس اليقين الذى بلغه فرويد بعد سنوات طويلة من التأمل. ولم يكن هذا الرجل من توبيكا على أية حال، مطلعاً على المفهوم الفرويدى عن الذكريات النوعية الغارقة، إن هذا المفهوم، على نحو منتظم، وحتى بإصرار، يظل غير مطروح للنقاش، ولا يلتفت إليه المحللون فى عملهم، وهم بهذا يكشفون عن أنهم ليس فقط يتجاهلون ما اعتبره فرويد تتويجاً لإنجازاته، بل أنهم كذلك لا يقدرون على التطهير إلا لعمق معين. والخطأ خطأ فرويد نفسه؛ إذ أنه أيقن بوجود «قوى شيطانية» تمارسها الذاكرة النوعية الغارقة عن خبرة الماضى الصادمة، لكنه أخفق فى التيقن من طبيعة هذه الخبرة.

أقر مراسلى بنفور رجال العلم من مواجهة الحقيقة، ولم يدخر كلماته اللاذعة، ودون أن يعرف استبصارات فرويد حول الذاكرة النوعية، أشار إلى فرويد بأنه غمس أصابع قدميه فى مياه العمق البعيد، ثم سحبها لأن الماء كان حاراً جداً. ولا شك أن فهماً أفضل لاستبصارات فرويد الأكثر عمقاً، لم ينقل إليه حين كان يستلقى على أريكة التحليل النفسى، كان سيحول بينه وإطلاق هذه الملاحظة الدالة على الاستخفاف، لكنه كان يمتاز عن فرويد لأنه قرأ العمل الرائد للمرتد الذى كان يكتب إليه، إذن، فقد كان يعرف أن الخبرة الصادمة للنوع الإنسانى لم تكن تكرار قتل الأب فى كهوف ما قبل التاريخ، بل فى رعب الإنسان الذى لا حيلة له، والذى كان منذ بداية الزمن - ولأكثر من مرة - مهدداً بالدمار من جانب

عناصر معادية، من أجلها حفر فى الأرض «مثل الخلد» أو فر مذعوراً إلى ملاجئ قاتلة أحياناً فى كهوف الجبل المرتعش.

وحيث كان هذا الرجل من توبيكا بعيداً عن المدينة خلال إعصار ١٩٦٦، فقد تحريت منه كيف أصبح قريباً من الخبرة بحيث سجّل استجاباته لإشارات التحذير، وفى رده وصف كيف داهمته مشاعر الفزع حين حاصرته أزمة مرور فى مدينة مينا بوليس، حيث نشأ، حتى حين تقدمت عربات الشرطة مطلقة صافراتها محذرة من الإعصار. ومينا بوليس مدينة نادراً ماضربتها مثل هذه العواصف الدوارة. وقد استجاب آخرون من المحاصرين فى أزمة المرور على نحو مختلف عن أهل توبيكا الذين سبق لهم أن خبروا أحداثاً مثل حدث ١٩٦٦. وفى مواجهة التحذير من الإعصار، بعد سنوات قليلة من خبرة ١٩٦٦، فقد استجابوا فى هذه المرة الأخيرة كما لو أنهم يحاولون إنكار الخبرة، وترد إلى الذهن المقارنة مع استجابة الناس لما حدث فى هيروشيما، واضعين فى الاعتبار المستوى الأكبر بكثير لهذا الحدث، وفداحة الضريبة التى دفعتها الحياة الإنسانية، لكن حادث هيروشيما، بدوره، لم يكن على مستوى الأحداث الكونية فى ماضى الإنسان.

من هذه الخطابات كان بمقدورى أن أعرف أن كاتبها قد درس القانون، وأن له بعض الاهتمامات الأدبية، لا تدريبه ولا مؤهلاته تتيح له أن يكون خبيراً بالمسائل التى يكتب عنها. على أن محللى عيادة مسينجر القريبة من توبيكا، ومعهم كل هذا الحشد من المحللين الذين كانوا، بعد جيل واحد من فرويد، يقعدون على رأس أريكة التحليل النفسى ويستمعون «بالأذن الثالثة»، يمكن لهم جميعاً أن ينظروا فيما إذا كان ثمة دروس يمكن تعلمها من تلك الرسائل التى سوف أقتبس منها مطولاً:

«عزيزى الدكتور فليكوفسكى...

إذا كنت قد فهمت نظريتك فهماً صحيحاً فإن النقطة الرئيسة فيها هى أن الناس يكبتون وعيهم بما يمكن أن يخيفهم، وهو مايشعرون إزاءه بأنه لا حيلة لهم. بالنسبة لى، وبالنسبة لكل من عاونهم التحليل النفسى، مثلى، فإن هذه حقيقة مؤلمة. لكن مايربط خبرتى الخاصة بما تقترحه أنت هو أننى عملت، ذات مرة، من خلال فترات الطفولة الباكرة «المنسية» ولكن بقى هناك شئ ما، شئ يسبب الرعب أكثر بكثير من سواه، شئ كريه معاكس لدرجة أن المستدعيات لم تصل أى مكان، ولكن تدريجاً وببطء، بدأت طبيعة هذا الوحش تكشف عن نفسها...»

«إننى أعيش فى توبيكا، فى ولاية كانساس، وهى مكان شهير بسمعته السيئة عن جوها العنيف والذى لايمكن توقعه. قبل مأزق تجربتى مع التحليل النفسى، كان الجو يرهقنى حين يسوء، لكنه لم يكن شيئاً انشغل به فى الفترات الأكثر سلاماً، رغم ذلك فقد كان ثمة إحساس بالتطير؛ إحساس بشر وشيك، حين تظلم السماء. كان تحليلى النفسى يعبئنى دائماً ضد هذا الفزع القبشعورى الذى لا يحمل اسماً، ونما لدىّ خوف رهيب من الظلام كما لو أنه لابد من أن يأتى بأشد الكوارث. كانت غرائزى حين أكون بالخارج تتجه نحو أن أغطى رأسى، وأن أبحث عن ملجأ. أصبحت السماء هى العدو.الآن فإن اللواذ بملجأ لابد من أن يوفر خلاصاً معقولاً من الشروط التى تخلقها العاصفة الموجودة، لكن هذا لم يكن الحال معى؛ فالأمر كان يبدو كما لو أن هذه العناصر المادية التى تهددنى أقوى بكثير من أن أستطيع عمل شئ ضدها، ويصبح شعورى بقلة الحيلة شاملاً، وهذا الجانب هو ما كان يرعبنى أكثر من سواه. كان الخلاص الوحيد الممكن هو «الغضب» الموجه ضد أى أحد أو أى شئ يوجه إليه اللوم لأى سبب، بصرف النظر عن علاقته بمصدر التهديد..

«وقد راقبت - بدقة وعن قرب - استجابات واتجاهات الآخرين في المناخ الذي ينبئ عن اقتراب الجو السيىء، قبل سبع سنوات كان ثمة إعصار أحدث دماراً في المدينة، من هذا الحين كانت ثمة وسائل إنذار عديدة، وهكذا كان الناس يعرفون، بصورة ملائمة، الغرائب التي تحدثها هذه العواصف ومسلكها وآثارها، كانوا يعرفون كما كنت أعرف، أنه مع الرادار وصافرات الإنذار، وما لم تكن وحيداً معاقاً، فإن بوسعك ضمان السلامة، رغم ذلك فحين تأتي أوقات التوتر هذه، فلا أحد تقريباً يسلك على نحو له علاقة بالتجربة أو بالاحتمالات المعروفة!

هناك دائما إما فزع قريب (كما هي الحال معي)، وإما رفض أخذ هذا الإنذار مأخذ الجد، وهذا هو السائد، هذه الاستجابة الثانية، من جانب الناس الذين هم «في الإعصار»، أمر مدهش ومحير حقاً، ولابد لي من أن أسأل هؤلاء الناس الذين بقوا على قيد الحياة، ويعرفون بدقة ماذا يفعلون كي يبقوا على قيد الحياة مرة أخرى، لماذا لا يستجيبون؟

«إنني أجيب عن السؤال حسب حالتي الخاصة: إن هذا الحدث الخارجي المفزع يقيم ارتباطاً بحدث آخر أكثر مدعاة للفزع، وفيه كان عدم وجود سبيل للهرب هو ما جعل الناس، بالفعل، لا حيلة لهم ولا دفاع عنهم...»

بعدها بخمسة عشر شهراً، وكما يوضح الخطاب الثاني، فإن الأفكار التي عبَّر عنها في خطابه الأول لم تتراجع إلى مؤخرة عقل الكاتب، بل ظلت تشغله وقادته إيضاً إلى اقتناعات جديدة:

«عزيزي الدكتور فليكوفسكي...

لعدة سنوات الآن، كنت أفكر فيما اعتبره العدو الطبيعي

الأكبر للإنسان، لا، ليس الموت، بل أسوأ، أعنى ميل الإنسان لأن يرى العالم ويرى نفسه، فقط، على النحو الذى يسره...

دكتور فليكوفسكى.. أنت موضع كراهية وإرهاب لأنك تكشف عن شئ لا يمكن احتماله بشكل أساسى، أنت تبعثر الاعتقاد بإمكان السيطرة لأبعد الحدود، إن القوى غير الإنسانية، ربما القوى العمياء، ربما القوى المشوبة بالغل والحقد، تحيط بنا. هذه الحالة للأمور، أكثر من أى شىء آخر، هى مالا يتقبلها العقل الإنسانى...

«كتبت لك قبل عام بعض الملاحظات حول الأعاصير، هذه الأحداث الطبيعية، بالنسبة لى، هى أشياء تقيم ارتباطا بذكريات مكبوتة ذات طبيعة كارثية.

«إننى أعيش فى توبيكا، كإنسان، وهذه المنطقة تصبح، فى الربيع والخريف،، تحت ضغط التهديد الدائم للأعاصير، وفى ١٩٦٦ ضرب الإعصار هنا، وبلغ اتساعه نصف ميل، ورغم أننى لم أكن هنا فى ذلك الحين، إلا أن الأفلام التى التقطت كانت أكثر شئ أفزعنى فى حياتى..

«وما رفع درجة اهتمامى بهذا الموضوع أننى لاحظت أنه بعد سنوات قليلة من وقوع الكارثة كان سلوك الناس كأنها لم تحدث قط، وحتى الآن فحين تصرخ صافرات الإنذار لا يفعل معظم الناس شيئا، إنهم يرفضون تغيير سلوكهم على الإطلاق، ولا هو اتجاه واحد بلا أمل فى وجه عدو رهيب، والحقيقة أنه هناك الكثير مما يمكن للفرد أن يفعله ليحمى نفسه: استمع للراديو، اهبط للدور الأسفل، ابذل «بعض» الاهتمام. على أن الكثيرين لايفعلون حتى هذه الأشياء البسيطة، بل يتصرفون كأنه لا شىء يحدث، وتقريباً كأنه لم يحدث من قبل.

«ومما لا يكاد يُصدق أن هذه الاستجابة الغريبة هى النموذجية لدى أولئك الذين عاشوا الإعصار الرهيب فى ١٩٦٦؛ أى الناس

الذين رأوا وسمعوا ما أحدثه من دمار.

«يجب أن أقول أنه كانت هناك قلة تستشعر الرعب، كانوا يرتجفون ويقدرون ما يحيق بهم من خطر، لكنهم غالباً ماكانوا يتصرفون كما لو أنه ليس أمامهم مهرب، رغم أن الطابق الأرضى على مبعدة ثوان منهم.

«على أية حال، كل هذا بدا لى غريباً جداً، خاصة وأننى عرفت عدداً ممن تعرضوا لحوادث تحطم سياراتهم، إن استجابة هؤلاء تختلف اختلافاً دراميأ عن مسلك الناس فى الإعصار. ضحايا تحطم السيارات لا ينظرون إلى القيادة باعتبارها أمراً خطيراً، ومن ثم يتوقفون عنها، ولا هم يتجاهلون الواقعة فيقودون سياراتهم كأن شيئاً لم يحدث، إنهم يستمرون فى القيادة، ولكن بحرص أكبر، إنهم يتصرفون بعقلانية.

«لماذا، إذن، هذا المسلك الغريب فى ظل تهديد الإعصار؟

«إن الناس حولى لا يميلون إلى استخدام كلمة «إعصار» ويفضلون كلمة «عاصفة» وثمة فارق فى القوة العاطفية لكل من الكلمتين. ولعل الأكثر غرابة هو أن الحيوانات يبدو وكأنها «تعرف» قرب حدوث الإعصار: تختفى الحشرات، وتتوقف الطيور عن الغناء، وترتجف الكلاب وتلتمس المأوى، وهذا لا يحدث لو كانت عاصفة رعدية ليس لها قوة الإعصار، حتى أنا أستطيع استشعاره، إن الهواءنفسه يحبس أنفاسه ينتظر ويأمل ويرغب.

إن كل واحد يستشعرها، فى حين يتجاهل معظمهم هذه المعلومة، وليس هذا، ببساطة، لأنهم لا يملكون وسائل السيطرة، إنهم «يستطيعون» الابتعاد عن الطريق، و«يستطيعون» التماس ملجأ آمن، لكنهم لا يفعلون، وبالنسبة لى، كان الأمر شبيهاً بمن يمشى على شريط السكة الحديد، يرى ويسمع القطار القادم، ولا يستطيع أن يخطو بعيداً عن طريقه».

«ولكن يبدو أن القطار يختلف عن أى خطر طبيعى، لأن الناس «فعلاً» يخطون بعيداً عن طريقه.

«إن الحدث هائل جداً وهو ينحدر من الجنوب الغربى، والرمادى الأسود يمتد من الأفق للأفق، يتحرك مثل موجة عملاقة، والنهار يصبح ليلاً، وتشعر كما لو أنها نهاية العالم.

«إنها خبرة رؤيوية تامة.

«ولهذا السبب، فلا قدر المعلومات عن هذه العواصف، ولا قدر ممارسات تجنب الخطر التى يمكن أن تتخذ، بوسعها أن تقلل من الرعب المرتبط بها. وتبدو رؤية دانيال الدفاع الوحيد. إنها مخدر ينفع الناس كحماية انفعالية من الرعب..»

بعد أقل من أسبوعين على تاريخ الرسالة التى اقتبست منها تواً، وبناء على طلبى، وصف لى الرجل من توبيكا خبرته السابقة فى مينا بوليس حين كان قاطنوها لا يحتفظون فى ذاكرتهم بكارثة كبرى، إلا أن استجابتهم للصافرة تمثلت فى ارتباك حركة المرور كلها، وبعد أن بلغ بيته تطلع نحو الأعلى:

«عالياً جداً، وعلى مسافة نائية، رأيت مابدا لى خصلة ضئيلة يختلط فيها الرمادى بالأبيض، معلقة بين السحب، وكان طرفها السفلى، الذى مايزال يرتفع فوق الأرض بمقدار معتبر، يتحرك مثل ذيل القطة حركة بطيئة مرتعشة.

«ورغم أنها كانت تتحرك بعيداً عن حيث كنت، إلا أننى مضيت نحو الطابق الأسفل شاعراً بأنه ليس ثمة مفر. كانت استجابتى عنيفة حتى إننى خفت على قلبى، ولم يعترض شئ طريقنا، لكنها حين ذهبت كانت دستة حيوانات قد ضاعت فى أماكن أخرى من المدينة..

«الشىء المثير للاهتمام حول هذا الأمر كان مشاعرى قبل

الشعورية التى كانت لدى قبل الرؤية. كان جسدى «يعرف» حتى قبل الصافرة أن الغضب قادم. كان إحساساً لم أعرفه من قبل فى العواصف السابقة. كان إحساساً بالموت، ليس فقط موتى الخاص، بل موت كل إنسان آخر. مرة أخرى بدا الأمر - على نحو ملح - كأنه نهاية كل شىء.

«إننى أتذكر شيئا آخر. حين كنت صبياً صغيراً كنت متأثراً ومرتبكاً إزاء سلوك أبى فى العواصف، بطبيعته، كان عقلانياً جداً ،شديد العناية بكل شئ، ولم يتوقف أبداً عن تذكيرى بضرورة أن أكون مهتماً وحريصاً بالسيارات والمنحدرات والسكاكين والكهرباء، لكنه ما أن تعصف العاصفة حتى يترك مايكون بيده وينطلق إلى الخارج، حتى فى أشد العواصف الكهربية قسوة كان يتجول فى العراء.

«لم يكن الخوف يبدو عليه أبداً، وكان ينسى أى شئ آخر. وكانت نظرات عينيه غريبة، كانت ساطعة، محملقة، ليست أبداً صفات الرجل اليقظ الحصيف القادر على التركيز الذى يكونه فى غير هذا الوقت. وكان هذا يفزعنى، كأن الأمر يبدو لى كما لو كان مستدرجاً - دون مشاركة واعية - للتوحد بهذا العنف.

«وقد رأيت هذا الأمر كثيراً هنا فى توبيكا. الناس الذين عاشوا إعصار ١٩٦٦ كانوا يكتشفون، فجأة، أن لديهم ما يفعلونه فى الخارج أثناء انطلاق الصافرات، مثل تشذيب الحديقة أو للذهاب للمخزن أو أشياء من هذا النوع، ولم يكونوا أبداً فى عجلة، بل فى بطء وتراخ وانفصال.

«وكانت ثمة دراسة أجريت على الناجين من هذه الكارثة. فيما بعد لم يشر أحد إلى ماحدث، لم يتحدث أحد عن الدمار حتى لو كانوا مستخرجين من بين الأنقاض. ولم يقل الضحايا شيئاً سوى وصف النشاط الخارجى الذى كان يدور حولهم حين ضرب الإعصار.

لا روايات شخصية، لا انطباعات حول كيف كان الأمر بالنسبة لهم، وينتابك الإحساس بأن شيئا لم يخبر فى الحقيقة على نحو شعورى، بعدها مباشرة كانت ثمة أمارة صغيرة لانفعال من أى نوع، وقد وصف قليلون أى شئ إلا حالة إصابتهم بالدوار.

«زوجان أعرفهما كانا يقيمان على مبعدة مربع سكنى من مكان الدمار الشامل، ما أن سكن جئير الإعصار حتى خرجا فى سيارتهما وقاداها عبر المدينة كى يصلا فى موعد لعبة بريدج. هذا رغم حقيقة أنهما استغرقا ساعتين كى يجتازا مسافة ميل واحد ملئ بالانقاض يفصل بينهم وبين الحفل. «البيزنس» كما هو. لم يحدث شيئا.

«فى الربيع الماضى فقط كانت السماء حبلى بالشر، والصافرات تزعق والراديو يذيع أن إعصاراً فوق المدينة، جارى يجلس على المرجة الأمامية، وفى حضنه طفله ذو العامين، كان هو أيضا فى توبيكا فى ١٩٦٦، أطفأ البرق الأنوار وشق شجرة من منتصفها عبر الشارع، وبقى جارى حيث هو.

« لا أعرف ما إذا كنت ستجد هذه الصور القلمية الصغيرة مفيدة لك. لكننى آمل أن تنقل إليك أن اللاإدراك الخائف يصبح القاعدة فى مثل هذه الأوقات. ربما كان اللاشعور عندى أقرب إلى السطح أكثر مما هو لدى معظم الناس، إنهم يتصرفون وفق عدم وجود حقيقة ما...»

هوامش الفصل السادس

1- C. G. Jung, Ein moderner Mythus (Zürich: 1958).

الفصل السابع

تخطيط زمنى لأحداث عصرنا

يجب أن يقرأ الفصل التالى كله باعتباره تعليقات جارية على بعض الأحداث فى العقدين الأخيرين، وكل قسم من أقسام هذا الفصل مكتوب فى وقت وقوع الحدث الذى يتناوله أو قريباً منه، سواء كان عن اضطرابات الطلبة أو ووترجيت أو جونستون، ولهذا السبب فإن بعض الأشخاص الذين رحلوا، مثل ماو، أو عُزلوا، مثل أمين، يرد الحديث عنهم أحياناً فى صيغة الحاضر.

ذكريات تستيقظ

ماذا وراء هذا التحول الكبير الذى يقع الجيل الشاب فى قبضته، والذى يغير المجتمع إلى درجة أن من حق عالم الحيوان أن يتشكك فى أن ثمة عمليات تغيير إحيائية مهمة تحدث، وإذا كان ثمة تحول مماثل لدى الثدييات العليا أو ذوات الأربع، فهل يؤدى هذا، على وجه اليقين، إلى تنويعات جديدة أو حتى أنواع جديدة؟ إن شاباً من الهيبز فى التاسعة عشرة، وأباه فى منتصف العمر، قد لا يبدوان - من حيث المظهر الخارجى - لا ينتميان للفصيلة نفسها، أما من حيث التفكير والسلوك فقد لايبدوان منتميين للنوع نفسه. فالأب، المستعد استعداداً حسناً، يلبس بطريقة لائقة، يسعى لتحقيق ماكان يهدف إليه أبوه: التقدم والإنجاز فى الدراسة والعمل، الإنجاب، الاستجمام فى الجنس داخل العلاقة

الزوجية وخارجها، الراحة والمتعة، الجولف، قارب بخارى ومنزل صيفى، وربما زيارة الكنيسة كل يوم أحد، ومتابعة يومية لأخبار «وول ستريت» والضجر بالليل، والهرب منه، بين الحين والحين، بارتياد مكان فاخر للطعام والشراب، وفوق كل شيء: الأمن والمكانة، المكانة والأمن.

على الجانب الآخر من هوة الجيل انفصال أساسى عن كل ما عددناه تواً، من هدف الحياة إلى المظهر الخارجى: حفاة الأقدام، فى سراويل الچينز المهترئة، بشعور طويلة شعثاء على الرأس والوجه، تلك هى الأمارات الخارجية لرفضهم كل ما هو موضع قبول واحترام، وسعى من أجله، وامتلاكه من جانب أولئك الواقفين على الجانب الآخر من الهوة.

ماذا وراء هذا التغيير فى القيم الداخلية والخارجية؟ ما الذى يدفع هؤلاء الشبان والشابات إلى الانفصال الكامل عن طرائق حياة الآباء والأمهات؟ ما الذى يجعلهم يفضلون النوم على سرير حقيبة بدل من آخر حسن الفراش والغطاء؟ الحياة تحت أى سقف متاح بدل الحياة الآمنة فى ظل الرعاية الأبوية، فى ڤيللا من ڤيللات الضواحى، يحميهم مخزون السلع والضمانات؟

ما الذى يدفع، إذن، قسماً معتبراً من الجيل الشاب إلى بذل الجهد فى الاتجاه المضاد؟ ما الذى يدفعهم لإعادة بعث إنسان الكهف من حيث المظهر، رغم أن رجل الكهف من المحتمل أنه كان يشذب لحيته بقطعة صوان؟ رجل الكهف الذى لا يحمل هراوة، بل يحمل بدلها زهرة.

هل هى يقظة جديدة لحركة «الجوهر» التى عرفنا عنها شيئا من لفائف «البحر الميت»؟ هل هؤلاء الهيبيون جماعة دينية يخيفها توقع نهاية العالم؟ هل هم مقلدون للطوائف المسيحية الأولى المناهضة للعنف؟

هم «فعلاً» خائفون. كانوا يركضون بحثاً عن موضع «آمن» لدى اقتراب نجيم، هو ايكاريوس، بكتلته التى تبلغ مليون، أو بليون طن من مدار الأرض الذى كان متوقعاً فى ١٩٦٨. كانوا معنيين، بوجه خاص وبرعب حقيقى، بتك النبوءة محتملة الحدوث -عند الكثيرين منهم على وجه اليقين- بانزلاق كاليفورنيا إلى المحيط على طول سانت أندرياس بالنظر إلى وجود صدع أرضى، مع التضخم السريع والمفاجئ لهذا الصدع واندفاع القشرة الأرضية. إنهم لا يقضون حياتهم فى استنكار طيبات الدنيا، لا مبالين بالحياة ذاتها، هم مقبلون على الحياة ومعنيون بها ربما أكثر من آبائهم المتزنين الثابتين. إنهم مضروبون بشئ لا يعرفونه، وهو ما يجعلهم يلتمسون حياة متقشفة خشنة، إنهم خائفون لسبب لا يعرفونه، لكن الأرض الصلبة التى أقامها آباؤهم لهم تبدو أرضاً غير آمنة، لا تصلح إلا للفرار منها.

ويبدو أنهم لكونهم ولدوا لآباء عاشوا - وبعضهم شارك - الحرب العالمية الثانية، ولأجداد عاشوا - وبعضهم شارك - الحرب العالمية الأولى، فإن هذا الجيل الجديد، حين ينظر وراءه إلى ماضٍ ملئ بالعنف، يحس باقتراب نهاية العالم.

إن الرجل الذى رغب فى أن يقود المجتمع الإنسانى إلى السلام هو الذى وضع المعادلة الأصلية للسلاح الذرى، والدمار وقبل ذلك. فإن الرجل الذى اخترع الديناميت أقام جائزة سنوية للسلام، فأى من المَسْعيين المتناقضين سيسود؟

من هنا تمسك قبضة التشاؤم بأولئك الذين يوشكون على الدخول فى حياة الرشد، لكن التيقن الشعورى بإمكان حدوث المحرقة، وهو تيقن معتمد على تاريخ القرن العشرين، ليس الحكاية كلها، فثمة شئ فى العقل الإنسانى اللاشعورى بدأ يصبح محسوساً، شئ دفع به إلى حالة من نصف اليقظة، إلى ارتجاف فى

الشرايين، مفتاح خفى لنظام الغدد، فى الضفيرة الشمسية، فى النخاع، فى المادة الرمادية، فى كل مكان خبأ الفزع القديم نفسه فيه، بدأ شئ يرتعش على نحو مختلف قليلاً، دار المفتاح نصف دورة، أضاءت بعض الذكريات، شرارة تومض إلى الأمام وإلى الخلف وحول المليون خلية التى تحتفظ ببقايا آثار أصل النوع، شبكة تتقاطع عليها الالتماعات.

فى السقف «السكستوسى» (نسبة للبابا سكستوس) الذى رسمه مايكل انجلو، يستيقظ آدم حين تمتد نحوه ذراع، يمتد منها إصبع حتى يلامس يده، لكنه ليس رجلاً ملتحياً طائراً مكسواً بالثياب، ليس عراباً هو من يوقظ آدم، لكن النداء قادم من الداخل، من العقل اللاشعورى، من موروث عنصرى شبه غارق، عميق يتعذر فهمه، غير أنه حاضر دائماً، لا يمكن استبعاده من كائن إنسانى واحد. أو نوع حيوانى واحد. تلك الآثار القديمة بحاجة لوتر يتجاوب معها. الحربان العالميتان ورماد هيروشيما وجمرات ناجازاكى كلها لامست هذا الوتر، ومن ثم أصبحت حكاية الانقلابات الكونية القديمة بحاجة لأن تروى، حتى تتقدم ذكريات التاريخ النوعى بأشرعة منشورة من المأوى الذى خُتم عليها فيه منذ آلاف السنين.

أواخر الستينيات: اضطرابات الطلبة

باحات الجامعات أصبحت ساخطة وسرعان ما اجتاحتها مشاهد العنف. الرؤساء والعمداء وسواهم من الإداريين تم حصارهم فى مكاتبهم، تحطم الأثاث وأدوات المعامل، الأرشيفات تناثرت أو ألقيت من النوافذ أو احترقت، أغلقت مداخل القاعات العامة، ونشبت الحرب ضد رجال الشرطة، وأقيمت المتاريس.

وقد مُحصت اضطرابات الطلبة من جانب سلطات عديدة، وأُرجعت إلى أسباب مراوغة أو متفجرة. قال البعض إن وراءها دوافع سياسية، قضايا تتعلق بجناح يسارى أو يمينى، أو بدعاة السلام الأشداء، أو بمشاكل التكامل، أو بالجنس: إباحته وانحرافاته، وقال آخرون إنها تعبير عن العدمية وكراهية «الهيبيين» للنظام والانتظام، وانغماس شباب العشرينات فى الشراب، والإدمان الجماعى للمخدرات، أو انبعاث دينى. ما القوة التى تقف، بالفعل، وراء هذه الاضطرابات؟

كان وراءها كل ما سبق. لكن ما هو أكثر من أى شىء آخر هو تيقن الطلبة أنه فى عصر جديد للإنسان، مختلف عن العصر الڤيكتورى الذى دام طويلاً، قدر اختلاف هذا العصر عن العصر الحجرى، فإنه يتم تلقينهم مناهج قاصرة، من مراجع بالية عفى عليها الزمن، وعلى أيدى معلمين لايمكن تمييز تعرفهم على حقبة جديدة فى العلوم والإنسانيات إلا من خلال سعيهم المحموم إلى المنح.

حيثما ذهبت تلبية لدعوة من كلية أو جامعة، كنت أجد الطلبة، خاصة النابهين منهم، مروعين بنقص التدريب الذى يقدم لهم، فى حقبة كان الإنسان فيها قد انطلق بالفعل خارج إطار عالمه الضيق بصراعاته الصغيرة، وخطا أولى خطواته فى الكون الأوسع بعد عشرين عاماً من تحرير الطاقة فى الجسيمات.

العلم يرجع إلى عدة عقود مضت، مؤبد فى المراجع الجامعية، ملئ بوجهات نظر تجاوزها الزمن، موروثة من القرن التاسع عشر، ومعلم الجامعة، باستثناءات قليلة - مستبد بالنظر إلى إحباطه وافتقاده الأمن الداخلى، يقدم ملاحظات متحجرة باعتبارها حقائق مطلقة، مستبعداً الحاجة إلى التفكير أو الدراسة الأكثر عمقاً.

فالچيولوچيا يتم تعليمها حسب مبادئ تماثلية وضعت فى زمن

سابق على اكتشافات علماء المحيطات ودارسى علم المغناطيسية الباليونتولوچية لأدلة على العنف الكونى، فى السنوات الأخيرة، كما أن الاكتشافات الحديثة حول المجالات المغناطيسية فيما بين الكواكب، والشحنات الكهربية على الشمس وسواها من الكواكب، والبلازما فى الفضاء، لا تكاد تجد لها مكاناً فى معظم المراجع الجامعية، أو يشار إليها فى المقدمات فقط، كما أن الحرارة العالية، والدوران العكسى لكوكب الزهرة والغازات المنبعثة عن القمر الذى ظل الظن سائداً لفترات طويلة بأن قلبه بارد، مثل هذه الظواهر الخارجة عن القياس لا تجد لها تفسيراً فى مراجع الفلك التى تدرس فى الجامعات.

إن الأنباء المقلقة تتدفق فى تيار لا ينقطع من المناطق القطبية، ومن أعماق المحيطات، ومن المواقع الأثرية حول العالم، وكذلك تأتى مادة مربكة من معامل تحديد تواريخ الكربون المشع، ودراسات المغناطيسية الباليونتولوچية وعلم الباليونتولوچى أو الاحاثة نفسه.

وكان ثمة إحساس قائم بالفعل بأن نظرية التطور القائمة على مبدأ مالتوس فى أن التنافس على وسائل الحياة يؤدى إلى خصائص جديدة فى الأنواع - الميكانيزم الوحيد الذى تقدمه للتطور - إنما أصبحت بعيدة عن الحقيقة، وظهور أشكال جديدة تماماً من الحياة قبل عدة عقود فقط - حرفياً فى الأركان والزوايا - فى وجود كل العوامل الإشعاعية والكيميائية والحرارية الضرورية لإحداث التغير فى الممالك الحيوانية والنباتية، وهى متاحة فعلاً لأداء المهمة المطلوبة. إن الأمل فى المعامل، لا فى محرقة نووية مع ما يصحبها من تحلل وانهيار.

إن بيت المعرفة، الذى كان ثابتاً وراسخاً قبل عقدين فقط، أصبح اليوم مليئاً بالشقوق والصدوع، نتأت جدرانه أو تقعرت،

وأصبحت أساساته بعيدة عن البناء نفسه، وانهارت سقوفه؛ فالتاريخ القديم والأنثروبولوچيا والعلوم الاجتماعية والفلسفة وعلم النفس كلها عانت ارتجافات وصدمات وانهيارات، رغم أن القائمين على هذه المجالات غالباً ما يزعمون أن القيم القديمة منيعة لا يمكن انتهاكها. فى وجه هذه الأبنية يدعى حراسها أن كل شئ على ما يرام فى الداخل، فى حين أن هناك، بالفعل، عدم اتفاق فى الداخل وثمة تقسيم معترف بوجوده فى أرض الإقليم بين الجماعات المتنافسة وأنصارها، فى علم النفس مثلا، فإن أنصار «المدارس» المختلفة يقسمون بأساتذتهم المختارين، ولم يحققوا تقدماً واحداً فى جيل كامل، غير واعين، أو غير راغبين، فى مواجهة الحاجة التى لا يمكن تجنبها، وهى قضية الذكريات النوعية.

تطوير نظريات علمية جديدة يثير المشاكل أمام تكوين السلطة فى المؤسسة العلمية ذاتها. بروسائها القليلين الذين يحكمون وضع الأغطية على أوعية الاختمار والبحث، والنشر العلمى الذى يخدم سياسة إبقاء الجمهور العام، بل حتى الجماعة العلمية، على جهل بدلالة الحقائق المكتشفة حديثاً على تداخل النظم العلمية، وجوقات موزعى المنح ومتسلمى المنح، قشرة عليا تعمل على تخليد ذاتها، تحيا بعيدة عن العلم، وتكرِّم كبارها بإطلاق أسمائهم على مبانى الكليات والمؤسسات، والطلبة الذين يحسون بأنهم ينتزعون أساتذتهم من «مشروعاتهم» والتماس المعونات والميزانيات، وكتابة التقارير عن الميزانيات التى انفقت، والميزانيات المطلوبة، ومعلمو العلوم الإنسانية - أو «الثقافة الأخرى» حسب تعبير س. ب. سنو - يغارون من العلماء ويركزون جهودهم على تصميم مشروع دسم حول فكرة هزيلة، و«المفكرون» يركضون من الساحل للساحل، ومن مؤسسة لمؤسسة، وانسحاب أصحاب العقول من التدريس للصناعة، ونشر نصف مليون بحث «علمى» كل سنة،

معظمها يهدف إلى تبرير المنح وتقديم التقدم، ومجالس الأمناء معظمهم من خريجى نظام المدارس الإعدادية- تجدهم يوم الأحد فى مقصورات الكنائس، ومن يوم الاثنين ليوم الجمعة على اتصال مباشر مع وول ستريت، حيث يعينون مستشارين وعمداء ويسخطون الجميع.

وسط هذا الهرج والمرج يوجد ما بين مليونين إلى ثلاث ملايين طالب فى الولايات المتحدة وحدها، كثيرون منهم يرهقون دخول عائلاتهم للحصول على امتيازات التعليم الجامعى، يطلب منهم كتابة أبحاث أسبوعية، ويخضعون آلياً لامتحانات تحريرية ويعملون على رفع درجاتهم. بلا حول ينقادون إلى التيار، فيفقدون فرديتهم، ويصبون فى قوالب كتاب التقارير، ويتحولون إلى بطاقة مدرجة، والهدف النهائى القبعة والثوب الجامعى والدبلوما والترخيص بدخول حلبة السباق، ولكن بشرط أن تكون حركتهم أكثر بطئا من حركة معلميهم الذين سبقوهم، والذين يبطئون، بدورهم، وراء سابقيهم.

فكيف، إذن، لا يتمردون؟

خائفون ومرتبكون

كان تمرد الشباب مفعماً بالأمل، فالألفية الجديدة على وشك أن تبدأ، الشعور قد طالت حتى أصبحت تشابه يوحنا المعمدان من حيث المظهر، لكن التمرد كان ضد الزهد، كما كان ضد المادية على السواء. والقوانين وضعت لكى تنتهك، واندفع الشباب والذين ليسوا شباباً تماماً، نحو «علم نفس العلاقة الحميمة» مطيحين بفرويد وبكل «المدارس» وحفلات الجنس الصاخبة تقام كالمناهج الدراسية فى بعض قاعات الدراسة، وارتفعت الدعوة إلى إسقاط

كل أشكال الكف.

القدِر والحامض، الشعر غير الممشط، الرقاع الملونة على السراويل الممزقة، الكلمات ذوات الحروف الأربعة تملأ الأدب الخالص، ورؤيا يوحنا المعمدان تحولت إلى قناع عيد كل القديسين، بالمدى وبنادق الصيد قتلت الشابات رفاقهن فى العربدة دون أن يعرفوهم، وعلى خشبات المسارح أصبحت مشاهد المضاجعة تقدم كل ليلة، وتم الاحتفال بالمسيح كنجم فائق الشهرة، لكن الألفية بدت أبعد مما كانت فى أى وقت مضى. استنفدت الحركة زخمها، اكتملت الدائرة ثم دارت مرة أخرى واكتملت ولم يعد هناك مخرج من المطهر، عطر العقد السابق لم يعد علامة على الألفية، بل دلالة على التفسخ، وعلى قطيعة كل القيم. مروجو المخدرات زعموا أنهم الأنبياء الجدد، السذج والأبرياء الذين تدور بهم الدوامة يتطلعون بتشوق إلى نبى صادق، ولكن لم يكن ثمة أحد منهم لا فى الكاتدرائية ولا على المنبر ولا فى الغابة. المشوهون فى ڤيتنام حين عادوا استقبلهم المجتمع الذى أرسلهم كأنهم مجذومون، أغلقت فى وجوههم جميع الأبواب، حتى مدمنى المخدرات بينهم كانوا يطردون من باحات مستشفيات قدامى المحاربين. وفى برنامج «الأمة فى مفترق الطرق» كانت الإعلانات المتوهجة تقدم صور الرعب، والشواذ يعرضون خدماتهم.

«اليسار الجديد» و «المعادون للسامية» وبين صفوفهم كثيرون من اليهود، ظلوا يشيرون نحو الدولة الكبرى الأخرى: الاتحاد السوڤيتى. لكن الدولة الكبرى الأخرى لم تكن سوى معتقل، الأخبار التى تنتشر خاضعة للرقابة، وقد ظلت عقوداً متتالية لا تنشر سوى تلك التقارير السخيفة عن معدلات الإنتاج، ويقال للكتاب ماذا يجب عليهم أن يكتبوا، والكتاب الذين يحيدون يلقون فى السجون، ومرتين أطيح باثنين من الحاصلين على جائزة نوبل

خارج المؤسسة الأدبية، ووُصفا بأنهما من حثالة الأرض. فى فيلم «زد» وهو عما يحدث فى اليونان، يتضح لملايين المشاهدين أن الروس يصدرون لليونان فنهم المتمثل فى باليه البولشوى، على حين يصدر لهم الأمريكيون الأسلحة الذرية، وحين حاول اليونانيون القيام بمظاهرة احتجاج على الأسلحة الذرية قمعوا بخشونة، وألغى التصريح لهم بعقد اجتماع عام. أما فى روسيا السوفيتية فلم يكن أحد يتقدم، أصلاً، بطلب مثل هذا التصريح كى يُمنح أو يُمنع، وقد حدث أن اجتمع سبعة رجال شجعان فى الميدان الأحمر «الشاسع» ليتظاهروا مطالبين بالحريات فأرسلوا إلى مصحات الأمراض العقلية، وقد أصبح هذا هو العقاب المحدث للمنشقين، بحيث تتجنب الحكومة المواقف التى تزعجها فى عقد محاكمات لإناس كل جريمتهم التفكير على نحو غير تقليدى.

أين الأرض الموعودة؟ هل الثمانمائة مليون نملة زرقاء، كلهم يرفعون الكتاب الأحمر الصغير الذى يحوى أفكار الرئيس ماو، هم بالفعل أحرار؟ إنهم قد يعتقدون أنهم كذلك، لكنهم فى الحقيقة ليسوا كذلك، فعقل واحد يعمل من أجلهم كلهم.

فى حمأة ألمهم، فإن الشباب، فى أرض يسمح دستورها بالانحراف، حاولوه فى كل الاتجاهات، لكنهم أخيراً وجدوا أنفسهم فاقدين للقيادة والتوجه، مرتبكين وخائفين.

الإنسان يهبط على القمر

حلم الإنسان الأبدى أن يذهب إلى السماء حيًا، إنها الرغبة فى أن يطرح عنه الأغلال التى تقيده إلى صخرة ميلاده، وأن يحلّق وأن يلمس بجسده الفانى أحد الآلهة أو إحدى الالاهات الكوكبية، إنه التوق إلى زيارة الفردوس دون أن يذهب أولاً إلى القبر، ودون أن

يجتاز المطهر، أن يصعد وهو حى، مثل «إلياس» الذى صعد فى عربة النار (أو امتصته كرة من الضياء)، ولكن أن يعود بعدها إلى الأرض وقد شارك فى مأدبة الآلهة..

كان طريقاً طويلاً. ياله من دافع من عصور ماقبل الحضارة، غيرة مدفونة فى مورثات كائن ذى قدمين يحسد العائلة الطائرة - النسور والصقور، بل حتى العصافير التى تطير على مستوى أقل، أمير الخلق مولود بلا جناحين، ينظر متشوقاً إلى أسراب الطيور المهاجرة، إن بمقدورها أن تحلّق، أما هو فمولود كى يزحف. جعل فى ظهره شراعين وانزلق فسقط ومات، لكنه استطاع أن يحطم الحاجز وأن يتجاوز الطيور، ليس قبل ١٩٠٣ فى «كيتى هوك» حين انزلق رجل مزود بموتور رفعه وحمله مدة تسعة عشر ثانية، بعدها بعقود قليلة غزت السماء أساطيل طيور معدنية ضخمة تحمل ملايين المسافرين عبر القارات والمحيطات. وبقى الهدف النهائى هو هو فى كل حال: السماء ذاتها.

بعد رحلة سبوتنيك الأولى إلى الفضاء المدارى مباشرة، كانت لايكا وبلكا -مسافرتيْن من الكلاب (الغراب والحمامة فى فلك نوح) - سبقا الإنسان فى دورة حول الأرض استغرقت تسعين دقيقة (وهو تقدم بالنسبة للثمانين يوماً التى احتاجها چول ڤيرن لرحلته المتعجلة فى الأرض والبحر) وسرعان ما أرسل الإنسان الأول إلى المدار، وجاءت الرسالة من فلكى سوفيتى «لم أشاهد الله هناك». إذن هل كانت قوانين الطبيعة التى جعلت طيرانه ممكناً، ومُصدِّقًا عليها من سحرة التكنولوچيا أطلقته خارج الأرض؟.

وفى ديسمبر ١٩٦٨، حين كان طاقم أبوللو ٨ «يبحرون مطوفين حول القمر، قرأ أحد أفراد الطاقم لجميع أهل الأرض الذين كانوا ممتلئين بالروع وهم يتابعون طيرانهم: «فى البدء خلق الرب السماء، ثم الأرض، وكانت الأرض بلا شكل، كانت فراغاً، وهبط

الظلام على وجه القمر...».

بعدها بسبعة شهور، كان طاقم آخر مكلفاً بمهمة أن يلامس القمر، أن يزرع قدماً إنسانية عليه، وأن يعود ببعض جسدها المقدس -كان القمر آلهة في كل العقائد القديمة. وتابع كل أهل الأرض بفضل التلفزيون، خطوات نيل أرمسترونج على القمر، وشعر الإنسان، كل عائلة الإنسان، بالإنجاز الرائع، فلم تعد هذه الكلمات صحيحة «الأرض نصيب الإنسان، والسماء نصيب الاله».

لكن أرمسترونج وألدرين حين كانا يخطوان فوق القمر كانا يعرفان أنهما ليسا قادمين إلى مأدبة الآلهة، كانت قاعة المأدبة أرضاً شديدة الوحشة مليئة بالحفر والأحجار المتناثرة، ومن فوقها سماء سوداء ولا صوت، حتى لو صرخ إنسان، حتى لو اهتزت الجبال، حتى لو انشقت أرض القمر، أدى ملاحو الفضاء رقصة طقسية وتركوا محطة «الهدوء» وقد نثروا فيها أمارات رفضهم: مركبة الهبوط وبعض العدد وعلماً من البلاستيك: خيال من خيالات سلڤادور دالي.

قلب للقيم القديمة: الجحيم الآن فوق، والفردوس تحت! الأرض الطيبة مغلفة بسحب بيضاء، من خلالها تبدو البحار زرقاء، والأرض خضراء تؤدي إلى صحارٍ صفراء، تلتمع فوقها قمم ثلجية ناصعة، جوهرة الخلق التي نجح الإنسان في الصعود منها إلى عالم آخر، عالم موحش تام الوحشة، يذكِّر بما كان يمكن أن يحدث للأرض، صدى الذاكرة النوعية الغارقة، التي لابد حملها الإنسان عبر الأجيال، رؤية أيام كان القمر فيها «يختنق» في حين كان أسلافهم يقتلهم الفزع.

سرق الإنسان صخوراً من القمر، وانتزع نفسه منه، ووجد في الفضاء الشاسع المركبة الأم وعاد إلى الأرض، وتجمهر الناس حول ملاحي الفضاء، وقد أفلتوا من مصير بروميثيوس الذي جاء بالنار

من السماء، فقيِّد إلى صخرة في القوقاز، ينقض نسر على كبده فينهشه.

رؤية الفزع القديم، التي يود الإنسان أن ينساها: في اليوم التالي لرحلة العودة، سئل أحد ملاحي الفضاء، وكان بوسع العالم كله أن يسمع: «ما هو اتجاه بورصة نيويورك؟ الأسهم والسندات؟» قيل له إن الأسهم والسندات كانت في هبوط، فأعفى نفسه بملاحظة أن المرء لا يستطيع أن يذهب إلى القمر دون أن يلقى عقاباً من نوع أو آخر.

ووعد رئيس الولايات المتحدة أن يقدم قطعاً صغيرة من الصخور لكل رؤساء الحكومات الصديقة. أما العلماء الذين جاءوا لفحص الصخور التي وضعت في مكان منعزل كانوا جميعاً متلهفين لإقناع أنفسهم بأن الكارثة التي حاقت بالقمر لابد قد حدثت في تاريخ سابق على ارتباطه بالأرض، وهي ترنيمة اعتاد علماء الأرض منذ أرسطو أن يهدئوا بها وعي الإنسان بالأحداث الكبرى التي كان أسلافه شهوداً عليها.

لكن افتقاد الوعي، الذي تقره وجهة نظر الأرسطية الجديدة، هو أيضاً سبب تعاسة الإنسان، ففي الوقت الذي كان فيه «أبو للو ٨» برجاله الثلاثة، السابقين على «أبو للو ١١».، يدورون حول القمر في ديسمبر ١٩٦٨، قضى السفراء في مؤتمر ڤيتنام للسلام المنعقد في باريس أياماً، ثم أسابيع، يناقشون شكل مائدة المفاوضات قبل بداية المفاوضات ذاتها. وفي وقت أبوللو ١١ كان الرجال - من نفس النوع ونفس العنصر ونفس التنوع - يغوصون في المستنقع، ومازالوا يخوضون حرباً لا معنى لها. وإذا كان الرجال الثلاثة قد هلكوا خلال رحلتهم القمرية فما أعمق مشاعر اليتم التي كانت ستستشعرها العائلة الإنسانية لموتهم، لكن أقل من مائة أمريكي قتلوا خلال أسبوع في ڤيتنام - إضافة لمن أصيبوا، وكان هذا خبراً

جديراً بالابتهاج تقريباً، فلمدة أسابيع مضت لم يلق مثل هذا العدد التافه مصارعهم.

فى بيافرا كان مئات الألوف يموتون جوعاً، وفى الشرق الأوسط كان مئات الملايين من العرب، من المغرب إلى العراق والسودان، يحاصرون بقايا عنصر لم يكن أبداً - إذا أحصينا الأحياء والموتى - أقلية فى فلسطين، وفى الكونغو تعيش الجماهير الجائعة حياة تعسة، وفى مياه المحيطات تنطلق الغواصات الذرية متأهبة لإطلاق الصواريخ النووية الحرارية إلى المدن الآهلة، وعلى أرض سيبريا الشاسعة كانت الدولتان الكبريتان تتأهبان لخوض هرماجيدون.

صفحات من جريدة

يومان من قراءة الصحف، حتى لو قرأت فقط فقرة من هنا وأخرى من هناك، وما تعنيه بالنسبة للمستقبل المرئى للإنسان، كافيان للتنبه إلى التهديد المتزايد. رئيس الولايات المتحدة تفاوض فى عاصمة اتحاد الجمهوريات الاشتراكية السوفيتية مع رئيسها حول تقييد سباق التسلح الذرى. وكل ما تحقق هو الاتفاق على تحديد الدفاع عن المدنيين، ولكن ليس تقييد تطوير وصنع الرؤوس الحربية الذرية، على الأقل فى الأحد عشر عاماً القادمة. وقد قلت هذا لمن تصادف أن كان أول من تحاورت معه ذلك اليوم. هتف: «هل من الممكن ترك الناس بلا حماية، فى حين أن هناك تسابقاً بلا قيود على إنتاج رؤوس حربية ذرية أكثر تطوراً؟» لقد ظن أننى أخطأت فى نقل ما قرأت، لكننى لم أخطئ.

قال كأنه قرأ أفكارى: «إننى قد أفهم أن يكون هناك اتفاق على تطوير حماية السكان المدنيين، مع التوقف تماماً عن إنتاج المزيد من أسلحة الإبادة الأقوى والأكثر تطوراً...» لكن الأمر - كما تعلمنا

- هو أنه لا منطق لدى الطرفين الذين يتفاوضان حول طاولة تحتها هاوية، كلا الطرفين لاعقلانى فى الأساس. الإنسان - كنوع - لاعقلانى، وهؤلاء الأكثر ميلاً للرجوع لتلك الرغبة القديمة فى تدمير الذات، ليس لديهم سوى غشاء رقيق يغطى شبقهم لإشعال محرقة عالمية.

وتذكر الجريدة أن روسيا السوفيتية تملك أسلحة ذرية ذات قوة دفع رهيبة، وأن الولايات المتحدة قد طورت عديداً من الرؤوس الحربية المتفوقة على ما فى الترسانة الشيوعية، وأن المعسكر الشيوعى يصر على إتاحة فترة طويلة لتطوير الصواريخ ذات الرؤوس الحربية المتعددة.

الطفل والشاب يمضيان إلى الموت احتراقاً فى الوقت ذاته، ولم أستطع أن أمنع نفسى من تذكر نتانة رائحة أجساد الخيول المحترقة فى أسطبل أخذت لرؤيته -محتمل أننى كنت فى الرابعة آنذاك- بعد عدة أيام من اشتعال النار فيه.

وثمة موضوع آخر يُقدم لقارئ الجريدة بنوع من السعادة: خلال سنوات قليلة -سيكون هناك دستتان من الأعضاء فى «نادى» القنبلة الذرية. ريتشارد نيكسون، فى زيارة نصف سلمية، نصف منتصرة، للشرق الأوسط وعد بإقامة مشروع ذرى فى مصر، والهند التى تسلمت البلوتنيوم من كندا لاستخدامه فى أغراض سلمية، قامت أخيراً بتفجير قنبلة ذرية فى حين ظلت أنديرا غاندى على تأكيدها بأن المشروع الذرى اقتصر على الأهداف السلمية. لكنها وعدت - حسبما جاء فى موضوع آخر بالجريدة - بتفجير قنبلة حرارية نووية، وأغلب شعب الهند الذى يبلغ الستمائة مليون جياع تقريباً، فقراء وتعساء وجوعى، وكثيرون منهم لا يجدون سقوفاً فوق رءوسهم، يمدون أيديهم المجذومة والمتغضنة للحصول على حفنة من الأرز، فى مواجهة هذا التنافر

للدخول المهيب إلى «النادى» الأكثر تكلفة وانغلاقاً، لكنه خلال سنوات قليلة لن يعود منغلقاً، فثمة أرض أخرى شديدة الازدحام بالناس، هى مصر، تبدو مبتهجة بالمشروع الذرى، والوقود الذرى والقنبلة الذرية. إذن، بأى منطق يمنع عيدى أمين، الأب الأكبر فى أوغندا، من الدخول للنادى؟ أمين الذى كان يستخدم هراوات ثقيلة لسحق جماجم الذين يغضب عليهم، لماذا لا تتاح له الفرصة لإنشاء هذا «العمل الكبير» إذا كان عدد أعضاء النادى سيبلغون دستتين؟

وهذا الجيل أيضاً بلا نبى، أو هو، على نحو استثنائى، فقير من حيث القيادات، فليس هناك من يستحق الاستماع إليه، جيل ذو تكنولوجيا متقدمة، وبدون أحد له مكانة أخلاقية تجعل صوته ملزماً لهم، الأجيال السابقة كان لها مثل أولئك القادة، فقد رأى الكسندر سولچنتسين عدم المساواة على نطاق هائل، رأى الدولة الديكتاتورية تنتزع إنسانية الإنسان فى غرف التحقيق وفى السجون وفى معسكرات عمل العبيد وفى المستشفيات العقلية، لكنه رأى الشفاء فى العودة إلى تلك الحركة السلافية الغامضة، إن روسيا، مملكة أورشليم الثالثة، مجتمع ريفى، تبدو فيه الحضارة المادية كما لو كانت من عمل الشيطان، كما أحس النبى المعاصر، ليو تولستوى، فى سنواته الأخيرة.

على شاشة التلفزيون، وقت إطلاق أخبار لقاء القمة فى موسكو تقريباً، صُدم المشاهد الأمريكي بمشهد مرشد روحى هندى (جورو) فى السادسة عشرة من عمره فقط، وقد حصل لتوه، على عروس، كتب كلمة «الله» على رأسه وعلى عرشه، لم يعتبر هذا تجديفاً، ليس هذا فقط، لكن الهبات التى قدمت له خضعت لاستقطاع الضريبة منها، أما دخله فمعفى من الضرائب، كما هو معتاد فى الولايات المتحدة، حيث ينص الدستور عن فصل الدولة عن الكنيسة.

وقد أعلن الرئيس: «لم يسبق لكم أبداً أن كنتم على هذه الحال.. أنتم أكثر الأمم تمتعاً بالرخاء..» هذا وقت أن غيَّر بعض قدامى المواطنين عاداتهم الغذائية ليتناولوا طعام القطط والكلاب، ودولارهم - الموضوع فى سندات الادخار، كما يقضى الواجب الوطنى - يفقد قيمته كل يوم، بل كل ساعة. واصل تقليب صفحات الجريدة، ثمة موضوع آخر صغير: إن مخازن الأقسام قد تحملت خسارة قدرها بليونا دولار فى السنة نتيجة سرقة البضائع من محلاتها. احصائياً، حين نقسم هذا المبلغ على تعداد السكان فى أمريكا، يتضح أن كل واحد منا -بما فينا الأطفال- يسرق من المحلات بضائع بما قيمته عشرة دولارات فى كل سنة. إن المغتصبين العائدين يطلق سراحهم بمجرد اعترافاتهم، أو تحكم عليهم المحاكم بعقوبات مع إيقاف التنفيذ، فما الذى يراه الرئيس أن هذه البلاد تستحقه؟ إن الزر الذرى عند أطراف أصابعه.

بوابة النار

عاشت الولايات المتحدة عامين فى آلام فضائح سياسية عرفت، جماعياً، باسم «ووترجيت»، كانت الأمة مرتبكة، بل حتى مذهولة لغرابة ماتكشف وعدم قدرتها على تصديقه. كانت ووتر جيت كلها حول رجل شق طريقه حتى الدرجة العليا من السلم، ثم بدأ ينزلق حين أخذت الدعامات فى الاهتزاز، وأخيراً سقط سقوطاً يكاد يكون بلا سابقة فى التاريخ.

والسؤال هو: هل كان «ديك» عاقلاً حصيفاً، هو الذى بدأ صبياً يوصل الطلبات فى مخزن بقالة أبويه المجاور، يشكر العميل معترفاً بفضله لو ترك له قروشاً قليلة، ثم تفوق على فلان وعلان وأى شخص آخر، وأخيراً شهد مواكب الملوك والرؤساء يطلبون

أفضاله فى البيت الأبيض، كيف إذن استطاع أن يتصرف على نحو يفتقد العقل حتى جعل أغلبية الأمة تحتقره رغم كل الإنجازات التى حققها فى المشهد العالمى؟ كيف استطاع أن يبلغ هذه الدرجة من تدمير الذات فيأمر بنشر شبكة واسعة للتجسس، ويضع مثل تلك الأجهزة المقيتة حتى يتجسس على نفسه؟ وإذا شاء أن يبقى كبيراً أمام الأجيال التالية، فلماذا سجل أيضاً تلك الكلمات البذيئة الداعرة التى تزخر بها لغته؟

تابعت الأمة الحانقة، بجذل، حكاية التفاهات فى البيت الأبيض من جانب الرئيس ومعاونيه، والتى نتج عنها سطو على المنازل وسواها من الأعمال اللائقة بفيلم جاسوسية سخيف: مواعيد سرية مع مشعوذين يخططون على مقاعد الحدائق وفى طرقات الفنادق وفى السيارات المظلمة، وحقيبة ملأى بأموال مسروقة مخبأة فى خزينة محطة للسكك الحديدية، مع فاصل ميلودرامى عن سكرتير مخلص زلَّ فى شريط مسجل، فأحدث به محواً فى أجزاء كثيرة. فى تلك الشهور واجه الرئيس الكاميرات المرة بعد المرة، مؤكداً أن أى خطأ لم يرتكب من جانبه أو أى من معاونيه. لماذا إذن لم يقم بإعدام الشرائط المجرِّمة كذلك؟

وحين أطيح بسقف البيت الأبيض أخيراً، هبط رجل بذقن ساقطة من العرش غير المرئى فى المكتب البيضاوى، ومحاطاً بأهل بيته، تحدث إلى الأمة، فبدا كما لو أنه ارتد مرة أخرى لصبى البقالة، فتحدث عن أمه القديسة الطاهرة، وعن أبيه الكادح. إنه مايزال عاجزاً عن أن يفهم سحر أقوى رجل على وجه الأرض، حتى اليوم السابق، حين كان يجتاز حارس الباب، وكإشارة أخيرة فيما بدا لى، رفع ذراعيه فى إشارة النصر قبل أن تلتقطه الهليوكوبتر من المرجة الخضراء. لم تكن كوميديا، بل كانت تراچيديا كاملة. ربما فى السنوات القادمة يتاح لكاتب تراچيدى نفاذ، ايسخيلوس،

سوفوكليس، يوربيدس، أن يقول لنا ماذا كان هذا الرجل الذى أنتجته الأمة، نفس الأمة التى انتصرت عليه، فجعلته يتصرف على نحو لا عقلانى. ما تلك اللعنة التى تغلبت عليه وعلى منطقه ودهائه؟

فما جواب اللغز؟

مهما تكن وجوه ضعف الشخصية لدى نيكسون، إلا أن ثمة عاملاً يجب أن يوضع فى الاعتبار، وبدونه يضيع المنظور تماماً، وهو قد كان ضائعاً عند نيكسون نفسه، لكن هذه هى الطبيعة التحليلية للأشياء، فالإنسان لا يضع فى حسبانه أكثر العوامل وضوحاً حين يصور ما يتحكم فيه، وما يرتطم به.

حين دخل نيكسون البيت الأبيض رئيساً وقائداً أعلى، كان موضع ثقة الأمة، بل العالم الغربى كله، وتحت يده مفجِّر يمكنه أن يحرق شعوب العالم كله. هذه الثقة مسؤولية الرئيس وحده، أربعة وعشرين ساعة كل يوم، ثلاثمائة وخمسة وستين يوماً كل سنة. والهجوم الذرى لا يتيح سوى وقت قليل جداً للتحذير، أجهزة الاستماع موضوعة فى الشمال، وإذا جاء الهجوم من القطب فإن الطريق أقصر ووقت التحذير أقل، وهى موضوعة كذلك فى مواقع استراتيچية فى أمريكا وفى الخارج، وهى تراقب وتسجل كل ثانية دون توقف. لكن الرئيس هو الذى عليه أن يتخذ القرار القاتل، ربما خلال دقيقة واحدة. وفى القواعد التى تحيط العدو المحتمل، فى أوروبا وفى الشرقيْن الأدنى والأقصى، الصواريخ الجوابية متأهبة لتلقى الأمر.

ويقوم الرئيس بإنجاز كل وظائفه الرسمية والاحتفالية، ويحيا حياته العائلية أيضاً، ولكن مهما كان مايفعله أو يفكر فيه، فإن عليه أن يكون واعياً دائماً بالزناد المعهود به إليه، وبالقواعد التى يمكن أن تنطلق منها الرؤوس الذرية للرد فى هذا التوازن من

الرعب، وبالغواصات الذرية التى تتجول خلسة قريباً من الساحل، إنه لا يستطيع أن يبعد هذا كله عن عقله حتى وهو نائم، حتى وهو غير واعٍ بأنه يفكر فيه.

مثل هذه السلطة المحددة للمصائر لم يُعهد بها من قبل إلى رجل فانٍ، وقارئ وصف الإنجيل لجهنم «حيث يلقى بالخطاة لينالوا عقابهم الأبدى» يمكنه أن يتصور أن هذا الرجل وحده هو الذى يملك مفتاح هذا المكان الذى يضم أعدادا لا حصر لهم من أبناء آدم، بمقدوره أن يفتح باب هذا الجحيم ويترك من فيه يخرجون أو أن يضيف إليه مزيداً من النار والكبريت، ولو أن هذا القارئ لديه القدرة على التصور البصرى، وعلى التفكير فيه، فسوف يرى كيف أن الانشغال بهذا الأمر يسيطر على أنشطته جميعاً.

الخوف من ارتكاب خطأ - وهو خطأ لا يمكن تصحيحه - يؤدى لأقصى درجات التوتر، مثل هذا الذى خرج إلى العلن فى المواجهة بين كيندى وخروشوف أيام إنذار كوبا، أو بدرجة أقل فى القلق الذى أعقب حرب «يوم كيبور أو يوم الغفران» الشعور الحارق بأنه قد يكون غير كفء لمهمة حراسة مصير الإنسان، وهذا كله لا يمكن أن يفارق -ولو للحظة واحدة- هذا الذى عهد إليه بسلطة تدمير الكون.

وثمة إحساس بالشك فى أى فرد، أو حتى فى نفسه، لابد أن يستولى على الإنسان الذى يملك أن يضع نهاية التاريخ، أو، على الأقل، نهاية تاريخ الحضارة. وسوف تتم أفعال لا تتصف بالعقلانية، غالباً ماتكون اضطراراً، وحين سُرقت أوراق من البنتاجون، وقاد التحقيق فى السرقة إلى أحد الموظفين الذى قام بتسليم الأوراق إلى الصحافة، وبالتالى إلى العدو المحتمل، فقد كان يمكن التعامل مع هذا الأمر دون ارتكاب عملية سطو فى الليل على مكتب المحلل النفسى لهذا الموظف، وهو عمل اعترف نيكسون

بالمسؤولية عنه لكنه فشل فى تبريره. وكشفت كل خطوة تالية عن المخاوف والشكوك، وجاءت الأفعال الصادرة عن البيت الأبيض تحت إدارة نيكسون عليها طابع شخصية تعانى - فى الوقت ذاته - من جنون العظمة وجنون الاضطهاد، وهما نوعان من الجنون يمضيان معاً فى العادة. أما جنون العظمة فلم يكن تخييلاً، بل كان شيئاً من صميم الدور، ولا كانت الشكوك فى غير مكانها، إذا كانت ثمة خطوط موجودة لإحراق مائتى مدينة أمريكية كبرى فى وقت واحد، لكن الشك أفسد القدرة على الحكم فكانت فضيحة ووتر جيت، ربما لأن نيكسون كان أكثر تبصراً من جونسون قبله وفورد بعده.

إن الحقيقة الأساسية جديرة بإعادة التفكير فيها: حيث إننا منحدرون من الناجين من الكوارث الطبيعية الكبرى فى الماضى، تتملكنا الرغبة الموروثة من خلال الذاكرة النوعية فى تكرار الآداء العنيف. وخلايا المخ فى رأس الرجل الذى بوسعه استدعاء الكارثة لابد من أن تكون مثل الأوتار المشدودة لأقصى حد، ولابد من أنها تطلق فى لاشعوره رنيناً غريباً.

وقد أحس الموظفون العاملون المسؤلون فى وزارة الدفاع باحتمال حدوث تشوش عقلى لدى الرئيس قبل خروجه، وذكرت الصحف أن وزير الدفاع اتخذ إجراءات سرية مؤقتة تحول دون أن يجعل الرئيس لحظة خروجه متزامنة مع ضغطه على الزر النووى، وما يحدث من دمار. ألم يحدث لأول وزير دفاع، چيمس فورستال، فى ١٩٤٩، وكان تحت إصبعه زر نووى، ولم تكن روسيا السوڤيتية تمتلك - بعد - ترسانة نووية مماثلة، أن خرج يجرى ذات صباح فى شارع منتجع فلوريدا، يصيح فزعاً بأن الروس قاموا بغزو الولايات المتحدة الأمريكية؟ كان رجلاً ذا قدرات غير عادية، لكن ميراث المخاوف النوعية، والرغبة الفرويدية فى إعادة خلق خبرة

الماضى الصادمة، والصراع البروميثى اللاشعورى بين الرغبة فى التدمير والرغبة فى البقاء - ألقى جيمس فورستال بنفسه من نافذة مرتفعة فى مستشفى عسكرى، كى يجد السلام مع ذاته.

ليندون جونسون، الذى كان شعاره «فلنجلس ونفكر معاً» قام بتضليل الكونجرس والأمة بإخراجه لحادث خليج تونكين، ثم بالزيادة الرهيبة فى التورط فى ڤيتنام، لقد أرسل حوالى خمسمائة ألف شاب أمريكى إلى بلاد لا تكاد توجد للولايات المتحدة أية مصالح اقتصادية أو سياسية فيها، بل إن اسمها نفسه غير معروف من أيام المدرسة عند هؤلاء الذين أرسلهم ليَقتلوا ويصبحوا قتلى، ليشوهوا الآخرين ويصبحوا مشوهين، ليحرقوا بالنابالم مجندى الڤيت كونج فى الخامسة عشرة من أعمارهم، وهم أنفسهم يغرقون فى المستنقعات ويضيعون فى الغابات التى أحرقوا أشجارها. لقد رهن نيكسون ثروة الجيل التالى للإنفاق على هذا العداء، الذى كان، بالفعل، بديلاً عن المجزرة الذرية الكبرى.

تحمل الأسلحة الذرية أخطار إشعاعات الغبار الذرى المتساقط، لكنها، وهى مكدسة ولم تستعمل تحمل نوعاً آخر من الغبار المتساقط: اضطراب فى خلايا الدماغ عند الشخص المسؤول عن استخدامها أو عدم استخدامها، فهو يحمل معه الفتيل دائماً، ومعه كذلك رغبة ليس من السهل السيطرة عليها من إجل إشعاله.

وقد تحرر من مسؤولياته، وحُرم من سلطاته، رفع نيكسون ذراعيه فى إشارة النصر الأخير دون أن يدرى من كان يحيى بهذه الإشارة.

فى سان كليمنت، وراء جدران «كازا باسيفيكا» كتب الرئيس السابق مذكراته. لم يكن يعرف خط دفاعه الحقيقى. هكذا أعاد تلك الترهات التى سبقه إليها سجين -منفى آخر فى «سانت هيلانة»

قبل مائة وخمسين عاماً؛ إذ أنه بعد أن أغرق أوروبا فى حروب دامية بمدافعه التى تجرها الخيول، كتب قصة حياته كما رآها، أو كما حلم بأنها كذلك، وكثير مما كتبه يعتبره المؤرخون غير صحيح.

العمالقة الثلاثة

العمالقة الثلاثة فى عصرنا: الولايات المتحدة والاتحاد السوفيتى والصين الشيوعية، رغم أنهم غير متكافئين من حيث التكنولوچيا والتعداد، إلا أنهم يسيطرون على العالم ويهددون بقاءه، وكلهم صعدوا إلى مواقعهم، فقط، خلال هذا القرن، وتحديداً بعد الحرب العالمية الثانية، ورغم كثرة الحروب فى هذه السنوات الخمس والثلاثين الأخيرة، إلا أن هؤلاء الثلاثة قد أفلتوا، حتى الآن، من أية مواجهة شاملة فيما بينهم.

مع نهاية الحرب العالمية الثانية كانت أمريكا تملك، بالفعل، الأسلحة الذرية، وروسيا لم تمتلكها بعد، وحين حلت الهزيمة بألمانيا واليابان توترت العلاقات بين الأمريكيين والروس، ورأى بعض المشتغلين بالجغرافيا السياسية فى واشنطن أن السيطرة على العالم الذى حاولته ألمانيا الهتلرية سرعان ما سيصبح هدف الدولة السوفيتية، وشعروا بأنه حين يمتلك الروس، عاجلاً أو آجلاً، مهارة إنتاج الأسلحة الذرية، فإن التهديد المحتمل من جانب الروس للأمريكيين ولبقية العالم سوف يتزايد مع كل يوم يمضى، التوتر الناجم عن الشعور بأن الوقت قد فات ولا سبيل لاسترجاعه، أفصح عن نفسه حين يثبت أن أمريكيين - زوجاً وزوجة - كانا مذنبين لأنهما نقلا مسودات الرسوم إلى عملاء روس، ورفض الرئيس ايزنهاور العفو عنهما وتركهما يلقيان مصير الخونة بالإعدام على الكرسى الكهربى، وأدى جيشان الصراع بين المشاعر الوطنية

والإنسانية لتمزيق الأمة.

معادلة اينشتين: الطاقة تساوى الكتلة مضروباً فى مربع سرعة الضوء (فى الفراغ)، كانت سر ليزا ميتز؛ حملته المرأة اليهودية الفارة من ألمانيا النازية، وعملت الكيميا فى باحة جامعة شيكاغو. قام عليها انريكو فيرمى، الذى كان قد ترك ايطاليا الفاشية إلى الولايات المتحدة، وكان الانفجار الهائل فوق صحراء نيومكسيكو نتيجة عمل الكثيرين، يقودهم روبرت أوبنهايمر، وبعدها الضوء المعشى فوق اليابان الزاحفة، وأعاد الأمريكيون بالفعل امتلاك معاقل الباسيفيك الحصينة، ودخل الروس إلى حرب الباسيفيك متأخرين.

وجاءت ردة فعل اينشتين اللفظية قصيرة مثل معادلته: «أو.. فيه» وهى صرخة أو همسة باليديشية عمرها مئات السنين. وأوبنهايمر، الذى رأس الفريق الذى بنى الصواريخ الذرية التى أسقطت على هيروشيما وناجازاكى وبيكين أتول، وكانت هذه الأخيرة تخلو من البشر لكنها لا تخلو من الحياة الحيوانية، أصبح شديد الندم. وكان الروس متقدمين بالفعل فى تطوير القنابل الذرية، وكان إدوارد تيلر الذى ترك وطنه المجر قبل أن يجتاحه النازيون على رأس الحملة لتطوير الأسلحة النووية الحرارية، فقد أيقن أن الاتحاد السوفيتى يجب أن يطورها، فحمل المشروع على عاتقه، وحده تقريباً، رغم الاحتجاجات العنيفة من جانب معظم علماء الطبيعة النووية على رأسهم أوبنهايمر، وكذلك الكتلة الرئيسة للمؤسسة العلمية.

دشنت الصين دخولها إلى القرن العشرين بتمرد «البوكسر». أكبر أمة فى العالم، ظلت طويلاً فى براثن القوى الاستعمارية المستغلة، متأخراً حتى ١٩٣٢ كانت جسداً مستباحاً وبلا دفاع أمام

التوسع الياباني. ونهضت الصين بعد انتصاف القرن واحدة من الدول الثلاثة الكبار في العالم. انجلترا التي حارب القيصر ولهلم الثاني ضدها في الحرب العالمية الأولى، كانت أعظم دولة في بدايات القرن، وألمانيا التي أصبحت قوة عالمية بعد أن تم تقسيم كل الأراضي المستعمرة بالفعل (كما صاغها ليون تروتسكي) خرجت من الحرب العالمية الأولى كإمبراطورية بالنحت البارز، من بين الخمسة الكبار فيما بين الحربين: انجلترا وفرنسا وإيطاليا وأمريكا وروسيا، إلا أن الأخيرتين فقط هما اللتان يحق لهما هذا الزعم بعد ذلك، رغم أن روسيا فقدت عشرين مليوناً في الحرب العالمية الثانية، وكثيرين في الحرب الأهلية والمجاعات وكثيرين – للمرة الثالثة – في حملات ستالين.

ومضت الصين في طرد الجيش الياباني، ثم «المسير الطويل» و«الانشقاق الداخلي» وفرار الكومنتانج إلى فورموزا، ونفي وإعدام المزارعين الكولاك، وتكوين دولة ذات وحدة وتناغم على رأسها ماو، تلميذ ستالين، لكنه الآن على شقاق مع شيوعيي الاتحاد السوفيتي.

في هذا النظام المادي أصبح ماو هو الأسمى، عمله الحكمة ذاتها، وجسده – في المرات النادرة التي كان يسبح فيها عبر نهر يانج تسي – من المقدس أن تراه، ومن الآلهي أن تلمسه، وأطيح بكونفوشيوس من على قاعدة تمثاله إلى الأرض، وأبطلت تعاليمه.

ستالين: معذِّب وقاتل الملايين، الذي كان يتحدث الروسية بلهجة قوقازية ثقيلة، الذي بدأ أحد المشاركين في طقس لاهوتي في تفليس، وحين أصبح في السلطة أمر بإغلاق جميع الكنائس وأقام "عبادة ستالين" (ستالين هو شمسنا) دينا للدولة، لم يكن متحرراً من الخوف والندم، فكان يمضي في بعض الليالي إلى المقبرة في باحة "نوف ديفتينر" بضواحي موسكو، ليركع أمام قبر

"أليليوڤا" زوجته التى أخذ حياتها وتركت له ابنة هى طفلته الوحيدة.

معذباً بالخوف والشك جاء موته على سريره إنقاذاً لمجموعة الأطباء الذين اتهمهم بأنهم يخططون لتسميمه.

وتفوق الاتحاد السوڤيتيى - بصورة درامية - على الولايات المتحدة فى السفر للفضاء، وخروشوف، بتكشيرته العريضة فى وجوه الأمريكيين لأنهم يرسلون مسباراً صغيراً فى حجم برتقالة. فى حين كان الروس يرسلون أحجاماً كبيرة يبلغ وزنها طنين - أحس بأن الوقت قد حان لأن يأتى بقوة الدفاع الذرى أقرب ما يمكن من شواطئ أمريكا، كما يفعل الأمريكيون فى تركيا على الحدود الروسية، وتبعت هذا المواجهة الكوبية، والمغامرة بحرب ذرية، لكن كنيدى جعل كوسيجين يتراجع ويسحب الأسلحة المعتدية.

ولم تكن الصين قد طورت بعد أى شىء يمكن مقارنته بالترسانة الذرية الروسية. كان ماو وشواين لاى قد حولا الصين ومدنها الكبرى إلى شبكة ممرات تحت الأرض يمكن استخدامها ملاجئ حين تندلع الحرب الحتمية ضد روسيا وهجوم روسيا بالسلاح الذرى. وكانت الصين مستعدة لأن تفقد بضع مئات الملايين من تعدادها البالغ ثمانمائة مليون، لكنها مصممة على البقاء وغزو سيبيريا والاستيلاء عليها، وهى خالية من السكان تقريباً، وإلا فالصين محكوم عليها بالجوع بسكانها الذين يحتشدون فى الصحارى والأرض غير المنتجة. واليوم يقف مليون جندى روسى يشغلون مواقعهم على طول الجبهة الروسية الصينية، على نهر آمور.

سأوقف السرد هنا، سوف أجعل الحكاية تتطور دون اقحام استبصارات سيكولوچية. لندعها لا تكون ساعة أخرى من التحليل

النفسى، لكننى حين أقف عند هذه النقطة أتوجه بالسؤال للقارئ:
ماذا يمكنه أن يفعل فيما يلى؟

إن النجمة الخماسية - الرمز القديم لكوكب الزهرة - تزين غطاء الرأس لكل جندى أمريكى وروسى وصينى.

الانتحار الجماعى فى جوانا

فى ٢٠ نوفمبر ١٩٧٨ حملت عناوين الصحف نبأ الانتحار الجماعى لأنصار طائفة تدعى "معبد الشعب" بقيادة الكاهن جيم جونز. كان الرقم الأصلى يشير إلى حوالى ثلاثمائة منتحر، لكن هذا الرقم ارتفع مع الرسائل اليومية التى تأتى من مدينة جونستاون، جوانا، مع اكتشاف مزيد من الجثث ليتجاوز التسعمائة. تبع أعضاء الطائفة زعيمهم، بلا منافس، جونز، أولاً من انديانا إلى كاليفورنيا، ثم إلى جوانا ليموتوا هناك فى احتفال شارك فيه ثلاثمائة طفل تمت التضحية بهم وقدم لهم السم ليشربوه. فى هذا الحفل الصاخب للدمار الإنسانى، لم يكن الموت فعلاً ذاتياً للجميع، بل قتل بعضهم نتيجة إطلاق الرصاص عليهم من أعضاء الطائفة الآخرين.

وليس لدى علماء النفس والاجتماع الكثير يقدمونه لتفسير ما حدث. كان أفراد الطائفة يعيشون تحت سيطرة شخصية من رجل لديه بعض أفكار الإصلاح الاجتماعى، وقد حاز ثروة تقدر بالملايين لأنه جعل أتباعه يتحولون إلى خزينة جماعية كان هو المتصرف الوحيد فيها، وكانت تحوى أموالهم بما فيها بيع البعض لمنازلهم، كان يطلب الخضوع التام لإرادته، وقد وصف القليلون الناجون من هذا الإعدام الذاتى بعض ممارساته الجنسية الفاسدة، مثل أداء فعل جنسى مثلى مع ذكر من أعضاء الجماعة فى حضور النساء، وكان

يتصرف أيضاً باعتباره تجسيداً للمسيح، كان رجلاً يعانى من البرانويا، هذا ما يمكن أن يقوله علماء النفس على الأرجح، ولكن.. ما مصدر هذا التمزق الرهيب فى شخصيته، وماذا يكمن فى الطبقة الأعمق من نفوس أعضاء الطائفة الذين انجذبوا إليه، وبعضهم صاحب إطار ثقافى رفيع؟ ما الذى جعلهم يتبعونه إلى أحراش جوانا، ذات يوم، ليعدموا أنفسهم، ويتركوا أجسادهم، من بينهم أطفال، بل رضع، منتشرة ووجوههم إلى أسفل، فى ثيابهم، وبعضهم يلفون أذرعتهم حول آخرين، فى جماعات، ولكن أيضاً بعضهم كانوا فرادى، أوقفوا بعد محاولة منهم للركض داخل الغابة؟ لابد أن كان ثمة رعب، أثاره الرعب عند زعيمهم، وراء ذلك لا شىء يمكن أن يقال فى التفسير، لكن التفسير لا يتطلب الحصول على شهادة فى علم النفس، كان واضحاً لدى كل من رأى المشهد، حتى لو كان فى الصحف أو التلفزيون فقط، ويقيناً عند كل من قام بزيارة الموقع فى الأحراش.

وقبل أن ينقضى أسبوعان كانت الكتب ذات الأغلفة الورقية تلبى الحاجة لكنها لم تكن مشبعة لفضول أولئك الراغبين فى الفهم، ربما كانوا يخشون أن يجدوا فى أنفسهم بعض الدافع ذاته. وأننى أعترف أننى قرأت، بفضول شديد، هذا الدفق من الأخبار والتقييمات. وجاءت لى ابنتى روث. ڤ. شارون، وهى مشتغلة بالتحليل النفسى - بصورة منشورة فى الصحف تمثل "عرش" جونز، وما جعلها تقدم لى هذه الصورة كانت الكلمات المكتوبة وراء العرش بحروف كبيرة: "هؤلاء الذين لا يتذكرون الماضى، محكوم عليهم بأن يعيدوه.."، وهذه الجملة منسوبة لفيلسوف هارڤارد، جورج سانتيانا، وكنت معتاداً على اقتباسها أمام جمهورى فى كليات الجامعات، غالباً لأنهى القسم الأخير من المحاضرة - وكان هذا القسم يخصص لموضوع الإنسانية وفقدان الذاكرة.

كان چونز يعيش فى رعب، ولاشك فى أنه نقل قدراً من هذا الرعب إلى أتباعه. الإصلاح الاجتماعى، الطغيان الشرقى، تجميع المال، مركب الاضطهاد، الممارسات الجنسية الفاسدة، كلها كانت محاولات لإخراج شىء ما إلى السطح، لم تتح له فرصة التحرر، ولو أنها أتيحت لدفعت كل الأحياء إلى موتهم.

وإسهاماً فى محاولة الفهم، بمسبار أعمق، لغضب هذا المسيح الكاذب فى أحراش چوانا وقطيعه الإنسانى، سوف أقتبس عن كتاب "السعى وراء الألفية" من تأليف نورمان كوهن، المنشور فى ١٩٥٧. قبل عدة سنوات، قام واحد من قرائى، كاثى جويدو، كان طالباً آنذاك فى جامعة بنجامتون نيويورك، وهو الآن محام، بنسخ ص ١٤٤ من هذا الكتاب، معتقداً أنها يمكن أن تكون مهمة لى، وهى تتحدث عن طائفة أسسها كونراد شميد، الذى عاش فى ألمانيا القرن الخامس عشر:

"من أجل أن تستقبل فى الطائفة كى تصبح عضواً فيها يجب أن تدلى باعتراف شامل أمام شميد، وأن يتم جلدك على يديه، ثم تقسم على الطاعة المطلقة له. من هذه اللحظة فإن الالتزام الوحيد هو الخضوع التام للمسيح. وعلم شميد أتباعه أن خلاصهم يعتمد على اتجاههم نحوه شخصياً. إذا لم يصبحوا "ناعمين وطيعين مثل الحرير" بين يديه، وإذا بدرت عن أى منهم أدنى بادرة تشير إلى الميل نحو الاستقلال، فسيسلمون إلى الشيطان الذى يقوم بتعذيب أجسادهم وعقولهم. كان آلههم، وعليهم أن يصلوا له ويتوجهوا إليه بخطاب: يا أبانا..".

وأولئك الذين قرأوا طريقة چونز فى تقديم الأعضاء الجدد إلى الطائفة لن يفوتهم أن يدركوا التشابه، ويشير الاستمرار مرة أخرى إلى أن سلف چونز كان يؤدى كمسيح، وكان له أسلافه هو نفسه.

"أولئك الذين أخلصوا لشميد كانت لهم مكافآتهم، فمن حقهم أن يبتهجوا لمعرفتهم اليقينية أنه بهم ومن خلالهم يبلغ التاريخ هدفه الحقيقى.."، هكذا نستبق وجود أصول أو انتساب إلى شخوص أخرى وممارسات أخرى، فأتباع شميد كانوا يعتبرون.. "أن جلد ١٣٤٩ شخصاً يجعلهم يقفون فى نفس العلاقة التى كانت بين يوحنا المعمدان والمسيح. والحقيقة أن المسيح نفسه لم يكن سوى سلفهم المبشر بهم، فمن المقطوع به أنه أشار إلى طريق الخلاص الوحيد.. بإيقاع الجلد.. وهؤلاء الذين يضربون أنفسهم فقط هم الذين من حقهم الزعم بأنهم يمضون فى الطريق لنهايته.." و"تماماً كما حول المسيح الماء إلى نبيذ، فإنهم قد أبدلوا بعمدانية الماء عمدانية الدم. لقد احتفظ الرب بأفضل النبيذ إلى النهاية، ولم يكن سوى الدم المسفوك من السائطين.."

الجملة التالية تنقل الحكاية، التى لا يعرفها مؤلفها، إلى مسبار أعمق وأكثر قرباً من أصولها التاريخية لأن مؤلف "السعى وراء الألفية" يقول، تالياً، عن أتباع طائفة شميد:

"كان هؤلاء الناس مقتنعين بأنهم حين كانوا يضربون أنفسهم فإن ملاكاً اسمه – للدهشة – "ڤينوس" (الزهرة) كان يراقبهم. وكانت أجسادهم الحمراء من الدماء تبدو مثل ثياب فى حفل عرس، وكانوا يسمون التناتير التى يلبسونها أثناء عملية الجلد ثياب البراءة..".

ما بدا لنورمان كوهن بلا تفسير، ووصفه "بالدهشة" ليس مدهشاً لمن قرأ "عوالم فى تصادم"، وما يبدو غير معقول يصبح غير ذلك.

فوق حضّانة چونز، وفوق الأمر بابتلاع السيانيد، كان هناك أيضاً نجم الكارثة، دون تفسير أو استكشاف. كان القطيع الإنسانى مضروباً بالرعب الذى أوقعه به قائده، ولكن رعباً قديماً أضاف زخمه أيضاً.

العيش إلى جوار قنبلة

فى اليوم الأخير من مايو ١٩٧٨، حين كانت الصحف فى الولايات المتحدة وفى الخارج تنشر صور حفلات التخرج فى باحات الكليات الجامعية، فى ذات الوقت كانت الأمم المتحدة تعقد جلسة خاصة لنزع السلاح، بلا قادة ولا قائمة مسجلة، سحبوا الموضوع الذى لا أمل فيه، ليس نزع السلاح فقط، بل الحد منه، نشر مواطن يدعى ل. س. بوهن خطاباً فى "النيويورك تيمس" أعيد نشره فيما يلى:

«لو لم تفعل الجلسة الخاصة للأمم المتحدة عن نزع السلاح شيئاً، فيكفى أن تذكرنا بأى عالم زائف ومضطرب صنعناه لأطفالنا. هذاهو الموسم الذى نقول فيه لخريجينا الجدد أن يأخذوا زمام المبادرة لمستقبلهم، أن يعملوا ويحبوا ويعيشوا الحياة بكل امتلائها، وأن يكونوا فخراً لأنفسهم وبلادهم، وأن يشرعوا فى تكوين أسرهم الخاصة، وربما أيضاً أن يتركوا العالم أفضل قليلاً مما وجدوه عليه.

«لكن الحقيقة الأسيفة هى أن العالم الذى نقدمه لهؤلاء الخريجين الجدد المفعمين بالإشراق يترنح على شفا الكارثة. وفرصة حرب نووية فى أى أسبوع أو شهر أو سنة هى فرصة ضئيلة، ولكن لا أحد يستطيع أن يحيا حياته فى سنة، ومعظم الذين يعملون الفكر فى الحقائق يوافقون على أنه خلال فترة ٢٠ أو ٣٠ أو ٤٠ سنة سيميل الفرقاء إلى أشعال حرب نووية شاملة.

«عن طريق اختيار مجنون يقوم به هتلر ما فى المستقبل، أو عن طريق عمل مزعج من جانب مستويات أدنى، أو فى مكان مسلح تسليحاً نووياً مثل سرايفو، أو تصعيد الصراع فى أفريقيا أو الشرق الأوسط، أو عن طريق المصادفة البحتة، سيكون المستقبل

الفعلى للجيل الجديد الأكثر احتمالاً هو الموت فى الحرب، أو الصراع الكئيب فيما بعد الحرب: أىٌّ من أطفالنا مَنْ يتهيأ لهذا؟ كم عدد الذين يخططون لمستقبل عملهم أن يكون مكرساً لتحسين فرص السلام؟ من منهم مستعد لأن يقضى بقية أيام حياته مشوهاً أو محترقاً أو مصاباً بالإشعاع أو أعمى؟ من منهم يعرف كيف ينبت الطعام فى البرية، أو ينجو من الأنقاض الملوثة بالإشعاع؟ من منهم لديه المؤهل أو المهارة كى يحدد ما إذا كان الماء أو التربة أو المحاصيل أو علب الطعام التى علاها الغبار آمنة أو يمكن أن تكون آمنة؟ من منهم مستعد لأن يمضى بعيداً (إلى أين؟) أو يحفر حفرة يعيش فيها ربما عدة شهور أو سنوات، أو يشخص حالة حمى أو يداوى جرحاً مفتوحاً فى جسد زوجته أو طفله؟ من منهم قادر على أن ينظم رفاقه الناجين كى يبدأوا حضارة جديدة - أم سيغرقون فى حياة بدائية يلتهمون رفاقهم ورفاقهم يلتهمونهم؟

«وفى غياب نزع شامل ونافذ للسلاح النووى، فإن افتراض مستقبل للسلام سيكون أمراً ساذجاً أو غير واقعى، فحسبما يبدو الآن، فإن الحرب النووية هى المحتمل أن تكون حدث العصر، وهذا يشكل حيوات أطفالنا إلى الأعماق.

«لكننا لا نكاد نتعامل معها باعتبارها صميم المشكلة، وثلثا الناس الذين يعيشون اليوم لم يعرفوا، أبداً، عالماً خلا من التهديد النووى، وذات تصور عالم خالٍ من الرؤوس الحربية والصواريخ النووية يشحب عقداً بعد عقد.

"وعملياً، فإن معظم "الجادين" فى واشنطن وأى مكان آخر ينظرون نحو عالم متحرر من الأسلحة النووية باعتباره صادراً عن عقل بسيط التفكير أو تلهية تلائم خطابات السياسيين فى الأمم المتحدة، وحتى بالنسبة للمشتغلين فإن الهدف الفاعل لاتفاقية "سولت" ليس استبعاد الرعب النووى (يسمونه، بالطبع، الردع

النووى) ولكن "تثبيته"

"كما أرى الأمر، فإن لنا الخيار: إما أن "نُضرب" على المستوى النفسى، وننزعج حتى الأعماق، ونتحرك فى عمل جاد عن الحرب النووية والأسلحة النووية الآن، كمسألة لها الأولوية القصوى فى سياستنا العامة وحياتنا الخاصة جميعاً، أو نتوقع أن "نُضرب" على المستوى الفيزيقى، خلال خمس سنوات أو من عشر سنوات إلى عشرين، بالقنابل والصواريخ التى عملنا، نحن وموسكو، على مراكمتها من أجل "الدفاع عنا".

"الرعب النووى - الردع النووى - يعنى الحياة إلى جانب القنبلة، وربما يكون عدلاً أن يموت جيلنا، الذى اختار هذا الطريق - نتيجة هذه القنبلة. ولكن ماذا عن أطفالنا؟..".

أعدت قراءة الخطاب بدءاً من قوله: "كما أرى الأمر، فإن لنا الخيار: إما أن "نُضرب" على المستوى النفسى، وننزعج حتى الأعماق..". ألم أتأخر كثيراً؟ هل أحاول هنا تشخيصاً للجثة بعد الموت أم أننى أقدم تحذيراً فى وقته؟

أننى أتذكر الشهور والأسابيع السابقة على نشوب الحرب العالمية الأولى، وأتذكر أيضاً الشهور والأسابيع السابقة على نشوب الحرب العالمية الثانية، من جديد: العبارات المألوفة والكلمات المتطابقة، والخفقان القليل فى التوافق من أجل تفهم الكارثة الوشيكة، ونفس افتقاد الحساسية عند الأغلبية العظمى من معاصريهم. لقد بلغت بالفعل الثالثة والثمانين، وأقل رسائلى شعبية هى ما احتفظت بها طويلاً، إن "الضربة" على المستوى النفسى حين تحدث فهى بحاجة لوقت كى "ننزعج حتى الأعماق"، بعبارة تنتمى للتحليل النفسى لابد من صمامة وقتية سيكولوجية، وهذا يعتمد على الشكل الذى تتخذه: المقاومة أو الإسقاط، وما إذا كان احتمالهما لوقت طويل، وما إذا كان الشىء

الذى تحتج عليه قليل الأهمية، وإلا فقد تنتهى إلى انشطار الشخصية أو تفكك الشخصية. والمقاومة يمكن أن تتخذ أشكالاً عديدة، أنها قد تفصح عن نفسها فى العجز عن التواصل، فى الحديث أو الفعل، وفى سوء الحكم والتقدير، وفى إضاعة الفرص، وفى استبعاد الالتزامات وتجاهلها. وفى الإسقاط تتوجه كل الانفعالات ضدى - عقوبة سريعة ومفاجئة.

قبل ثمانية وعشرين عاماً من الآن، أمام أعين هذا الجيل الذى يتردد اليوم فى أن يفسح للجيل التالى، كانت ثمة صمامة وقتية سيكولوچية جعلت المجتمع العلمى يضرب فى كل وجوه تحقير الذات كى لا يواجهوا - ولا يجعلوا الآخرين يواجهون - ماضينا المشترك.

خاتمة

قد يظن المؤمن بالعناية الآلهية أن النوع الإنسانى هو "المختار" من بين كل قاطنى كل كواكب المجموعة الشمسية لأن هذا النوع قد نجا من الكوارث التى قلبت العائلة الشمسية. أما غير المؤمن فقد يفكر فى أن أسلافنا ظلوا يسيرون، مسعورين، على حافة هوة فاغرة، الأقدام تنزلق والأيدى تفقد قوة القبضة. لكننا اليوم وحدنا، ومصيرنا – إلى حد عظيم – بين أيدينا، أكثر مما هو بأيدى قوى أو عناصر مطلقة السراح. القوى أو العناصر مقيدة الآن. لكننا – استخدم هنا وصفاً إنجيلياً "مرتبكون وغاضبون". وقد أخذت على عاتقى كتابة هذا الكتاب بالإحساس الفادح بالمسؤولية الذى استشعره، كمؤرخ ومشتغل بالتحليل النفسى – إن أنا احتفظت لنفسى باليقين الذى بلغته وهو أن البشرية تعيش فى فقدان الذاكرة لماضيها النوعى.

والعدو هو الوقت. وأختتم بسطرين من الشعر ليسا لى، ولا أوردهما بنصهما، لكن الوقت تأخر، وسأعيدهما:

إننا فى سباق مع الحصاد

نحن نسرع، هو يتباطأ، نحن الرابحون.

وأمل أن يكون الأمر على هذا النحو، وألا يكون على النحو الآخر

البشرية تفقد الذاكرة


منتدى سور الأزبكية
WWW.BOOKS4ALL.NET